حياة محمد ﷺ

المجلد الأول

محمَّد علي قطب

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

1

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/558
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2015 - 1436 هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

المُحْتَوَياتُ

مُقَدِّمَة ... 5

أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ ... 7

«عَبْدُ اللهِ» وَ«آمِنَةُ» ... 20

عَامُ الْفِيلِ ... 29

مَوْلِدُ النُّورِ ... 43

الرَّضَاعُ وَالطُّفُولَةُ ... 58

الْيَتِيمُ ... 71

النَّشْأَةُ وَالزَّوَاجُ مِنْ خَدِيجَةَ ... 85

الْأَمِـــينُ ... 95

الْيَدُ الشَّرِيفَةُ ... 106

اقْـــرَأْ ... 116

السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ... 131

أَوَّلُ الشُّهَدَاءِ ... 147
الْهِجْرَةُ إِلَى الْحَبَشَةِ ... 162
الْمُقَاطَعَةُ ... 178
في الطَّائِفِ ... 193

مُقَدِّمَةٌ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلّٰهِ، نَحْمَدُهُ تَعَالَى وَنَشْكُرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا وَمَوْلَانَا «مُحَمَّدًا» ـ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَخَاتَمًا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَبَعْدُ... يَا بُنَيَّ الْعَزِيزَ:

فَهَذِهِ سِيرَةُ حَيَاةِ سَيِّدِنَا «مُحَمَّدٍ» ﷺ اسْتَقَيْتُهَا لَكَ مِنْ مَصَادِرِهَا وَمَرَاجِعِهَا، مُتَوَافِقَةً مَعَ قُدُرَاتِكَ وَإِمْكَانَاتِكَ، سَهْلَةَ الْعِبَارَةِ، وَجِيزَةَ الْأُسْلُوبِ، مُحْكَمَةَ الصِّيَاغَةِ، مُتَضَمِّنَةً كُلَّ مَا يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَهُ، مِنْ غَيْرِ حَشْوٍ مُمِلٍّ، وَلَا تَطْوِيلٍ مُخِلٍّ.

أَرَدْتُهَا لَكَ زَادًا طَيِّبًا كَرِيمًا، وَأَسْمَى قُدْوَةٍ وَأُسْوَةٍ تَنْتَهِجُ صِرَاطَهَا وَتَحْذُو حَذْوَهَا.

وَاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَقُولُ:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأَحْزابُ: 21).

قَدْ جَعَلْتُهَا لَكَ فِي حَلَقَاتٍ ثَلَاثِينَ، مَبْدُوءَةً بِأُصُولِ وَجُذُورِ نَسَبِهِ الشَّرِيفِ، مُخْتَتَمَةً بِطَائِفَةٍ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ حَيَاتِهِ ﷺ؛ لِأَنَّ فِيهَا الْعِظَةَ الْبَالِغَةَ وَالْعِبْرَةَ السَّامِيَةَ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَنْفَعَ بِهَا، وَيُبَلِّغَهَا غَايَتَهَا، وَيُحَقِّقَ الْفَائِدَةَ مِنْهَا، وَأَنْ يَجْعَلَهَا مَقْبُولَةً عِنْدَهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ وَتَكُونَ مِنْ ثَمَّ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالْحَمْدُ لِلهِ أَوَّلًا وَآخِرًا.

وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ.

أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ..

بُنَيَّ الْعَزِيزَ :

يَقُولُ رَسُولُنَا الْأَكْرَمُ ﷺ: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ...».

فَمَنْ هُمَا؟ وَإِلَى أَيِّ جِذْرٍ فِي النَّسَبِ الْكَرِيمِ الشَّرِيفِ يَنْتَهِي رَسُولُنَا ﷺ «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ»؟

تَذْكُرُ ـ وَلَا شَكَّ ـ أَنَّ سَيِّدَنَا «إِبْرَاهِيمَ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ خَلِيلَ اللهِ، كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَنْجَبَ وَلَدًا...

وَلَقَدْ كَانَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ يَتَأَلَّمُ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْأَلَمِ، وَيُعَانِي أَشَدَّ الْمُعَانَاةِ، وَكَذَلِكَ زَوْجَتُهُ «سَارَةُ» ابْنَةُ عَمِّهِ.

وَحِينَ رَأَتْ زَوْجَتُهُ مِنْهُ ذَلِكَ، وَأَرَادَتْ هِيَ الْأُخْرَى أَنْ تُنَفِّسَ مَا بِهَا مِنْ حَنِينٍ إِلَى الْوَلَدِ، طَلَبَتْ إِلَى «إِبْرَاهِيمَ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْ أَمَتِهَا (جَارِيَتِهَا الْمُسْتَعْبَدَةُ) «هَاجَرَ».

وَكَانَتْ «هَاجَرُ» مِنَ «الْقِبْطِ» (نَصَارَى مِصْرَ)، مِنْ قَرْيَةٍ أَمَامَ «الْفَرَمَا»، قَرِيبٍ مِنَ «الْفُسْطَاطِ» ـ فُسْطَاطِ مِصْرَ ـ.

وَكَانَتْ لِفِرْعَوْنٍ جَبَّارٍ عَاتٍ مِنَ «الْقِبْطِ»، وَهَبَهَا لِـ «سَـارَةَ»، ثُمَّ وَهَبَتْهَا «سَارَةُ» لِـ «إِبْرَاهِيمَ».

وَحَمَلَتْ «هَاجَرُ» فَوَلَدَتْ «إِسْمَاعِيلَ».

وَلَمَّا بَلَغَ «إِسْـمَاعِيلُ» مِنَ الْعُمْرِ دُونَ السَّـنَتَيْنِ، كَانَتْ «سَارَةُ» تَرْقُبُ حَنَانَ «إِبْرَاهِيمَ» عَلَيْهِ، وَحَدْبَهُ عَلَى الْأُمِّ «هَاجَرَ»، فَتَتَضَايَقُ مِنْ ذَلِكَ وَتَتَأَثَّرُ، حَتَّى فَاضَ بِهَا الْأَسَى وَطَلَبَتْ مِنْ «إِبْرَاهِيمَ» أَنْ يَرْحَلَ بِالْأُمِّ وَوَلِيدِهَا بَعِيدًا عَنْ نَاظِرَيْهَا.

فَحَمَلَ «إِبْرَاهِيـمُ» أَمَتَهُ وَوَلَدَهُ مِنْهَا «إِسْـمَاعِيلَ»، وَاتَّجَهَ بِهِمَا إِلَى بَرِّيَّةِ «فَارَانَ»، وَهِيَ صَحْرَاءُ «الْحِجَازِ»، وَذَلِـكَ بِنَاءً عَلَى تَقْدِيرٍ وَتَدْبِيرٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَنَزَلَ بِهِمَا فِي وَادِي «بَكَّةَ».

وَهُنَاكَ تَرَكَهَا وَوَلِيدَهَا، وَمَعَهُمَا سِقَاءُ مَاءٍ وَجِرَابُ تَمْرٍ.

وَسَأَلَتْهُ «هَاجَرُ»، حِينَ رَأَتْهُ يَتْرُكُهُمَا وَيَمْضِي:

- آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟

فَقَالَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ:

- نَعَمْ.

فَقَالَتْ «هَاجَرُ»:

- إِنَّ الَّذِي أَمَرَكَ لَا يُضَيِّعُنَا.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ...

وَتَلَتْهَا الْأَعْوَامُ...

وَكَبِرَ الْغُلَامُ...

وَكَانَ «إِبْرَاهِيمُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ يَزُورُ وَلَدَهُ «إِسْمَاعِيلَ» وَأُمَّهُ «هَاجَرَ» مِنْ حِينٍ لِآخَرَ، وَيَتَفَقَّدُهُمَا، وَيُقِيمُ عِنْدَهُمَا بَعْضَ الْوَقْتِ.

الرُّؤْيَا

وفي ذَاتِ لَيْلَةٍ، وَكَانَ «إِبْرَاهِيمُ» الْخَلِيلُ فِي زِيَارَةٍ لِوَلَدِهِ وَأَمَتِهِ، رَأَى رُؤْيَا...

رَأَى مَلَاكًا مُرْسَلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى يَأْمُرُهُ أَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ! فَقَامَ فَزِعًا، وَقَدْ ظَنَّ الْأَمْرَ كَابُوسًا، وَعَادَ إِلَى النَّوْمِ، فَعَادَ إِلَيْهِ الْمَلَاكُ يَأْمُرُهُ! فَقَامَ أَيْضًا فَزِعًا، إِلَى أَنْ كَانَتِ الرُّؤْيَا الثَّالِثَةُ، عِنْدَئِذٍ تَحَقَّقَ مِنَ الْأَمْرِ.

وَكَانَ «إِبْرَاهِيمُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ مُؤْمِنًا وَمُطِيعًا لِأَمْرِ اللهِ، فَأَنْبَأَ وَلَدَهُ «إِسْمَاعِيلَ» بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَقَالَ لَهُ:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾ (الصَّافَّاتُ: 102).

وَتَرَكَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ وَلَدَهُ يَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ، وَيَرَى رَأْيَهُ، إِذْ قَالَ لَهُ:

﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ﴾ (الصَّافَّاتُ: 102).

وَكَانَ «إِسْمَاعِيلُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ كَأَبِيهِ «إِبْرَاهِيمَ» مُؤْمِنًا صَادِقَ الْإِيمَانِ، تَقِيًّا نَقِيًّا، فَقَالَ لِأَبِيهِ:

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الصَّافَّاتُ: 102).

وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ...

وَخَرَجَ «إِبْرَاهِيمُ» وَ «إِسْمَاعِيلُ» ـ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ـ لِيُنَفِّذَا أَمْرَ اللهِ تَعَالَى، وَقَدْ أَسْلَمَ كُلٌّ مِنْهُمَا أَمْرَهُ إِلَى اللهِ..

أَمَّا «إِبْرَاهِيمُ» فَبِصَبْرِهِ عَلَى الِابْتِلَاءِ بِذَبْحِ الْوَلَدِ الْوَحِيدِ، الَّذِي جَاءَهُ بَعْدَ انْقِطَاعٍ دَامَ عَشَرَاتِ السِّنِينَ، وَبَعْدَ حِرْمَانٍ طَوِيلٍ مِنَ الْوَلَدِ وَالْعَقِبِ.

وَأَمَّا «إِسْمَاعِيلُ» فَبِصَبْرِهِ عَلَى إِزْهَاقِ رُوحِهِ!

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾(الصَّافَّاتُ: 103) وَوَضَعَهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَخَذَ السِّكِّينَ بِيَدِهِ.. جَاءَتْ لِكِلَيْهِمَا الْبُشْرَى؛ فَقَدْ جَاءَهُمَا مَلَكٌ يَسُوقُ كَبْشًا مِنَ الضَّأْنِ أَقْرَنَ هُوَ فِدْيَةٌ عَنْ «إِسْمَاعِيلَ»!!

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا...

وَالْمَلَاكُ الَّذِي جَاءَ «إِبْرَاهِيمَ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ فِي الْمَنَامِ يَأْمُرُهُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ «إِسْمَاعِيلَ»، تَجْرِبَةً وَابْتِلَاءً وَفِتْنَةً مِنَ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لِنَبِيَّيْهِ ـ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ـ هَـذَا الْمَلَاكُ، جَاءَهُ مَرَّةً أُخْرَى يَأْمُرُهُ بِرَفْعِ الْقَوَاعِدِ مِنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ... «الْكَعْبَةِ»؛ كَيْ يُعِيدَ بِنَاءَهَا بَعْدَ أَنْ تَدَاعَتْ جُدْرَانُهَا، وَزَالَتْ آثَارُهَا، وَعُفِيَ عَلَى أَسَاسِهَا، وَدَرَسَتْ مَعَالِمُهُ.

وَحُـدِّدَ لَهُ المكَانُ.. فَقَامَ «إِبْرَاهِيمُ» وَ «إِسْـمَاعِيلُ» بِالْمُهِمَّةِ خَيْرَ قِيَامٍ، وَشَمَّرَا عَنْ سَوَاعِدِ الْجِدِّ، وَنَشِطَا إِلَى الْعَمَلِ الْعَظِيمِ.

وَمَـا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ حَتَّى بَـدَتِ الْكَعْبَةُ الشَّـرِيفَةُ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، وَأَضْحَتْ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا.

وَفَشَا دِينُ «إِبْرَاهِيمَ».. عِبَادَةً خَالِصَةً لِلهِ وَحْدَهُ.

وَعَرَفَ النَّاسُ رَبَّهُمْ وَاحِدًا أَحَدًا، فَرْدًا صَمَدًا، خَالِقًا وَمُدَبِّرًا وَمُقَدِّرًا.

وَعَادَ «إِبْرَاهِيمُ» ـ عَلَيْهِ السَّـلَامُ ـ إِلَى «حَبْرُونَ» فِي «فِلَسْـطِينَ»، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ «سَارَةُ» قَدْ حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ مَوْلُودَهَا «إِسْحَاقَ».

وَمَرَّتْ سَـنَوَاتٌ، وَحَـانَ أَجَلُ «إِبْرَاهِيـمَ» ـ عَلَيْهِ السَّـلَامُ ـ، وَحَضَرَ «إِسْمَاعِيلُ» مَوْتَهُ وَدَفْنَـهُ، ثُمَّ عَادَ إِلَى «فَارَانَ» ـ الْحِجَازِ ـ.

وَكَانَ «إِسْـمَاعِيلُ» قَدْ حَمَلَ إِرْثَ النُّبُوَّةِ عَنْ وَالِدِهِ «إِبْرَاهِيمَ» بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَصَدَعَ بِالرِّسَالَةِ، وَأَكْمَلَ الْمُهِمَّةَ، وَسَارَ بِأَهْلِ الْبَلَدِ سِيرَةً طَيِّبَةً كَرِيمَةً.

وَأَخَذَتْ «مَكَّةُ» تَنْمُو وَتَكْبُرُ، وَتَسْتَقْطِبُ النَّاسَ جَمِيعًا؛ فَفِيهَا «الْكَعْبَةُ» وَ «زَمْزَمُ». يَأْتُونَهَا فِي الْمَوْسِمِ حَاجِّينَ قَاصِدِينَ، فَيُؤَدُّونَ الْعِبَادَةَ وَالْمَنَاسِكَ، وَيَشْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا رَزَقَهُمْ وَخَصَّهُمْ.

الذَّبِيحُ الثَّانِي

وَمَرَّتْ عَلَى الدِّيَارِ وَأَهْلِهَا قُـرُونٌ طِوَالٌ، تَبَدَّلَتْ فِيهَا الْمَعَالِمُ وَتَغَيَّرَتْ، وَتَسَلْسَلَتْ ذُرِّيَّةُ «إِسْمَاعِيلَ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ، إِلَى أَنْ بَلَغَتْ «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ ابْنَ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ».

وَالنُّطْفَةُ الشَّرِيفَةُ؛ نُطْفَةُ «مُحَمَّدٍ» ﷺ؛ تَتَقَلَّبُ فِي ظُهُورِ الْأَحْفَادِ، حَفِيدًا بَعْدَ حَفِيدٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ.

وَكَانَ النَّاسُ عَـلَى الْفَتَرَاتِ الْمُتَبَاعِـدَةِ قَدْ ضَلُّوا عَنْ دِيـنِ «إِبْرَاهِيمَ» وَ«إِسْمَاعِيلَ»، وَانْحَرَفُوا عَنْ هُدَى اللهِ تَعَالَى!

وَأَصْبَحَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ «الْكَعْبَةُ» مَوْسُـومًا بِمَعَالِـمِ الْوَثَنِيَّةِ وَالصَّنَمِيَّةِ!!

وَغَاضَ مَاءُ «زَمْزَمَ» فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ.. وَانْطَمَرَ.

رُؤْيَا «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»

أُتِـــيَ «عَبْـــدُ الْمُطَّلِبِ» جَدُّ النَّبِيِّ ﷺ مَـــرَّاتٍ فِي الْمَنَـــامِ... يُؤْمَرُ بِحَفْرِ «زَمْزَمَ».. كَانَ يَأْتِيهِ هَاتِفٌ يُوصِيهِ بِذَلِكَ فِي لَيَالٍ مُتَعَاقِبَةٍ.

قَالَ لَهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى:

- احْفِرْ «طَيْبَةَ».

قَالَ:

- وَمَا «طَيْبَةُ»؟

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَتَاهُ، فَقَالَ:

- احْفِرْ «بَرَّةَ».

قَالَ:

- وَمَا «بَرَّةُ»؟

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَتَاهُ وَهُوَ نَائِمٌ فِي مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، فَقَالَ:

- احْفِرِ «الْمَضْنُونَةَ».

قَالَ:

- وَمَا «الْمَضْنُونَةُ»؟ أَبِنْ لِي مَا تَقُولُ.

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَتَاهُ، فَقَالَ:

- احْفِرْ «زَمْزَمَ».

قَالَ:

- وَمَا «زَمْزَمُ»؟

قَالَ:

- لَا تُنْزَحُ (أَيْ أَنَّ مَاءَهَا لَا يَغِيضُ فَيَبْدُو قَعْرُ الْأَرْضِ، بَلْ هِيَ فَوَّارَةٌ دَائِمًا) وَلَا تُذَمُّ، تَسْقِي الْحَجِيجَ الْأَعْظَمَ، وَهِيَ بَيْنَ الْفَرْثِ وَالدَّمِ، عِنْدَ نُقْرَةِ الْغُرَابِ الْأَعْصَمِ.

(وَكَانَ غُرَابٌ أَعْصَمُ لَا يَبْرَحُ عِنْدَ الذَّبَائِحِ مَكَانَ الْفَرْثِ وَالدَّمِ).

وَتَابَعَ الْهَاتِفُ يَقُولُ:

- وَهِيَ شُرْبٌ لَكَ وَلِوَلَدِكَ مِنْ بَعْدِكَ.

وَغَدَا «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» بِمِعْوَلِهِ وَمِسْحَاتِهِ، وَمَعَهُ وَلَدُهُ «الْحَارِثُ» بِكْرُهُ، وَلَيْسَ لَهُ يَوْمَئِذٍ وَلَدٌ غَيْرُهُ.

خَرَجَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» مَعَ وَلَدِهِ الْوَحِيدِ مُسْتَعِينًا بِاللهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، قَاصِدًا إِلَى حَيْثُ دَلَّهُ الْهَاتِفُ عَلَى مَكَانِ «زَمْزَمَ» وَكَانَ الْمَوْقِعُ بَيْنَ صَنَمَيْنِ لِقُرَيْشٍ يُعْرَفَانِ بِاسْمَيْ: «إِسَافٍ» وَ «نَائِلَةَ».

فَلَمَّا ظَهَرَ فِي النَّاسِ حَامِلًا مِعْوَلَهُ وَمَعَهُ وَلَدُهُ «الْحَارِثُ» وَقَدْ هَمَّ بِالْحَفْرِ، هَبُّوا إِلَيْهِ يَمْنَعُونَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، وَطَلَبَ إِلَى وَلَدِهِ «الْحَارِثِ» أَنْ يَذُودَ عَنْهُ وَيَحْمِيَهُ، وَانْشَغَلَ هُوَ بِالْحَفْرِ.

وَلَمْ يَمْضِ سِوَى وَقْتٍ يَسِيرٍ حَتَّى ظَهَرَتْ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي طَمَرَتْ بِهَا «جُرْهُمٌ» (قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ) فَتْحَةَ عَيْنِ «زَمْزَمَ»، مِنْ دُرُوعٍ وَغَيْرِهَا، وَكَذَلِكَ غَزَالَتَيْنِ مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ.

ثُمَّ بَدَا التُّرَابُ رَطْبًا مُبَلَّلًا... فَهَتَفَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» مِنَ الْفَرْحَةِ، وَتَهَلَّلَ وَجْهُهُ الْمُتَصَبِّبُ عَرَقًا بِالْبِشْرِ وَالسُّرُورِ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ عَنْ مُنَاوَشَةِ وَلَدِهِ «الْحَارِثِ» وَأَقْبَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الدُّرُوعِ وَالْغَزَالَتَيْنِ، وَرَشْحِ الْمَاءِ.

ثُمَّ تَفَجَّرَتِ الْأَرْضُ بِالْمَاءِ الْعَذْبِ النَّمِيرِ..

وَهُنَا اسْتَبَدَّ الطَّمَعُ بِالْقَوْمِ، وَثَارَتْ فِي نُفُوسِهِمُ الْأَحْقَادُ، فَأَرَادُوا أَنْ يَسْتَأْثِرُوا بِكُلِّ شَيْءٍ؛ بِالدُّرُوعِ وَالْغَزَالَتَيْنِ الذَّهَبِيَّتَيْنِ، وَمَاءِ زَمْزَمَ.

وَبَدَأَ النِّزَاعُ الْكَلَامِيُّ وَالْمُنَاقَشَةُ الْحَادَّةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَسَاهَمُوا وَيَقْتَرِعُوا؛ فَمَنْ خَرَجَتْ قُرْعَتُهُ عَلَى شَيْءٍ كَانَ مِنْ نَصِيبِهِ... فَرَضُوا بِرَأْيِهِ وَأَذْعَنُوا لِاقْتِرَاحِهِ.

وَجَاءُوا بِالْقِدَاحِ، وَهِيَ السِّهَامُ قَبْلَ أَنْ يُوضَعَ فِيهَا النَّصْلُ وَقَبْلَ أَنْ تُرَاشَ، وَبَدَأَتْ عَمَلِيَّةُ الْقُرْعَةِ، فَكَانَ مِنْ نَصِيبِ الْقَوْمِ الدُّرُوعُ، وَمِنْ نَصِيبِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» الْمَاءُ، وَمِنْ نَصِيبِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ الْغَزَالَتَانِ.

وَجَعَلَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» الْغَزَالَتَيْنِ الذَّهَبِيَّتَيْنِ حَلْقَتَيْنِ فِي بَابِ «الْكَعْبَةِ»؛ وَأَصْبَحَ هُوَ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَمِيرًا عَلَى السِّقَايَةِ؛ سِقَايَةِ الْحَجِيجِ مِنْ مَاءِ «زَمْزَمَ».

وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَا تَلَاحَى بِهِ الْقَوْمُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَوْلُ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ لِـ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»: كَيْفَ تَغْلِبُنَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ وَأَنْتَ فَرْدٌ، لَا عُزْوَةَ لَكَ وَلَا كَثْرَةَ وَلَدٍ. وَلَقَدْ حَزَّ فِي نَفْسِهِ وَآلَمَهُ أَشَدَّ الْأَلَمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ ذَلِكَ، فَأَقْسَمَ فِي مَلَإِ النَّاسِ لَئِنْ آتَاهُ اللهُ عَشْرًا مِنَ الْبَنِينَ لَيَذْبَحَنَّ أَحَدَهُمْ تَقَرُّبًا إِلَى الْآلِهَةِ.

❊❊❊

وَمَضَتِ الْأَيَّامُ...

وَتَزَوَّجَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» بِأَكْثَرَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ، فَكَثُرَ نَسْلُهُ حَتَّى أَتَمَّ اللهُ تَعَالَى لَهُ عَشْرًا مِنَ الذُّكُورِ وَسِتًّا مِنَ الْإِنَاثِ، هُمُ: «الْحَارِثُ» وَ«الزُّبَيْرُ» وَ«حَجَلٌ» وَ«ضِرَارٌ» وَ«الْمُقَوَّمُ» وَ«أَبُو لَهَبٍ» وَ«الْعَبَّاسُ» وَ«حَمْزَةُ» وَ«أَبُو طَالِبٍ» وَ«عَبْدُ اللهِ»؛ وَأَمَّا الْإِنَاثُ فَهُنَّ: «أَرْوَى» وَ«بَرَّةُ» وَ«أُمَيْمَةُ» وَ«صَفِيَّةُ» وَ«عَاتِكَةُ» وَ«الْبَيْضَاءُ ـ أُمُّ حَكِيمٍ».

عِنْدَئِذٍ أَرَادَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» أَنْ يَبَرَّ بِقَسَمِهِ وَيَفِيَ بِنَذْرِهِ، وَيَذْبَحَ أَحَدَ أَوْلَادِهِ الْعَشْرِ تَقَرُّبًا إِلَى اللهِ.

وَهُنَا تَحْضُرُنَا قِصَّةُ «إِبْرَاهِيمَ» وَ«إِسْمَاعِيلَ» ـ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ـ، وَكَيْفَ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى خَلِيلِهِ أَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ، فَكَانَتِ التَّجْرِبَةُ عَسِيرَةً، وَالِامْتِحَانُ شَدِيدًا صَعْبًا، ثُمَّ بَيَّنَ الْبَارِي ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ إِنَّمَا هُوَ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ، وَصَرَفَ عَنْ «إِبْرَاهِيمَ» وَعَنْ «إِسْمَاعِيلَ» الْأَذَى وَافْتَدَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ.

وَيَحْضُرُنَا أَيْضًا قَوْلُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ» وَيَعْنِي بِهِمَا «إِسْمَاعِيلَ» وَ«عَبْدَ اللهِ».

وَتَتَجَلَّى لَنَا بِوُضُوحٍ حِكْمَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي وِلَادَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ مِنْ صُلْبَيْنِ كَرِيمَيْنِ، أَوَّلُهُمَا نَبِيٌّ، وَكِلَاهُمَا قَدْ فُدِيَ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ.

❊❊❊

وَنَعُودُ الْآنَ إِلَى سِيَاقِ الْقِصَّةِ:

فَلَمَّا أَرَادَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» الْوَفَاءَ بِالنَّذْرِ وَالْبَرَّ بِالْقَسَمِ، كَانَتِ الْقُرْعَةُ فِي الذَّبْحِ مِنْ نَصِيبِ وَلَدِهِ «عَبْدِ اللهِ»، أَصْغَرِ الْأَبْنَاءِ، وَأَكْثَرِهِمْ وَسَامَةً وَجَمَالًا، وَأَحَبِّهِمْ إِلَى قَلْبِهِ.

وَكَمَا قَالَ «إِسْمَاعِيلُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ لِأَبِيهِ:

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الصَّافَّاتُ: 102).

خَضَعَ «عَبْدُ اللهِ»، لِرَغْبَةِ أَبِيهِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» وَمَضَى مَعَهُ إِلَى فِنَاءِ الْكَعْبَةِ، حَيْثُ اضْطَجَعَ إِلَى الْأَرْضِ وَاسْتَعَدَّ لِلذَّبْحِ!

وَهُنَا قَامَتْ قِيَامَةُ الْحُضُورِ مِنْ أَهْلِ قُرَيْشٍ، وَعَارَضُوا «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ» فِيمَا هُوَ مُقْدِمٌ عَلَيْهِ، سَوَاءٌ الَّذِينَ كَانُوا يَعِيبُونَ عَلَيْهِ قِلَّةَ الذُّرِّيَّةِ أَوْ غَيْرُهُمْ، وَتَصَدَّوْا لَهُ بِقُوَّةٍ وَعُنْفٍ وَقَالُوا:

ـ لَنْ نَتْرُكَكَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؛ حَتَّى لَا يَجْرِيَ هَذَا الْأَمْرُ مَجْرَى الْعَادَةِ وَالتَّقْلِيدِ عِنْدَ الْعَرَبِ.

وَتَحَيَّرَ الشَّيْخُ الْوَقُورُ... مَاذَا يَفْعَلُ؟ وَهَلْ يُغْضِبُ الْآلِهَةَ فِي نُكُوصِهِ عَنِ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ؟!

فَاقْتَرَحَ عَلَيْهِ وَاحِدٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ أَنْ يَذْهَبُوا جَمِيعًا إِلَى عَرَّافَةٍ كَاهِنَةٍ، هِيَ مَوْضِعُ ثِقَتِهِمْ؛ لِيَرَوْا رَأْيَهَا فِي هَذَا الشَّأْنِ.

قَالَتِ الْعَرَّافَةُ الْكَاهِنَةُ:

- عُودُوا إِلَى دِيَارِكُمْ، وَاسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ (اقْتَرِعُوا ضَرْبًا بِالسِّهَامِ) عَلَى عَشْرٍ مِنَ الْإِبِلِ فِدَاءً لِـ «عَبْدِ اللهِ»، فَإِنْ لَمْ تَرْضَ الْآلِهَةُ فَزِيدُوهَا حَتَّى تَكْتَفِيَ، مَهْمَا بَلَغَ الْعَدُّ وَعَظُمَ الْفِدَاءُ.

وَفَعَلَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» مَا أَوْصَتْ بِهِ الْكَاهِنَةُ الْعَرَّافَةُ، وَضَرَبَ الْقِدَاحَ عَلَى عَشْرٍ مِنَ الْإِبِلِ فِدَاءً لِابْنِهِ الْحَبِيبِ، فَخَرَجَ السَّهْمُ وَعَلَيْهِ كَلِمَةُ «لَا»؛ فَزَادُوا عَشْرًا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً... وَالسَّهْمُ يَخْرُجُ وَعَلَيْهِ كَلِمَةُ «لَا»، حَتَّى وَصَلَ عَدَدُ إِبِلِ الْفِدَاءِ مِئَةً، وَهُنَا خَرَجَ السَّهْمُ وَعَلَيْهِ كَلِمَةُ «نَعَمْ»... فَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ بِالصِّيَاحِ وَالْهُتَافِ، وَعَمَّ الْفَرَحُ الْجَمِيعَ، وَخَرَجَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» وَ«عَبْدُ اللهِ» مِنَ الْمِحْنَةِ..

ثُمَّ نُحِرَتِ الْإِبِلُ فِي فِنَاءِ الْكَعْبَةِ، مِئَةُ بَعِيرٍ بِكَامِلِهَا، فَسَالَتْ دِمَاؤُهَا غَزِيرَةً، فَبَلَّلَتِ الثَّرَى، وَغَطَّتْ وَجْهَ الْأَرْضِ، ثُمَّ سُلِخَتْ جُلُودُهَا، وَوُزِّعَتْ لُحُومُهَا، وَلَمْ يُمْنَعْ مِنْهَا إِنْسَانٌ أَبَدًا، وَلَا سَبُعٌ وَلَا طَائِرٌ.

وَتَنَاقَلَ النَّـاسُ فِي الْبَوَادِي وَالْحَوَاضِرِ النَّبَأَ الْعَظِيـمَ... وَالْفِدْيَةَ الْغَالِيَةَ الْبَاهِظَةَ الَّتِي افْتُدِيَ بِهَا «عَبْدُ اللهِ»؛ «عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» الَّذِي يَدَّخِرُهُ الْمَوْلَى ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لِأَمْرٍ خَطِيرٍ جَلَلٍ.

وَاسْتُنْقِذَ الذَّبِيحُ الثَّانِي مِنَ النَّذْرِ، وَنَجَا مِنَ الْمَوْتِ؛ لِأَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى وَقَضَاهُ.

❊❊❊

وَتَهَيَّأَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» لِـزَوَاجِ «عَبْدِ اللهِ» مِنْ «آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ».. وَتَهَيَّأَ «عَبْدُ اللهِ» لِلدُّخُولِ عَلَى «آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ».

وَتَهَيَّأَ الْكَوْنُ كُلُّهُ وَاسْتَعَدَّ، لِاسْتِقْبَالِ أَكْرَمِ مَوْلُودٍ... سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ «مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ» ﷺ.

وَهَكَذَا ـ عَزِيزِي الْقَارِئَ ـ تَسَلْسَـلَ النَّسَبُ الشَّـرِيفُ، وَتَقَلَّبَتِ النُّطْفَةُ الشَّـرِيفَةُ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، حَتَّى اسْـتَقَرَّتْ فِي رَحِمِ «آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ»، وَحَمَلَتْ بِسَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ.

«عَبْدُ اللَّهِ» وَ «آمِنَةُ»

كَانَ «عَبْدُ اللهِ» مِنْ أَحْسَنِ الشَّبَابِ خِلْقَةً وَوَسَامَةً وَجَمَالًا، وَمِنْ أَرْفَعِهِمْ خُلُقًا وَطِبَاعًا، وَمِنْ أَمْتَعِهِمْ مَعْشَرًا وَحَدِيثًا، وَمِنْ أَكْثَرِهِمْ فِتْنَةً وَسِحْرًا..

وَلَقَدْ كَانَتْ فَتَيَاتُ قُرَيْشٍ يَتَعَشَّقْنَ جَمَالَهُ، وَيَتَمَنَّيْنَ زَوَاجَهُ، وَيُرَاوِدْنَ أَنْفُسَهُنَّ عَلَى الِاسْتِئْثَارِ بِهِ، كُلٌّ تُرِيدُهُ لِنَفْسِهَا بَعْلًا وَزَوْجًا، وَهُوَ عَنْهُنَّ فِي شُغْلٍ وَانْصِرَافٍ.

أَضِفْ إِلَى كُلِّ تِلْكَ الصِّفَاتِ الْخِلْقِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهَا «عَبْدُ اللهِ»، نُورًا كَانَ يَشِعُّ فِي وَجْهِهِ، وَيَتَّقِدُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَكَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَيْلَةَ التَّمِّ...

إِنَّهَا ـ وَلَا شَكَّ ـ إِشْرَاقَةُ «مُحَمَّدٍ» ﷺ، وَتَبَاشِيرُ ظُهُورِهِ، وَسِيمَاءُ نُبُوَّتِهِ.

عَادَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» ـ شَيْخُ قُرَيْشٍ وَصَاحِبُ السِّقَايَةِ فِيهَا ـ مِنْ عِنْدِ «الْكَعْبَةِ» وَقَدْ رَضِيَتْ نَفْسُهُ، وَارْتَاحَ فُؤَادُهُ، وَاطْمَأَنَّ ضَمِيرُهُ..

كَانَ يَمْشِي بِوَقَارٍ وَهُدُوءٍ، يَحُفُّ بِهِ أَبْنَاؤُهُ الْعَشْرُ، وَيُمْسِكُ بِحَنَانٍ بَالِغٍ يَدَ فَتِيِّهِ «عَبْدِ اللهِ».

وَفِي الطَّرِيقِ قَابَلَتْهُ إِحْدَى فَتَيَاتِ الْعَرَبِ، وَوَقَفَتْ قُبَالَتَهُ وَقَالَتْ:

- يَا «عَبْدَ اللهِ» إِلَى أَيْنَ؟

فَقَالَ:

- مَعَ أَبِي إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ وَيُرِيدُ.

فَقَالَتْ:

- هَلْ لَكَ فِيمَا أَعْرِضُهُ عَلَيْكَ؟

فَقَالَ:

- وَمَا ذَاكَ؟

فَقَالَتْ:

- تَتَزَوَّجُنِي الْآنَ وَلَكَ مِنِّي مِئَةٌ مِنَ الْإِبِلِ، بِعَدَدِ مَا فُدِيتَ بِهِ، وَإِنْ شِئْتَ أَكْثَرَ.

فَقَالَ «عَبْدُ اللهِ»:

- لَيْسَ لِي بِكِ حَاجَةٌ، وَإِنَّمَا أَنَا رَهْنُ إِشَارَةِ أَبِي وَسَيِّدِي.

فَنَظَرَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» إِلَى وَلَدِهِ وَتَبَسَّمَ، ثُمَّ مَضَى فِي سَيْرِهِ، وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّهُ قَدْ آنَ الْأَوَانُ لِتَزْوِيجِ «عَبْدِ اللهِ».

وَفَكَّرَ وَهُوَ فِي الدَّارِ: أَيُّ الْفَتَيَاتِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُوَازِيَ «عَبْدَ اللهِ» فِي حَسَبِهِ وَنَسَبِهِ وَشَرَفِهِ؟!

ثُمَّ هَدَاهُ تَفْكِيرُهُ إِلَى «آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ الزُّهْرِيَّةِ»، فَقَصَدَ إِلَى أَبِيهَا «وَهْبٍ» وَخَطَبَهَا مِنْهُ، فَرِحَ الْأَخِيرُ بِالْمُصَاهَرَةِ الْعَظِيمَةِ، وَأَعْلَنَ ذَلِكَ عَلَى الْمَلَإِ.

وَجَرَى الِاسْتِعْدَادُ لِيَوْمِ الزِّفَافِ، وَكَانَ يَوْمًا عَظِيمًا حَافِلًا؛ إِذْ «عَبْدُ اللهِ» فَتَى قُرَيْشٍ الْمُفَدَّى، وَ«آمِنَةُ» أَرْفَعُ فَتَيَاتِ الْعَرَبِ مَكَانَةً، وَأَسْمَاهُنَّ خُلُقًا، وَأَعْظَمُهُنَّ مَحْتِدًا.

بَنَى «عَبْدُ اللهِ» بِزَوْجَتِهِ «آمِنَةَ»، وَكَانَ سِنُّهُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ يَدْرُجُ نَحْوَ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ، وَقَضَى فِي جَنْبِهَا أَيَّامًا هَانِئَةً طَيِّبَةً، حُلْوَةً لَذِيذَةً، وَتَمَتَّعَ كِلَاهُمَا بِنَعِيمِ الِاقْتِرَانِ وَالزَّوَاجِ.

وَتَحَدَّثَ الْقَاصِي وَالدَّانِي مِنَ النَّاسِ عَنِ الزَّوَاجِ السَّعِيدِ الَّذِي مَا عَرَفَتْ دِيَارُ الْعَرَبِ لَهُ مَثِيلًا.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ خَرَجَ «عَبْدُ اللهِ» مِنْ دَارِهِ لِبَعْضِ شَأْنِهِ، فَلَقِيَ فِي الطَّرِيقِ نَفْسَ الْفَتَاةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ عَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ وَالزَّوَاجَ مِنْهُ، وَهِيَ «أُمُّ قِتَالَةَ» أُخْتُ «وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ»، فَقَالَ لَهَا:

- هَلَّا زِلْتِ رَاغِبَةً فِي الزَّوَاجِ مِنِّي؟ فَإِنْ كُنْتِ كَذَلِكَ فَلَا مَانِعَ عِنْدِي.

قَالَ لَهَا ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ رَأَى أَنَّهَا لَمْ تَعْرِضْ لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا سَبَقَ، فَأَحَبَّ أَنْ يَسْتَنْطِقَهَا وَيَسْتَوْضِحَهَا.

فَقَالَتْ لَهُ «أُمُّ قِتَالَةَ»:

- كَلَّا...

فَقَالَ «عَبْدُ اللهِ»:

ـ وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ؟

فَقَالَتْ:

ـ لَقَدْ ذَهَبَ النُّورُ الَّذِي كَانَ يُضِيءُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْكَ، وَأَفْضَى إِلَى «آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ»، وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَكُونَ صَاحِبَتَهُ.

وَتَفْصِيلُ الْأَمْرِ..

أَنَّ «وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ» ـ أَخَاهَا ـ كَانَ مِنْ طَبَقَةِ الْعَاقِلِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، يُنْكِرُ عَلَى قُرَيْشٍ سَفَاهَتَهَا، وَضَعْفَ عُقُولِهَا، وَعُكُوفَهَا عَلَى الْأَوْثَانِ، وَعِبَادَتَهَا لِلْأَصْنَامِ، وَكَانَ يَنْتَظِرُ ظُهُورَ نَبِيٍّ مِنَ الْعَرَبِ قَدْ حَلَّ زَمَانُهُ.

وَلَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ عَلَامَاتٌ وَمُؤَشِّرَاتٌ تُوحِي بِأَنَّهُ «أَيِ النَّبِيَّ الْمُنْتَظَرَ» سَيَكُونُ هَاشِمِيًّا مِنْ نَسْلِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

كَمَا أَنَّ وَجْهَ «عَبْدِ اللهِ» الْوَضِيءَ كَانَ يُوحِي بِكُلِّ ذَلِكَ؛ فَكَانَتْ «أُمُّ قِتَالَةَ» تَسْمَعُ مِنْ أَخِيهَا «وَرَقَةَ» إِرْهَاصَاتِهِ (عَلَامَاتُه)، فَتَمِيلُ بِكُلِّيَّتِهَا، بِعَوَاطِفِهَا وَجَوَارِحِهَا وَوُجْدَانِهَا إِلَى «عَبْدِ اللهِ»، رَاجِيَةً وَآمِلَةً أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ الْمُنْتَظَرُ بَضْعَةً مِنْهَا.

فَلَمَّا تَزَوَّجَ «عَبْدُ اللهِ» مِنْ «آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ» سَرَى النُّورُ مِنْ صُلْبِهِ إِلَى كِيَانِهَا، وَاسْتَقَرَّ بَيْنَ ضُلُوعِهَا.

مَرَّتْ أَيَّـامٌ قَلَائِلُ، ثُمَّ جَاءَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» يَطْلُـبُ إِلَى «عَبْدِ اللهِ» وَلَدِهِ الْحَبِيبِ، أَنْ يَتَجَهَّزَ لِلسَّـفَرِ فِي رِحْلَةِ الصَّيْفِ إِلَى الشَّـامِ، فَقَدْ سَاهَمَ «عَبْدُ الْمُطَّلِـبِ» بِنَصِيبٍ كَبِيرٍ فِي عُرُوضِ التِّجَارَةِ الَّتِـي تَحْمِلُهَا الْقَافِلَةُ، وَعَلَى «عَبْـدِ اللهِ» أَنْ يَكُونَ الْقَيِّمَ الْحَارِسَ عَلَى مَالِ أَبِيهِ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةَ الْأُولَى الَّتِـي يَقُومُ فِيهَا «عَبْدُ اللهِ» بِهَذِهِ الْمُهِمَّـةِ؛ فَقَدِ ارْتَحَلَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَأَدَّى الْوَاجِبَ بِمُنْتَهَى الْأَمَانَةِ وَالنَّشَـاطِ، وَحُسْنِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَكَسَبَ لِأَبِيهِ مَالًا وَفِيرًا.

لَـمْ يُمَانِعْ «عَبْدُ اللهِ» فِي الطَّلَبِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهِ لَا يَزَالُ قَرِيبَ عَهْدٍ بِعُرْسٍ وَزَوَاجٍ، لَمْ يَهْنَأْ بِهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَشْتَهِي؛ إِذْ كَانَتِ الطَّاعَةُ أَبْرَزَ صِفَاتِهِ وَتَاجَ أَخْلَاقِهِ، فَأَذْعَنَ رَاضِيًا مَرْضِيًّا.

وَفِي يَوْمِ السَّـفَرِ الْمَوْعُودِ.. وَدَّعَ «عَبْدُ اللهِ» «آمِنَـةَ» وَدَاعًا حَارًّا، وَكَأَنَّ إِحْسَاسًا مِنْ دَاخِلِهِ يُنْبِئُهُ بِالْفِرَاقِ الْأَبَدِيِّ...

ثُمَّ انْفَتَلَ عَنْ بَابِ الدَّارِ يَمْسَحُ عَبْرَتَيْنِ تَحَدَّرَتَا مِنْ عَيْنَيْهِ عَلَى وَجْنَتَيْهِ...

وَوَقَفَتْ «آمِنَةُ» بِبَابِ الدَّارِ، تَرْقُبُ الزَّوْجَ الْحَبِيبَ، حَتَّى غَابَ خَيَالُهُ عَنْ نَاظِرَيْهَا، قَلْبُهَا وَاجِفٌ، وَلِسَانُهَا لَا يَفْتَأُ يَدْعُو لَهُ بِالسَّلَامَةِ حِلًّا وَتَرْحَالًا.

وَأَتَى أَبَاهُ فَوَدَّعَهُ، ثُمَّ اسْتَمَعَ إِلَى وَصَـايَاهُ وَنَصَائِحِهِ، وَغَـدَا مِـنْ فَوْرِهِ يَنْضَمُّ إِلَى رَكْبِ الْقَافِلَةِ، الَّتِي أَخَذَتْ طَرِيقَهَا شَمَالًا بِاتِّجَاهِ أَرْضِ الشَّامِ.

كَانَتِ الْوِجْهَةُ مَدِينَةَ «غَزَّةَ» عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ، «غَزَّةُ» الَّتِي كَانَ لِجَدِّهِ «هَاشِمٍ» ذِكْرٌ وَأَثَرٌ فِيهَا.

وَبَعْدَ لَأْيٍ وَنَصَبٍ مِنَ السَّيْرِ الْمُتَوَاصِلِ، حَيْثُ تَخْتَلِفُ تَضَارِيسُ الْأَرْضِ بَيْنَ صَحَارَى قَاحِلَةٍ، إِلَى كُثْبَانٍ عَالِيَةٍ، ثُمَّ أَوْدِيَةٍ عَمِيقَةٍ، وَجِبَالٍ شَاهِقَةٍ... وَأَيْضًا بَيْنَ حَرَارَةٍ وَجَفَافٍ، وَبَرْدٍ وَصَقِيعٍ وَرُطُوبَةٍ، بَلَغَ الرَّكْبُ مَشَارِفَ «غَزَّةَ»، وَهُنَاكَ حَطُّوا رِحَالَهُمْ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الدِّيَارِ يَبْتَاعُونَ مِنْهُمْ وَيَبِيعُونَ، حَتَّى اكْتَفَى الطَّرَفَانِ وَاسْتَوْفَوْا.

فَحَزَمَ الْقَادِمُونَ مَتَاعَهُمْ، وَتَهَيَّئُوا لِرَحِيلِ الْعَوْدَةِ، وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ شَغَفًا وَشَوْقًا «عَبْدُ اللهِ»، الْعَرِيسُ الَّذِي لَمْ تَكْتَمِلْ أَيَّامُ فَرْحَتِهِ وَهَنَائِهِ.

وَبَيْنَمَا الْقَافِلَةُ فِي طَرِيقِ الْأَوْبَةِ، وَقَدْ بَاتَتْ قَرِيبًا مِنْ «يَثْرِبَ»، وَقَعَ «عَبْدُ اللهِ» فَرِيسَةً لِلْحُمَّى الشَّدِيدَةِ...

فَلَمَّا دَخَلُوا «يَثْرِبَ» لِلرَّاحَةِ، اشْتَدَّتْ عَلَى «عَبْدِ اللهِ» وَطْأَةُ الْمَرَضِ، وَلَمْ يَعُدْ يَقْدِرُ عَلَى الْوُقُوفِ أَوِ الْحَرَكَةِ، وَأَصْبَحَ أَمْرُ سَفَرِهِ إِلَى «مَكَّةَ» مُسْتَحِيلًا، فَأَقَامَ فِي رِعَايَةِ أَخْوَالِهِ بَنِي «عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ»، وَتَابَعَتِ الْقَافِلَةُ رِحْلَتَهَا إِلَى «مَكَّةَ»...

وَكَانَ فِي «مَكَّةَ» قَلْبَانِ مُتَعَلِّقَانِ بِالْقَافِلَةِ غُدُوًّا وَرَوَاحًا، سَفَرًا وَإِيَابًا، هُمَا قَلْبَا «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» وَ«آمِنَةَ»؛ الْأَبِ الْحَنُونِ، وَالزَّوْجَةِ الْحَبِيبَةِ.

فَلَمَّا أَطَلَّتِ الْقَافِلَةُ عَلَى «مَكَّةَ» وَهِيَ خِلْوٌ مِنْ «عَبْدِ اللهِ»، طَارَ الْقَلْبَانِ شَعَاعًا مِنَ الْجَزَعِ وَالْخَوْفِ، وَأَقْبَلَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» يَسْأَلُ مُتَلَهِّفًا عَنْ

سِـــرِّ غِيَابِ وَلَدِهِ الْحَبِيبِ، فَأُخْبِرَ بِأَنَّهُ مَرِيـــضٌ يُعَانِي مِنْ أَثَرِ الْحُمَّى، وَقَدْ لَبِثَ فِي «يَثْرِبَ» يَرْعَاهُ أَخْوَالُهُ وَيُمَرِّضُونَهُ.

فَاطْمَأَنَّ بَعْضَ الشَّـــيْءِ، وَلَكِنَّهُ أَمَرَ ابْنَهُ «الْحَارِثَ» أَنْ يَغْدُوَ مَعَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ إِلَى «يَثْرِبَ»، لِيَتَسَقَّطَ أَخْبَارَ أَخِيهِ، وَيَكُونَ إِلَى جَانِبِهِ، ثُمَّ يَعُودَ بِهِ حِينَ تَسْنَحُ الْفُرْصَةُ، وَلَا يَتَوَانَى عَنْ إِسْعَافِهِ وَبَذْلِ كُلِّ مَعُونَةٍ لَهُ، مَهْمَا بَلَغَتْ.

وَنَفَّذَ «الْحَارِثُ» أَمْرَ أَبِيهِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وَانْطَلَقَ إِلَى «يَثْرِبَ».

أَمَّا « آمِنَةُ» فَقَدْ جَلَسَـــتْ فِي دَارِهَا حَزِينَةً آسِفَةً، تَنْظُرُ بَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ إِلَى الْأُفُقِ الْبَعِيدِ، ثُمَّ إِلَى الطِّفْلِ الَّذِي يَتَحَرَّكُ فِي أَحْشَائِهَا، ثُمَّ تَمْسَحُ دُمُوعَهَا فِي حَسْرَةٍ، وَتَتَنَهَّدُ.

وَأَغَذَّ «الْحَارِثُ» السَّيْرَ يَسْتَعْجِلُ الطَّرِيقَ، وَيُبَادِرُ الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَةَ، وَيَوَدُّ لَوْ يَنْطَوِي لَهُ الزَّمَنُ فَيُدْرِكُ أَخَاهُ.

وَلَكِنَّ قَضَاءَ اللهِ وَقَدَرَهُ كَانَ قَدْ حُمَّ...

لَمْ يَسْـــتَطِعْ «عَبْدُ اللهِ» أَنْ يُغَالِبَ مِحْنَةَ الْمَـــرَضِ، وَلَمْ تَنْفَعْ مَعَهُ عَقَاقِيرُ الْأَطِبَّاءِ، وَلَا رُقَى وَلَا تَعَاوِيذُ الْكَهَنَةِ، فَلَفِظَ أَنْفَاسَهُ بَعِيدًا عَنْ أَرْضِ الْوَطَنِ، وَبَعِيدًا عَنِ الأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ، وَقَبْلَ أَنْ يَرَى وَلِيدَهُ الْحَبِيبَ، سَـــيِّدَ الْخَلْقِ وَحَبِيبَ الْحَقِّ، رَسُولَ الْهُدَى وَالنُّورِ، وَمُبَدِّدَ الدَّيْجُورِ (الظُّلْمَةُ)، «مُحَمَّدًا» صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَصَلَ «الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» إِلَى «يَثْرِبَ»، فَإِذَا «عَبْدُ اللهِ» قَدْ مَاتَ وَوُرِيَ الثَّرَى، فَعَادَ مِنْ تَوِّهِ كَاسِفًا حَزِينًا بَاكِيًا، لَا يَدْرِي بِأَيِّ لِسَانٍ يُخْبِرُ أَبَاهُ الْمُنْتَظِرَ الْقَلِقَ، خَبَرَ مَوْتِ «عَبْدِ اللهِ»، وَلَا بِأَيِّ وَجْهٍ يُقَابِلُ الزَّوْجَةَ الْمِسْكِينَةَ «آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبٍ».

فَبَيْنَ الْحُزْنِ وَالْجَزَعِ، وَالْحَيْرَةِ وَالْأَسَى، كَانَ كِيَانُ «الْحَارِثِ» يَتَمَزَّقُ وَيَتَقَطَّعُ، تَتَقَاذَفُهُ تَيَّارَاتُ اللَّهْفَةِ الصَّادِقَةِ عَلَى أَخِيهِ وَأَبِيهِ، كَأَنَّهُ رِيشَةٌ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ.

فَلَمَّا دَخَلَ «مَكَّةَ» وَوَصَلَ إِلَى دَارِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وَاسْتَقْبَلَهُ بِوَجْهِهِ الْمُسْوَدِّ الْحَزِينِ، أَدْرَكَ الشَّيْخُ الْمِسْكِينُ فَظَاعَةَ الْأَمْرِ وَخُطُورَةَ الْحَالِ، فَبَكَى وَنَشَجَ، ثُمَّ تَمَاسَكَ وَتَجَلَّدَ، وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَقَامَ مُتَبَاطِئًا قَدْ أَفْقَدَتْهُ الْمُصِيبَةُ كَثِيرًا مِنْ نَشَاطِهِ وَحَيَوِيَّتِهِ، وَطَرَحَ عَلَى كَتِفَيْهِ رِدَاءَهُ، ثُمَّ مَضَى فِي خُطُوَاتٍ وَئِيدَةٍ نَحْوَ دَارِ «آمِنَةَ».

وَهُنَاكَ جَلَسَ إِلَيْهَا مُوَاسِيًا وَمُعَزِّيًا، وَمُحَدِّثًا بِمَا كَانَتْ تُسْعِفُهُ قَرِيحَتُهُ مِنْ لِينِ الْكَلَامِ، مُحَاوِلًا أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهَا وَقْعَ الْفَاجِعَةِ وَأَلَمَ الْمُصَابِ.

تَقَبَّلَتْ «آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ» أَمْرَ اللهِ تَعَالَى، وَاسْتَسْلَمَتْ لِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَسَكَتَ لِسَانُهَا عَنْ كُلِّ نَدْبٍ أَوْ صُرَاخٍ أَوْ عَوِيلٍ، وَلَقَدْ كَانَتْ دُمُوعُهَا الْغَزِيرَةُ الْمِدْرَارَةُ أَفْصَحَ بَيَانًا، وَأَعْظَمَ دِلَالَةً عَلَى مَا نَزَلَ وَأَلَمَّ بِهَا مِنَ

الْمُصِيبَةِ، فَطَوَتْ نَفْسَـــهَا عَلَى وَلِيدِهَا فِي أَحْشَائِهَا، وَقَطَعَتْ بَاقِيَ أَيَّامِهَا فِي حُزْنٍ صَامِتٍ غَامِرٍ.

غَيْرَ أَنَّ «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ» الْأَبَ الْحَنُونَ الْعَطُوفَ، صَاحِبَ الْقَلْبِ الْكَبِيرِ، سَـــيِّدَ قُرَيْشٍ وَشَـــيْخَهَا، لَمْ يَنْقَطِعْ أَبَدًا عَنْ زِيَارَةِ «آمِنَـــةَ»، وَالْوُقُوفِ عَلَى حَاجَاتِهَا وَمُتَطَلَّبَاتِ مَعِيشَتِهَا، وَرِعَايَةِ شُئُونِهَا، وَلَقَدْ كَانَ يُؤَمِّلُ فِي الْمَوْلُودِ الْمُنْتَظَرِ خَيْرًا عَظِيمًا، لَا حُدُودَ لَهُ.

كَمَا أَنَّ «آمِنَةَ» مِنْ نَاحِيَتِهَا لَمْ تَكُنْ تَشْـــعُرُ بِثِقَـــلٍ فِي حَمْلِهَا، أَوْ تَعَبٍ أَوْ مَشَقَّةٍ كَبِيرَةٍ فِي أَحْشَائِهَا.

كَانَ سَـــلْوَاهَا فِي وَحْدَتِهَا، وَأَنِيسَـــهَا فِي خَلْوَتِهَا، وَأَمَلَهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَذِكْرَى حَبِيبِهَا الرَّاحِلِ «عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

حَتَّى أَتَمَّتْ مُدَّةَ الْحَمْلِ، وَآنَ أَوَانُ الْوِلَادَةِ، وَحَلَّ الْمَوْعِدُ الْعَظِيمُ، مَوْلِدُ صَفْوَةِ الْبَشَرِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ.

عَامُ الْفِيلِ

فِي غَابِرِ الْأَيَّامِ وَسَالِفِ الْعُصُورِ...

مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا ـ تَقْرِيبًا ـ حَدَثَ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَدَثٌ عَظِيمٌ، عَجِيبٌ غَرِيبٌ، كَانَ إِرْهَاصًا وَإِعْلَانًا بِمَوْلِدِ سَيِّدِنَا «مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ» ﷺ.

فَقَدْ كَانَ يَحْكُمُ «الْيَمَنَ» فِي أَقْصَى الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجَزِيرَةِ، مَلِكٌ مُسْتَبِدٌّ يُدْعَى «أَبْرَهَةَ الْأَشْرَمَ» حَبَشِيُّ الْأَصْلِ، أَسْوَدُ اللَّوْنِ، ضَخْمُ الْجِسْمِ، مَرْبُوعُ الْقَامَةِ.

وَسَبَبُ تَسْمِيَتِهِ بِالْأَشْرَمِ هُوَ جُرْحٌ هَائِلٌ فِي وَجْهِهِ، يَمْتَدُّ مِنْ أَعْلَى الْجَبْهَةِ إِلَى أَسْفَلِ الذَّقْنِ، مُرُورًا بِالْعَيْنِ وَالْخَدِّ وَالْأَنْفِ وَالشَّفَتَيْنِ.

وَلَقَدْ كَانَ هَذَا الْجُرْحُ إِثْرَ مَعْرَكَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَائِدِ الْجَيْشِ الْحَبَشِيِّ الَّذِي جَاءَ إِلَى الْيَمَنِ مُسْتَعْمِرًا، وَكَانَ «أَبْرَهَةُ» يَطْمَعُ فِي مُلْكِ «الْيَمَنِ».

فَلَمَّا انْتَصَرَ الْأَحْبَاشُ عَلَى عَرَبِ «الْيَمَنِ»، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى الْبِلَادِ وَبَسَطُوا سُلْطَانَهُمْ، تَنَافَسَ «أَبْرَهَةُ» مَعَ الْقَائِدِ الْعَامِّ أَيُّهُمَا يَكُونَ لَهُ الْحُكْمُ، ثُمَّ تَبَارَزَا... فَشُجَّ وَجْهُ «أَبْرَهَةَ» وَقُتِلَ الْقَائِدُ غَدْرًا، وَانْفَرَدَ «أَبْرَهَةُ» بِحُكْمِ الْبِلَادِ.

وَعَلِمَ مَلِكُ الْحَبَشَةِ بِمَا جَرَى لِقَائِدِهِ مِنَ الْمَوْتِ عَلَى يَدِ عَبْدِهِ «أَبْرَهَةَ»، فَأَقْسَمَ أَنْ يَدْخُلَ الْيَمَنَ، وَيَطَأَ أَرْضَهَا، وَيَجُزَّ نَاصِيَةَ وَشَعْرَ «أَبْرَهَةَ»؛ إِذْلَالًا لَهُ، وَعِقَابًا عَلَى مَا جَنَتْ يَدَاهُ مِنَ الْغَدْرِ.

كَانَ «أَبْرَهَةُ» ـ إِلَى جَانِبِ اسْتِبْدَادِهِ وَغِلْظَتِهِ ـ وَاسِعَ الْحِيلَةِ عَظِيمَ الدَّهَاءِ وَالْمَكْرِ، فَفَكَّرَ فِي تَهْدِيدِ الْمَلِكِ لَهُ وَتَوَعُّدِهِ إِيَّاهُ، فَاحْتَالَ لِذَلِكَ بِأَنْ جَعَلَ بَعْضًا مِنْ تُرَابِ أَرْضِ «الْيَمَنِ» فِي كِيسٍ، ثُمَّ قَصَّ يَسِيرًا مِنْ شَعْرِ رَأْسِهِ، وَأَرْسَلَ كُلَّ ذَلِكَ إِلَى الْمَلِكِ مَعَ رِسَالَةٍ يَقُولُ فِيهَا:

ـ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ... إِنَّنِي مَا فَعَلْتُ شَيْئًا يَدْعُو إِلَى غَضَبِ الْمَلِكِ، وَلَقَدْ دَفَعَنِي إِلَى قِتَالِ الْقَائِدِ تَصَرُّفُهُ الِاسْتِقْلَالِيُّ بِحُكْمِ الْيَمَنِ وَإِبْعَادُهَا عَنْ سُلْطَانِكَ، كَمَا أَنَّنِي حَقَنْتُ دِمَاءَ إِخْوَانِي مِنَ الْأَحْبَاشِ، وَتَعَرَّضْتُ لِلْقَائِدِ بِنَفْسِي، ثُمَّ هَا أَنَا أَضَعُ نَفْسِي وَمَنْ مَعِي فِي وَلَائِكَ، وَحَتَّى تَبَرَّ بِقَسَمِكَ وَيَمِينِكَ أَرْسَلْتُ لِجَلَالَتِكَ شَعْرِي بِنَفْسِي، وَتُرَابًا مِنْ أَرْضِ «الْيَمَنِ» تَدُوسُ بِقَدَمِكَ فَوْقَهُ، وَسَأَظَلُّ عَبْدَكَ الْوَفِيَّ الطَّائِعَ، الْمَشْمُولَ بِرِعَايَتِكَ وَسُلْطَانِكَ وَتَأْيِيدِكَ.

ارْتَاحَتْ نَفْسُ الْمَلِكِ لِرِسَالَةِ «أَبْرَهَةَ»، وَسَكَتَ عَنْ عِقَابِهِ، وَبِهَذَا اسْتَمَرَّ «أَبْرَهَةُ الْأَشْرَمُ» حَاكِمًا عَلَى «الْيَمَنِ»، يَدِينُ بِالْوَلَاءِ وَالطَّاعَةِ لِمَوْلَاهُ مَلِكِ «الْحَبَشَةِ».

كَانَ «أَبْرَهَةُ» عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ؛ أَمَّا مَجِيئُهُ إِلَى «الْيَمَنِ» مَعَ جَيْشِ الْأَحْبَاشِ فَكَانَ لِمُنَاصَرَةِ نَصَارَى «جِيزَانَ» وَ«نَجْرَانَ» عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَتَخْلِيصِهِمْ مِنْ طُغْيَانِ الْمُشْرِكِينَ.

فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى عَرْشِ الْبِلَادِ، وَاسْتَخْلَصَ السُّلْطَانَ بِنَفْسِهِ، وَأَمَّنَ إِخْوَانَهُ النَّصَارَى مِنْ تَسَلُّطِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ، ابْتَنَى فِي الدِّيَارِ كَنِيسَةً عَظِيمَةً؛ لَمْ يُرَ مِثْلُهَا فِي زَمَانِهَا.

وَلَقَدِ اسْتَذَلَّ أَهْلَ الْبِلَادِ فِي بِنَائِهَا، وَسَخَّرَهُمْ فِي إِقَامَتِهَا، فَمَنْ تَأَخَّرَ عَنِ الْعَمَلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ تُقْطَعُ يَدُهُ، وَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ قَصْرِ «بِلْقِيسَ» ـ مَلِكَةِ سَبَإٍ ـ رُخَامًا وَأَحْجَارًا وَمَتَاعًا عَظِيمًا، وَرَكَّبَ فِي جُدْرَانِهَا صُلْبَانًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، وَزَيَّنَهَا بِالْعَاجِ وَالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ وَغَيْرِهَا؛ وَجَعَلَ ارْتِفَاعَهَا عَظِيمًا جِدًّا، وَاتِّسَاعَهَا بَاهِرًا فَسِيحًا.

وَلَقَدْ كَانَ «أَبْرَهَةُ الْأَشْرَمُ» يَهْدِفُ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ ذَلِكَ إِلَى صَرْفِ أَذْهَانِ وَعُقُولِ الْعَرَبِ، مِنْ أَهْلِ «الْيَمَنِ»، عَنْ تَطَلُّعِهِمُ الدَّائِمِ، وَارْتِحَالِهِمْ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ إِلَى «مَكَّةَ»، حَيْثُ يَقُومُونَ بِتَقْدِيمِ الْقَرَابِينِ وَالذَّبَائِحِ وَالنُّذُورِ لِلْأَصْنَامِ، وَيُقَدِّسُونَ بِاحْتِرَامٍ بَالِغٍ «الْكَعْبَةَ».

لَيْسَ حُبًّا بِهِدَايَتِهِمْ إِلَى الْحَقِّ، أَوْ تَحْوِيلِهِمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، بَلْ رَغْبَةً فِي ضَمِّهِمْ إِلَى صُفُوفِ أَتْبَاعِهِ وَرَعِيَّتِهِ.

إِلَّا أَنَّ الْأَعْرَابَ مِنْ أَهْلِ «الْيَمَنِ» لَمْ تَفْتِنْهُمْ كَنِيسَةُ «أَبْرَهَةَ»، وَلَمْ يُخِفْهُمْ وَعِيدُهُ وَلَا تَهْدِيدُهُ، فَظَلُّوا مُتَشَبِّثِينَ بِمُعْتَقَدِهِمُ الْقَدِيمِ، وَوَلَائِهِمْ لِـ«الْكَعْبَةِ» وَلِلْأَصْنَامِ الَّتِي تُحِيطُ بِهَا.

فَمَعَ كُلِّ مَوْسِمٍ كَانَتْ قَوَافِلُهُمْ تَنْطَلِقُ مُحَمَّلَةً بِالْهَدَايَا وَالنُّذُورِ مُتَّجِهَةً إِلَى «مَكَّةَ»، يَحْدُوهُمُ الشَّوْقُ وَيَحْفِزُهُمُ الْحَنِينُ.

فَكَانَ «أَبْرَهَةُ» يَغْتَاظُ لِمَا يَرَى، وَيَغْضَبُ لِمَا يُشَاهِدُ، وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ تَفَاقَمَ الِانْفِعَالُ فِي نَفْسِهِ، فَأَقْسَمَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى «مَكَّةَ» فِي جَيْشٍ جَحْفَلٍ؛ لِيَهْدِمَ «الْكَعْبَةَ» وَيُقَوِّضَ أَرْكَانَهَا، وَيُزِيلَ مَعَالِمَهَا، وَيَمْحُوَ أَثَرَهَا مِنَ الْوُجُودِ، وَلِيَقْطَعَ دَابِرَ الْعَنْجَهِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ نُفُوسِ هَؤُلَاءِ الْبَدْوِ.

وَبَدَأَ «أَبْرَهَةُ» يَسْتَعِدُّ وَيَتَهَيَّأُ لِمَا أَزْمَعَ عَلَيْهِ.

فَاسْتَقْدَمَ مِنَ «الْحَبَشَةِ» فِيلًا ضَخْمًا، شَدِيدَ الْمِرَاسِ، شَرِسًا، كَانَ الْغَرَضُ مِنْهُ تَرْوِيعَ الْخَيْلِ وَالْجِمَالِ، وَتَخْوِيفَ الْعَرَبِ، وَهَدْمَ جُدْرَانِ «الْكَعْبَةِ» بِرَأْسِهِ الْهَائِلِ.

وَاسْتَمَرَّ الِاسْتِعْدَادُ لِلْحَرْبِ الْهُجُومِيَّةِ فَتْرَةً لَيْسَتْ بِالْقَصِيرَةِ، مِنْ تَهْيِئَةِ الْمُؤَنِ وَالذَّخِيرَةِ، وَشَحْذِ السُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ، وَتَنْظِيمِ كَتَائِبِ الْجُنُودِ، وَحَشْدِ الْعَسْكَرِ.

ثُمَّ انْطَلَقَ الْجَيْشُ اللَّجِبُ كَالسَّيْلِ الْمُتَدَفِّقِ، كَانَتِ الْأَرْضُ تَئِنُّ تَحْتَ حَوَافِرِ الْخَيْلِ، وَالْفَضَاءُ تُغَطِّيهِ السَّحَائِبُ السُّودُ مِنَ الْغُبَارِ الْمُتَصَاعِدِ، أَمَّا الصَّهِيلُ وَالرُّغَاءُ فَكَانَا كَهَدِيرِ الْمَوْجِ فِي بَحْرٍ عَاصِفٍ، يَطْغَى عَلَى الْأَسْمَاعِ وَيُصِمُّ الْآذَانَ، وَيَمْلَأُ الْقُلُوبَ رُعْبًا وَهَلَعًا!

وَ«أَبْرَهَةُ» فِي الْمُقَدِّمَةِ فَوْقَ صَهْوَةِ جَوَادِهِ، شَاكِيَ السِّلَاحِ، غَاطِسًا فِي دُرُوعِ الْحَدِيدِ، وَخُوذَتُهُ فَوْقَ رَأْسِهِ تَلْمَعُ لَمَعَانًا شَدِيدًا فِي وَهَجِ الشَّمْسِ، وَعَيْنَاهُ لَا تَنْفَكَّانِ تَنْظُرَانِ إِلَى الْبَعِيدِ، يُرِيدُ أَنْ يَسْتَشِفَّ حُجُبَ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ؛ لِيَرَى ذَلِكَ الْبَيْتَ الَّذِي تَهْفُو إِلَيْهِ قُلُوبُ الْعَرَبِ، وَصَدْرُهُ يَغْلِي بِالْحِقْدِ وَالْغَضَبِ وَالثَّأْرِ.

تُرَى هَلْ يَسْكُتُ الْعَرَبُ عَنْ مُجَابَهَةِ «أَبْرَهَةَ» وَالتَّصَدِّي لَهُ؟! وَتَرْكِهِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ؟!

فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ قُوَّةِ بَأْسِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَكَثْرَةِ عَدَدِ جُنْدِهِ وَوَفْرَةِ عُدَّتِهِ وَسِلَاحِهِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ، فَقَدْ جَاشَتْ فِي نُفُوسِ بَعْضِ زُعَمَائِهِمْ حَمِيَّةٌ وَأَنَفَةٌ، فَقَامَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ «الْيَمَنِ» يُدْعَى «ذَا نَفَرٍ» وَأَطْلَقَ صَيْحَةَ الْحَرْبِ؛ دِفَاعًا عَنْ رَمْزِ عِزَّتِهِمْ وَكَرَامَتِهِمْ، عَنْ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.. عَنِ «الْكَعْبَةِ»، وَالتَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مَهْمَا عَلَا الثَّمَنُ وَغَلَا؛ فَاسْتَجَابَ لَهُ قَوْمُهُ وَغَيْرُهُمْ.

وَعِنْـدَ حُدُودِ «الْيَمَنِ»، وَقَبْلَ أَنْ يُوغِلَ جَيْشُ «أَبْرَهَةَ» فِي أَرْضِ «تِهَامَةَ» وَ«الْحِجَازِ» الْتَقَى الطَّرَفَانِ، وَتَقَاتَلَ الْفَرِيقَانِ، لَكِنَّ الْهَزِيمَةَ أَحَاقَتْ بِـ «ذِي نَفَرٍ» وَصَحْبِهِ، فَتَفَرَّقُوا لَا يَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ، وَوَقَعَ «ذُو نَفَرٍ» أَسِيرًا.

فَلَمَّا هَمَّ «أَبْرَهَةُ» بِقَتْلِهِ، قَالَ لَهُ «ذُو نَفَرٍ»:

ـ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ، إِنَّ حَيَاتِي خَيْرٌ لَـكَ مِنْ قَتْلِي، وَبَقَائِي خَيْرٌ لَكَ مِنْ فَنَائِي، فَلَعَلَّكَ تَحْتَاجُ لِخِبْرَتِي وَمَعْرِفَتِي ذَاتَ يَوْمٍ.

فَعَفَا عَنْهُ «أَبْرَهَةُ»، وَجَعَلَهُ فِي رِحَالِهِ أَسِـيرًا مُقَيَّدًا، وَتَابَعَ سَيْرَهُ مَعَ جُنْدِهِ بِاتِّجَاهِ «مَكَّةَ».

فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَ قَبِيلَةِ «خَثْعَمٍ»، تَصَدَّى لَهُ «نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ» الْخَثْعَمِيُّ، عَلَى رَأْسِ أَفْرَادِ قَبِيلَتِهِ، وَكَانُوا قَدْ بَيَّتُوا الْعَزْمَ عَلَى قِتَالِهِ وَحَرْبِهِ.

وَمَا هِيَ إِلَّا جَوْلَةٌ حَتَّى تَفَرَّقَ النَّـاسُ مِنْ حَوْلِ «نُفَيْلٍ»؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ بِهِمْ طَاقَةٌ عَلَى قِتَالِ «أَبْرَهَةَ» وَجُنْدِهِ، وَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ، وَأَصْبَحَ «نُفَيْلٌ» أَسِيرًا.

وَحِيـنَ أَرَادَ «أَبْرَهَةُ» وَضْعَ السَّـيْفِ فِي رَقَبَةِ «نُفَيْـلٍ» وَالْقَضَاءَ عَلَيْهِ، أَبْدَى «نُفَيْلٌ» الْجَزَعَ وَالْخَوْفَ، وَرَجَـا «أَبْرَهَةَ» أَنْ يَصْفَحَ عَنْهُ، وَتَعَهَّدَ لَهُ أَنْ يُخْلِصَ فِي خِدْمَتِهِ، وَأَنْ يَكُونَ لَـهُ نِعْمَ الدَّلِيلُ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ.. حَيْثُ تَخْتَلِطُ الدُّرُوبُ وَتَتَشَابَهُ الْوِهَادُ وَالْأَوْدِيَةُ وَالْكُثْبَانُ.

فَصَرَفَ النَّظَرَ عَنْ قَتْلِهِ، وَاتَّخَذَهُ رَائِدًا وَنَاصِحًا.

ثُمَّ تَابَعَ «أَبْرَهَةُ» زَحْفَهُ بِاتِّجَاهِ «مَكَّةَ»، وَجَيْشُهُ يَمْلَأُ الْجَوَّ ضَجِيجًا وَعَجِيجًا، وَيُغَطِّي وَجْهَ الْأَرْضِ، وَكَأَنَّهُ الْجَرَادُ الْمُنْتَشِرُ!

حَتَّى بَلَغَ أَرْضَ «ثَقِيفٍ»، وَقَارَبَ دُخُولَ «الطَّائِفِ» قَصَبَةِ الْإِقْلِيمِ.

فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا يُعْلِنُونَ خُضُوعَهُمْ وَوَلَاءَهُمْ، وَيَدْفَعُونَ أَذَاهُ عَنْهُمْ بِالْقَوْلِ اللَّيِّنِ اللَّطِيفِ، وَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُرِيدُ هَدْمَ بَيْتِ عِبَادَتِهِمْ: «اللَّاتِ»، الَّذِي كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ كَمَا تُعَظِّمُ الْعَرَبُ «الْكَعْبَةَ».

وَمِمَّا قَالَهُ سَيِّدُهُمْ «مَسْعُودُ بْنُ مُعَتِّبٍ» لِـ «أَبْرَهَةَ»:

- أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّمَا نَحْنُ عَبِيدُكَ، سَامِعُونَ لَكَ وَمُطِيعُونَ، لَيْسَ عِنْدَنَا لَكَ خِلَافٌ، وَلَيْسَ بَيْتُنَا هَذَا الَّذِي تُرِيدُ؛ (يَعْنُونَ اللَّاتَ)، إِنَّمَا تُرِيدُ الْبَيْتَ الَّذِي بِمَكَّةَ، وَنَحْنُ نَبْعَثُ مَعَكَ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ اخْتَارُوا مِنْ بَيْنِهِمْ رَجُلًا يُدْعَى «أَبَا رِغَالٍ» أَرْسَلُوهُ فِي رِكَابِ «أَبْرَهَةَ» يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَيَهْدِيهِ السَّبِيلَ. فَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ، وَلَمْ يُلْحِقْ بِهِمْ أَذًى.

وَلَمَّا أَصْبَحَ جَيْشُ «أَبْرَهَةَ» قَرِيبًا مِنْ «مَكَّةَ»، نَزَلَ وَعَسْكَرَ هُنَاكَ، وَضَرَبَ خِيَامَهُ الَّتِي مَلَأَتِ السَّهْلَ وَالْوَادِيَ.

ثُمَّ أَرْسَلَ أَحَدَ فُرْسَانِهِ وَيُدْعَى «الْأَسْوَدَ بْنَ مَقْصُودٍ» عَلَى خَيْلٍ لَهُ تَجُوبُ الضَّوَاحِيَ، وَتَبْعَثُ الرُّعْبَ، وَتُلْقِي الذُّعْرَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، كَطَلِيعَةٍ تُمَهِّدُ لَهُ السَّبِيلَ.

فَأَصَابَ «الْأَسْــوَدُ» مَاشِــيَةً وَأَمْوَالًا لِبَعْضِ الْأَعْرَابِ، وَمِنْ بَيْنِهَا مِئَتَانِ مِنَ الْإِبِلِ لِسَــيِّدِ قُرَيْشٍ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ»؛ وَعَادَ بِتِلْكَ الْغَنِيمَةِ إِلَى الْمَلِكِ «أَبْرَهَةَ».

عِنْدَئِذٍ هَمَّتْ «قُرَيْشٌ» وَ«هُذَيْلٌ» وَ«كِنَانَةَ» وَمَنْ كَانَ بِذَلِكَ الْحَرَمِ لِقِتَالِهِ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لِلتَّشَاوُرِ رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِذَلِكَ، فَصَرَفُوا النَّظَرَ، وَلَبِثُوا بِانْتِظَارِ مَا تَجِدُّ بِهِ الْأَيَّامُ مِنْ أَحْدَاثٍ.

ثُمَّ بَعَثَ «أَبْرَهَةُ» بِرَجُلٍ يُدْعَى «حُنَاطَةَ الْحِمْيَرِيَّ» إِلَى «مَكَّةَ»، وَقَالَ لَهُ:

- سَــلْ عَنْ سَيِّدِ أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ وَشَــرِيفِهِمْ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ إِنِّي لَمْ آتِ لِحَرْبِكُمْ، إِنَّمَا جِئْــتُ لِهَدْمِ هَذَا الْبَيْتِ، فَإِنْ لَمْ تَعْرِضُوا لَنَا دُونَهُ بِحَرْبٍ فَلَا حَاجَةَ لِي بِدِمَائِكُمْ. فَإِنْ هُوَ لَمْ يُرِدْ حَرْبِي فَائْتِنِي بِهِ.

فَلَمَّا دَخَلَ «حُنَاطَةُ» «مَكَّةَ»، سَــأَلَ عَنْ سَيِّدِ قُرَيْشٍ وَشَرِيفِهَا، فَقِيلَ لَهُ: «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ»؛ فَجَاءَهُ وَقَالَ لَهُ مَا أَمَرَهُ بِهِ سَيِّدُهُ «أَبْرَهَةُ»، فَأَجَابَهُ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ»:

- وَاللهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ... وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللهِ الْحَرَامُ وَبَيْتُ خَلِيلِهِ «إِبْرَاهِيمَ» ـ عَلَيْهِ السَّــلَامُ ـ؛ فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ حَرَمُهُ وَبَيْتُهُ، وَإِنْ يُخَلِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فَوَاللهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْهُ.

فَقَالَ لَهُ «حُنَاطَةُ»:

- فَانْطَلِقْ مَعِي إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بِكَ.

فَخَرَجَ مَعَــهُ «عَبْدُ الْمُطَّلِــبِ» وَبِمَعِيَّتِهِ بَعْضُ بَنِيهِ، حَتَّى أَتَى مُعَسْــكَرَ «أَبْرَهَــةَ»، وَهُنَاكَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى الْمَلِكِ، اسْــتَأْذَنَ لِرُؤْيَةِ صَاحِبِهِ «ذِي نَفَرٍ» الْأَسِيرِ، فَقَدْ كَانَتْ بَيْنَهُمَا صَدَاقَةٌ قَدِيمَةٌ، فَأَذِنَ لَهُ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَحْبِسِهِ قَالَ لَهُ:

- يَا «ذَا نَفَرٍ» هَلْ عِنْدَكَ مِنْ غَنَاءٍ فِيمَا نَزَلَ بِنَا؟

فَقَالَ لَهُ «ذُو نَفَرٍ»:

- وَمَا غَنَاءُ رَجُلٍ أَسِيرٍ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْتُلَهُ غُدُوًّا أَوْ عَشِيًّا؟!

مَا عِنْدِي غَنَاءٌ فِي شَيْءٍ مِمَّا نَزَلَ بِكَ إِلَّا أَنَّ «أُنَيْسًا» سَائِسَ الْفِيلِ صَدِيقٌ لِي، فَسَأُرْسِلُ إِلَيْهِ وَأُوصِيهِ بِكَ وَأُعَظِّمُ عَلَيْهِ حَقَّكَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَكَ عَلَى الْمَلِكِ، فَتُكَلِّمَهُ فِيمَا بَدَا لَكَ، وَيَشْفَعَ لَكَ عِنْدَهُ بِخَيْرٍ إِنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ.

فَقَالَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ»:

- حَسْبِي ذَلِكَ.

وَأَرْسَلَ «ذُو نَفَرٍ» إِلَى «أُنَيْسٍ» سَائِسِ الْفِيلِ يَقُولُ لَهُ:

- إِنَّ «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ» سَيِّدَ قُرَيْشٍ، وَصَاحِبَ عَيْنِ مَكَّةَ (أَيْ زَمْزَمَ)، يُطْعِمُ النَّاسَ بِالسَّــهْلِ، وَالْوُحُوشَ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، وَقَدْ أَصَابَ لَهُ الْمَلِكُ مِئَتَيْ بَعِيرٍ، فَاسْتَأْذِنْ لَهُ عَلَيْهِ، وَانْفَعْهُ عِنْدَهُ بِمَا اسْتَطَعْتَ.

قَالَ «أُنَيْسٌ»:

- أَفْعَلُ.

ثُمَّ كَلَّمَ «أَبْرَهَةَ» فِي شَـأْنِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، فَأَذِنَ لَهُ بِمُقَابَلَتِهِ وَمُحَادَثَتِهِ فِي خَاصَّةِ شَأْنِه وَأَمْرِهِ.

وَكَانَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» مِنْ أَوْسَـمِ النَّاسِ وَأَعْظَمِهِـمْ وَأَجْمَلِهِمْ، فَلَمَّا رَآهُ «أَبْرَهَةُ» أَجَلَّهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ أَنْ يُجْلِسَـهُ تَحْتَهُ، كَمَا كَرِهَ أَنْ تَرَاهُ الْحَبَشَةُ يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ.

فَنَزَلَ «أَبْرَهَةُ» عَنْ سَرِيرِهِ فَجَلَسَ عَلَى بِسَاطِهِ، وَأَجْلَسَ «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ» مَعَهُ إِلَى جَانِبِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ:

- قُلْ لَهُ حَاجَتَكَ..

فَقَالَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ»:

- حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مِئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي.

فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ، قَالَ «أَبْرَهَةُ» لِتُرْجُمَانِهِ:

- قُـلْ لَهُ... لَقَدْ كُنْـتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَـدْ زَهِدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي... أَتُكَلِّمُنِي فِي مِئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ، قَدْ جِئْتُ لِأَهْدِمَهُ، لَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟!!

فَقَالَ لَهُ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ»:

- إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ.

فَقَالَ «أَبْرَهَةُ»:

- مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي.

قَالَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ»:

ـ أَنْتَ وَذَاكَ.

ثُـمَّ رَدَّ «أَبْرَهَةُ» إِلَى «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» إِبِلَهُ، فَقَامَ وَانْصَرَفَ مِنْ عِنْدِهِ رَاجِعًا إِلَى «مَكَّةَ».

وَأَخْبَرَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» قُرَيْشًـا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ «أَبْرَهَةَ»، وَتَصْمِيمِهِ عَلَى هَدْمِ «الْكَعْبَةِ»، وَتَخْرِيبِ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ «مَكَّةَ»، وَالتَّحَرُّزِ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، وَالِاحْتِمَاءِ بِالشِّعَابِ.

ثُمَّ قَصَدَ إِلَى «الْكَعْبَةِ» فِي نَفَرٍ مِنَ السَّـادَةِ، وَهُنَاكَ أَمْسَـكَ بِحَلْقَةِ بَابِهَا، وَأَنْشَدَ:

لَاهُـمَّ إِنَّ الْعَـبْـدَ يَـمْـ ـنَـعُ رَحْـلَهُ فَامْنَعْ رِحَـالَكَ
إِنْ كُـنْتَ تَـارِكَـهُـمْ وَقِـبْـ ـلَتَنَـا فَـأَمْـرٌ مَـا بَـدَا لَكَ

وَمَا زَالَ يُرَدِّدُ ذَلِكَ...

وَالسَّـادَةُ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللهَ وَيَسْـتَنْصِرُونَهُ عَلَى «أَبْرَهَةَ» وَجُنْدِهِ، ثُمَّ أَرْسَـلَ حَلْقَةَ بَابِ «الْكَعْبَةِ» مِنْ يَـدِهِ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى شِـعَابِ الْجِبَالِ الْمُحِيطَةِ بِـ«مَكَّةَ»؛ يَتَحَرَّزُونَ وَيَحْتَمُونَ فِيهَا، بِانْتِظَارِ مَا سَـيَكُونُ مِنْ أَمْرِ «أَبْرَهَةَ».

فَلَمَّـا أَصْبَحَ «أَبْرَهَةُ» فِي الْيَوْمِ التَّالِي، تَهَيَّـأَ لِدُخُولِ «مَكَّةَ»، وَهَيَّأَ الْفِيلَ، وَعَبَّأَ جَيْشَهُ، وَأَتَمَّ اسْتِعْدَادَهُ.

فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ نَحْوَ «مَكَّةَ» بَرَكَ وَلَمْ يَتَحَرَّكْ! فَضَرَبُوهُ بِسَلَاسِلِ الْحَدِيدِ، وَوَخَزُوهُ بِالرِّمَاحِ الطَّوِيلَةِ الْمُدَبَّبَةِ الرُّءُوسِ، فَأَبَى أَنْ يَقُومَ مِنْ مَكَانِهِ، فَأَدْخَلُوا مَحَاجِنَهُمْ فِي أُذُنَيْهِ وَفِي أَمَاكِنَ حَسَّاسَةٍ مِنْ جِسْمِهِ، فَلَمْ يُفْلِحُوا فِي تَحْرِيكِهِ!! ثُمَّ لَمَّا وَجَّهُوهُ نَحْوَ «الْيَمَنِ» قَامَ يُهَرْوِلُ نَاكِصًا عَلَى عَقِبَيْهِ!

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِالذَّاتِ... اسْوَدَّ وَجْهُ السَّمَاءِ، وَاكْفَهَرَّ الْأُفُقُ (أَظْلَمَ)، وَأَظْلَمَ الْفَضَاءُ، وَانْحَجَبَتِ الشَّمْسُ عَنِ الْأَرْضِ، وَادْلَهَمَّ الْجَوُّ، وَكَأَنَّ اللَّيْلَ قَدْ أَطْبَقَ عَلَى الْوُجُودِ فِي غَيْرِ مَوْعِدٍ.

وَبَدَتْ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَحْرِ أَسْرَابٌ مِنَ الطُّيُورِ تَتَلَاحَقُ، أَبَابِيلَ (جَمَاعَاتٌ) وَجَمَاعَاتٍ، كَأَنَّهَا فِرَقُ الْمَوْتِ الزَّاحِفِ، تَحْمِلُ فِي مَنَاقِيرِهَا حَصًى يَلْتَهِبُ كَأَنَّهُ الْجَمْرُ الْمُتَّقِدُ.

وَرَاحَتِ الطُّيُورُ تَقْذِفُ الْجُنْدَ، وَتَمُرُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ مَرَّ السَّحَابِ، وَأَخَذَ جُنُودُ «أَبْرَهَةَ» يَتَسَاقَطُونَ صَرْعَى، وَيَمْتَلِئُ السَّهْلُ وَالْوَادِي بِجُثَثِهِمْ.

وَتَبَعْثَرَ بَعْضُهُمْ فِي اتِّجَاهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ يَفِرُّونَ مِنَ الْمَوْتِ الزُّؤَامِ، وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ؟! فَقَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، فَمَنْ أَدْرَكَ سَبِيلًا وَظَنَّ أَنَّ فِيهِ الْخَلَاصَ، لَحِقَ بِهِ طَائِرٌ وَصَبَّ عَلَيْهِ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ الْحِمَامَ، فَثَوَى فِي الْأَرْضِ يَتَقَلَّبُ وَيَئِنُّ ثُمَّ تَفِيضُ رُوحُهُ.

وَتَمَزَّقَ الْجَيْشُ شَـرَّ مُمَزَّقٍ، وَتَفَرَّقَ شَذَرَ مَذَرَ، وَانْكَفَأَ مَنْ فِي الْمُؤَخِّرَةِ يُرِيدُ الْخَـلَاصَ وَالنَّجَاةَ، وَلَكِنْ لَا مَفَرَّ وَلَا نَجَاةَ مِـنْ قَدَرِ اللهِ وَغَضَبِهِ؛ إِذْ أَحَاقَ الْمَكْرُ السَّيِّئُ بِأَهْلِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

وَأُصِيبَ «أَبْرَهَةُ» بِقَذِيفَةٍ مِنْ تِلْكَ الْقَذَائِفِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي حَمَلَتْهَا الطُّيُورُ الْأَبَابِيلُ، وَوَلَّى مَعَ الْقِلَّةِ الْقَلِيلَةِ مِنْ جُنْدِهِ بِاتِّجَاهِ «الْيَمَنِ»، فِي مُحَاوَلَةٍ يَائِسَةٍ لِلْفِرَارِ.

وَفِي الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ الشَّـاقِّ كَانَ يُعَانِي مِنْ شِـدَّةِ الْمَرَضِ، فَاقِدًا لِكُلِّ قُدْرَةٍ وَنَشَـاطٍ عَلَى الْحَرَكَةِ، يَذُوبُ وَيَضْمَحِلُّ رُوَيْـدًا رُوَيْدًا، يَتَهَرَّأُ لَحْمُهُ وَيَتَسَاقَطُ، وَيُصَابُ بِالْإِغْمَاءِ وَفُقْدَانِ الْوَعْيِ بَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ.

فَمَا إِنْ بَلَغَ أَرْضَ «الْيَمَنِ» حَتَّى وَافَاهُ الْجَزَاءُ، وَقَضَى غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ، وَمَـاتَ دُونَ أَنْ يُحَقِّقَ هَدَفَهُ أَوْ يَبْلُغَ غَايَتَهُ، وَحَمَى اللهُ تَعَالَى بَيْتَهُ الْعَتِيقَ مِنْ مَكْرِ الْمَاكِرِينَ وَحِقْدِ الْحَاقِدِينَ.

فِي ذَلِكَ الْعَامِ، عَامِ الْفِيلِ، كَانَ مِيلَادُ سَيِّدِنَا وَحَبِيبِنَا «مُحَمَّدٍ» ﷺ.

وَمَا مِنْ شَـكٍّ فِي أَنَّ هَذَا الْحَدَثَ الْعَظِيمَ كَانَ تَمْهِيدًا لِحَدَثٍ أَعْظَمَ، بَلْ أَعْظَمِ حَدَثٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ، ذَلِكُمْ هُوَ بُزُوغُ النُّورِ عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ لَفَّهَا سَوَادُ الْجَاهِلِيَّةِ قُرُونًا طِوَالًا.

بُزُوغُ نُورِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ، يَكْشِــفُ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ، وَيَرْفَعُ عَنْ عُيُونِ النَّاسِ عَمَاوَاتِ الضَّلَالَةِ وَالْحِقْدِ وَالْفَسَــادِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

وَنَحْــنُ حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنْ عَــامِ الْفِيلِ، وَقِصَّةِ أَصْحَــابِ الْفِيلِ، وَنُؤَرِّخُ لِلْيَوْمِ الْعَظِيمِ، يَوْمِ مَوْلِدِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نَعُودَ إِلَى الْوَرَاءِ قَلِيلًا؛ لِنَتَحَدَّثَ عَــنِ الْأَبَوَيْنِ الطَّاهِرَيْنِ اللَّذَيْنِ خَرَجَ مِنْ صُلْبِهِمَا رَسُــولُ الْحَقِّ وَالْهُدَى «مُحَمَّدٌ» ﷺ.

فَهَيَّا بِنَا مَعًا نَسْتَقْرِئُ الْأَحْدَاثَ وَنَتَتَبَّعُ الْوَقَائِعَ.

وَاللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ يَهْدِينَا جَمِيعًا سَوَاءَ السَّبِيلِ.

مَوْلِدُ النُّورِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

(التَّوْبَةُ: 128، 129)

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِنِّي خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ».

(رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ)

وَقَالَ ـ ﷺ ـ:

«إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ «إِبْرَاهِيمَ» «إِسْمَاعِيلَ»، وَاصْطَفَى مِنْ «بَنِي إِسْمَاعِيلَ» «بَنِي كِنَانَةَ»، وَاصْطَفَى مِنْ «بَنِي كِنَانَةَ» «قُرَيْشًا»، وَاصْطَفَى مِنْ «قُرَيْشٍ» «بَنِي هَاشِمٍ»، وَاصْطَفَانِي مِنْ «بَنِي هَاشِمٍ».

(رَوَاهُ مُسْلِمٌ)

وَتَمْضِي الْأَيَّامُ...

وَتَنْصَرِمُ الشُّهُورُ...

وَإِذَا «آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ» تُصْبِحُ مِنَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى.

اكْتَمَلَتْ مُدَّةُ الْحَمْلِ، وَتَمَّتِ الشُّهُورُ التِّسْعُ، وَلَمْ تَجِدْ مَا تَجِدُهُ النِّسَاءُ عَادَةً مِنْ مَشَقَّةِ الْحَمْلِ وَعُسْرِهِ، وَآلَامِهِ وَضَنْكِهِ، أَوْ ضِيقِ نَفْسٍ وَتَقَلُّبِ حِسٍّ.. فَقَدْ كَانَ حَمْلًا خَفِيفًا، هَيِّنًا لَيِّنًا، لَا أَثَرَ فِيهِ لِرَهَقٍ أَوْ تَعَبٍ.

وَكَانَتْ فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ تَزْدَادُ تَأَلُّقًا وَحُسْنًا وَجَمَالًا، وَتَتَبَدَّى عَلَى قَسَمَاتِ وَجْهِهَا أَنْوَارٌ عُلْوِيَّةٌ سَمَاوِيَّةٌ.. هِيَ أَنْوَارُ الْقَادِمِ الْجَدِيدِ إِلَى عَالَمِ الْأَحْيَاءِ، أَنْوَارُ إِمَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَصَفْوَةِ الْأَوْلِيَاءِ الْأَتْقِيَاءِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ.

وَفِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْمُدَّةِ كَانَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» لَا يَنْفَكُّ يَزُورُهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ؛ يَرْعَى شُئُونَهَا، وَيَطْمَئِنُّ عَلَيْهَا، وَيُشْرِفُ إِشْرَافًا كُلِّيًّا عَلَى مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَمَا يَلْزَمُهَا، وَيَتَبَاسَطُ فِي الْحَدِيثِ إِلَيْهَا؛ حَتَّى لَا تَشْعُرَ بِالْمَرَارَةِ وَالْأَسَى، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَغْشَى وَجْهَهَا سَحَابَةٌ مِنَ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ لَا تُفَارِقُهَا أَبَدًا؛ لِأَنَّ ذِكْرَى «عَبْدِ اللهِ» مَحْفُورَةٌ فِي قَلْبِهَا وَأَعْمَاقِ وُجْدَانِهَا، خَاصَّةً وَأَنَّهَا تَذْكُرُ، أَوْ تَتَخَيَّلُ، مُسْتَقْبَلَ الْأَيَّامِ، وَكَيْفَ سَيَجِدُ الْمَوْلُودُ نَفْسَهُ يَتِيمًا، قَدْ فَرَّقَ الْقَدَرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ، لَمْ يَرَهُ وَلَمْ يَعْرِفْهُ.

غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا أَثْنَاءَ مُدَّةِ الْحَمْلِ، وَالَّتِي كَانَتْ غَيْرَ عَادِيَّةٍ أَوْ مَأْلُوفَةٍ، كَانَتْ تُوحِي لَهَا بِعَظَمَةِ شَأْنِ الْمَوْلُودِ الْقَادِمِ، فَتَجِدُ بَعْضَ الْعَزَاءِ، وَتُحِسُّ بِبَعْضِ الرَّاحَةِ.

حَتَّى كَانَتْ لَيْلَةُ الثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ..

وَهُنَا ـ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ ـ يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نَتْرُكَ الْحَدِيثَ لِـ «آمِنَةَ» نَفْسِهَا تُحَدِّثُنَا عَنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْهُودِ، وَاللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ، فَهِيَ أَصْدَقُ حَدِيثًا وَلَهْجَةً وَشُعُورًا.

قَالَتْ «آمِنَةُ»:

ـ لَمَّا أَخَذَنِي مَا يَأْخُذُ النِّسَاءَ (أَيْ مِنَ الطَّلْقِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ) رَأَيْتُ نِسْوَةً كَالنَّخْلِ طُولًا، كَأَنَّهُنَّ مِنْ بَنَاتِ عَبْدِ مَنَافٍ، يُحْدِقْنَ بِي، مَا رَأَيْتُ أَضْوَأَ مِنْهُنَّ وُجُوهًا.

وَكَأَنَّ وَاحِدَةً مِنَ النِّسَاءِ تَقَدَّمَتْ إِلَيَّ، فَاسْتَنَدْتُ إِلَيْهَا، وَأَخَذَنِي الْمَخَاضُ، وَاشْتَدَّ عَلَيَّ الطَّلْقُ، وَكَأَنَّ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيَّ، وَنَاوَلَتْنِي شَرْبَةً مِنَ الْمَاءِ، أَشَدَّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدَ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ! فَقَالَتْ لِي:

ـ اشْرَبِي.

فَشَرِبْتُ، ثُمَّ قَالَتِ الثَّانِيَةُ:

ـ ازْدَادِي.

فَازْدَدْتُ، ثُمَّ مَسَحَتْ بِيَدِهَا عَلَى بَطْنِي وَقَالَتْ:

- بِسْمِ اللهِ، اخْرُجْ بِإِذْنِ اللهِ.

ثُمَّ قُلْنَ لِي:

- نَحْنُ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَهَؤُلَاءِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ.

وَرَأَيْتُ ثَلَاثَةَ أَعْلَامٍ مَضْرُوبَاتٍ: عَلَمًا بِالْمَشْرِقِ، وَعَلَمًا بِالْمَغْرِبِ، وَعَلَمًا عَلَى ظَهْرِ «الْكَعْبَةِ».

وَاسْتَمَرَّتْ «آمِنَةُ» فِي مَخَاضِهَا طَوَالَ لَيْلَةِ الثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، حَتَّى أَذَّنَ الْفَجْرُ بِالْبُزُوغِ، ثُمَّ وَضَعَتْ غُلَامَهَا.

وَحِينَ خَرَجَ ﷺ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ وَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ مَقْبُوضَةً أَصَابِعُ يَدِهِ، يُشِيرُ بِالسَّبَّابَةِ كَالْمُسَبِّحِ بِهَا. وَتَقُولُ «آمِنَةُ»:

- لَمَّا خَرَجَ مِنْ بَطْنِي نَظَرْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ سَاجِدٌ قَدْ رَفَعَ إِصْبَعَيْهِ كَالْمُتَضَرِّعِ الْمُبْتَهِلِ؛ شَاخِصًا بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ؛ وَقَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابِ الْأَرْضِ.

وَقَالَتْ أَيْضًا:

- وَرَأَيْتُ حِينَ وَضَعْتُهُ نُورًا سَطَعَ مِنِّي أَضَاءَ قُصُورَ «بُصْرَى» ـ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ـ، وَأَضَاءَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَلَقَدْ مَدَحَهُ عَمُّهُ «الْعَبَّاسُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ بَعْدَ رُجُوعِهِ ﷺ مِنْ «تَبُوكَ»، فَقَالَ:

وَأَنْـتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الْأَرْ ضُ وَضَـاءَتْ بِنُـورِكَ الْأُفُـقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّـيَاءِ وَفِي النُّو رِ وَسُـبُـلِ الـرَّشَـادِ نَحْـتَرِقُ

وَلَقَدْ وُلِدَ ﷺ مَخْتُونًا مَكْحُولًا نَظِيفًا مَا بِهِ قَذَرٌ.

وَيُرْوَى أَنَّهُ نَطَقَ وَتَكَلَّمَ فَقَالَ: جَلَالُ رَبِّيَ الرَّفِيعُ.

ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلّٰهِ كَثِيرًا.

وَلِلْحَمْدِ قِصَّةٌ... فَقَدْ رَوَتِ «الشِّفَاءُ» أُمُّ «عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ»، وَقَدْ كَانَتْ قَابِلَتَهُ، أَنَّهَا سَمِعَتْ صَوْتًا دُونَ أَنْ تَرَى شَخْصًا يَقُولُ:

- رَحِمَكَ اللهُ.

فَلَعَلَّهُ عَطِسَ ﷺ فَحَمِدَ اللهَ - تَعَالَى - فَشَمَّتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلّٰهِ كَثِيرًا.

كَمَا وُلِدَ ﷺ مَسْـرُورًا؛ (أَيْ مَقْطُوعَ الْحَبْلِ السُّـرِّيِّ الَّذِي يَصِلُ مَا بَيْنَ سُرَّتِهِ وَبَطْنِ أُمِّهِ، وَهَذِهِ مِنْ كَرَامَاتِهِ ﷺ).

وَكَانَ مِنْ عَادَةِ الْقُرَشِـيِّينَ أَنَّـهُ إِذَا وُلِدَ مَوْلُودٌ أَكْفَـأْنَ عَلَيْهِ جَفْنَةً حَتَّى الصَّبَاحِ؛ أَيْ غَطَّيْنَهُ بِهَا.

وَهَكَذَا فُعِلَ مَعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَـاحُ وُجِدَتِ الْجَفْنَةُ مَشْـقُوقَةً نِصْفَيْنِ، وَوُجِدَ ﷺ مَفْتُوحَ الْعَيْنَيْنِ شَاخِصًا بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَسَبَّابَتُهُ فِي فَمِهِ يَمْتَصُّهَا، فَتَسِيلُ لَبَنًا سَائِغًا!

وَأَرْسَـلَتْ «آمِنَةُ» بِالْبُشْـرَى إِلَى جَدِّهِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وَكَانَ فِي وَسَطِ

جَمَاعَةٍ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ حَوْلَ الْكَعْبَةِ يَتَسَامَرُونَ، فَقَامَ خَفِيفًا نَشِيطًا، مَمْلُوءًا سُرُورًا وَحُبُورًا، وَكَأَنَّ شَبَابَهُ قَدْ عَادَ إِلَيْهِ، وَأَسْرَعَ الْخُطَى إِلَى دَارِ «آمِنَةَ»، وَدَخَلَ وَهُوَ يَقُولُ:

- أَرُونِي ابْنِي، أَيْنَ هُوَ؟

ثُمَّ حَمَلَهُ فِي لُفَافَتِهِ، وَمَضَى بِهِ نَحْوَ «الْكَعْبَةِ»، وَدَخَلَ إِلَى جَوْفِهَا فِي نَشْوَةٍ، وَفَرْحَةٍ غَامِرَةٍ، ثُمَّ أَخَذَ يُنْشِدُ:

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَعْطَانِي ... هَذَا الْغُلَامَ الطَّيِّبَ الْأَرْدَانِ

قَدْ سَادَ فِي الْمَهْدِ عَلَى الْغِلْمَانِ ... أُعِيذُهُ بِالْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ

حَتَّى يَكُونَ بُلْغَةَ الْفِتْيَانِ ... ثُمَّ أَرَاهُ بَالِغَ الْبُنْيَانِ

أُعِيذُهُ مِنْ كُلِّ ذِي شَنَآنِ (بَغْضَاء) ... مِنْ حَاسِدٍ مُضْطَرِبِ الْعِنَانِ

وَظَلَّ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» يَدُورُ فِي أَنْحَاءِ «الْكَعْبَةِ» وَيُرَدِّدُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى دَارِ «آمِنَةَ»، وَدَفَعَ الصَّبِيَّ الْمَوْلُودَ إِلَى حَاضِنَتِهِ؛ وَجَلَسَ يَسْتَمِعُ بِدَهْشَةٍ إِلَى الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ الَّتِي رَأَتْهَا «آمِنَةُ» وَالْقَابِلَةُ وَمَنْ حَضَرَ الْوِلَادَةَ مِنَ النِّسَاءِ؛ ثُمَّ قَالَ لَهُنَّ جَمِيعًا:

- احْفَظْنَهُ... فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ لَهُ شَأْنٌ.

مَرَّتْ سَبْعَةُ أَيَّامٍ عَلَى وِلَادَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ، كَانَتْ كُلُّهَا عَامِرَةً بِالْحَرَكَةِ وَالْفَرَحِ، غَامِرَةً بِالْهَنَاءِ وَالسُّرُورِ؛ فَدِيَارُ «بَنِي هَاشِمٍ» فِي زِينَةٍ وَأَضْوَاءٍ وَبَهْجَةٍ، وَالشَّيْخُ الْوَقُورُ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» يَغْدُو وَيَرُوحُ بَيْنَ الْبُيُوتِ فِي

حَيَوِيَّةِ الشَّبَابِ وَعُنْفُوَانِ الْفُتُوَّةِ، الْبَسْمَةُ لَا تُفَارِقُ ثَغْرَهُ، وَكَلِمَاتُ التَّهَانِي تَتَرَدَّدُ عَلَى لِسَانِهِ وَشَفَتَيْهِ دُونَ انْقِطَاعٍ أَوْ مَلَلٍ.

وَكَذَلِكَ الْأُمُّ الْأَرْمَلَةُ «آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ» قَدْ عَاوَدَهَا الشَّبَابُ، وَامَّحَتْ عَنْ مُحَيَّاهَا سِيمَاءُ الْكَآبَةِ؛ فَقَدْ جَدَّدَ الْمَوْلُودُ أَمَلَهَا فِي الْحَيَاةِ، خُصُوصًا وَقَدْ أَحَسَّتْ بِأَنَّهَا لَمْ تَحْمِلْ بِإِنْسَانٍ عَادِيٍّ، وَلَمْ تَلِدْ مَوْلُودًا كَبَاقِي النَّاسِ، وَلَقَدْ مَرَّتْ بِهَا إِشَارَاتٌ وَتَلْمِيحَاتٌ وَعَلَامَاتٌ كُلُّهَا يُوحِي بِالْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ وَالرِّفْعَةِ.

إِلَّا أَنَّ دَمْعَهَا لَمْ يَرْقَأْ، فَقَدْ كَانَتْ تَذْكُرُ الْحَبِيبَ الْغَائِبَ الَّذِي طَوَاهُ الرَّدَى، وَغَيَّبَهُ الثَّرَى، فِي أَرْضِ «يَثْرِبَ»، وَلَكَمْ كَانَتْ تَتَمَنَّى أَنْ تَكْتَمِلَ فَرْحَتُهَا بِوُجُودِهِ؛ لِيَرَى فِلْذَةَ كَبِدِهِ، وَبِضْعَةَ فُؤَادِهِ.

❊❊❊

مَرَّتِ الْأَيَّامُ السَّبْعَةُ...

ثُمَّ أَقَامَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» حَفْلًا عَظِيمًا ذَبَحَ فِيهِ الذَّبَائِحَ، وَأَوْلَمَ الْوَلَائِمَ، وَفَرَشَ الْبُسُطَ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مُشَارَكَتِهِ فَرْحَتَهُ، كُلَّ النَّاسِ، سَادَةَ الْقَوْمِ وَأَشْرَافَهُمْ وَأَوْسَاطَهُمْ.

وَبَعْدَ أَنْ أَكَلُوا وَشَرِبُوا وَطَرِبُوا وَهَنَّئُوا، قَالَ بَعْضُهُمْ لِـ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»:

- يَا «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ»... أَرَأَيْتَ ابْنَكَ هَذَا الَّذِي أَكْرَمْتَنَا عَلَى وَجْهِهِ... مَا سَمَّيْتَهُ؟

قَالَ:

- سَمَّيْتُهُ «مُحَمَّدًا».

قَالُوا:

- فَلِمَاذَا رَغِبْتَ بِهِ عَنْ أَسْمَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ؟

قَالَ:

- أَرَدْتُ أَنْ يَحْمَدَهُ اللهُ فِي السَّمَاءِ، وَخَلْقُهُ فِي الْأَرْضِ.

وَاسْمُ «مُحَمَّدٍ» لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا عِنْدَ الْعَرَبِ عَلَى الْأَعْلَامِ الْأَشْخَاصِ، إِلَّا أَنَّهُ جَامِعٌ لِصِفَاتِ الْخَيْرِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

إِلَيْكَ - أَبَيْتَ اللَّعْنَ - أَعْمَلْتُ نَاقَتِي

إِلَى الْمَاجِدِ الْقَرْمِ الْكَرِيمِ الْمُحَمَّدِ

لِهَذَا سَأَلَ سَادَةُ قُرَيْشٍ «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ» مُتَعَجِّبِينَ مِنَ التَّسْمِيَةِ غَيْرِ الْمَأْلُوفَةِ عِنْدَهُمْ.

وَلَقَدْ رَوَى لَنَا «الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ أَخِيهِ:

- يَا رَسُولَ اللهِ! دَعَانِي إِلَى الدُّخُولِ فِي دِينِكَ أَمَارَةٌ لِنُبُوَّتِكَ! رَأَيْتُكَ فِي الْمَهْدِ تُنَاغِي الْقَمَرَ، وَتُشِيرُ إِلَيْهِ بِإِصْبَعِكَ، فَحَيْثُ أَشَرْتَ إِلَيْهِ مَالَ.

فَقَالَ ﷺ:

- إِنِّي كُنْتُ أُحَدِّثُهُ وَيُحَدِّثُنِي، وَيُلْهِينِي عَنِ الْبُكَاءِ، وَأَسْمَعُ وَجِيبَهُ حِينَ يَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ.

ارْتِجَاسُ «إِيوَانِ كِسْرَى» وَ«عَرْشِ قَيْصَرَ»

وَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ مَوْلِدِهِ ﷺ ارْتَجَسَ (تَزَلْزَلَ) إِيوَانُ «كِسْرَى»، وَسَقَطَتْ مِنْهُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ شُرْفَةً، وَخَمَدَتْ نَارُ فَارِسَ الَّتِي كَانَتْ مُوقَدَةً عَلَى الدَّوَامِ؛ لِأَنَّهَا رَمْزُ عِبَادَتِهِمْ وَآلِهَتِهِمْ، وَلَمْ تَخْمُدْ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَلْفِ عَامٍ، وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ «سَاوَةَ» وَجَفَّ مَاؤُهَا.

وَرَأَى «الْمَابَاذَانُ» رَئِيسُ وُزَرَاءِ «كِسْرَى» فِي رُؤْيَاهُ إِبِلًا صِعَابًا، قَوِيَّةً شَدِيدَةً، تَقُودُ خَيْلًا عِرَابًا، قَدْ قَطَعَتْ «دِجْلَةَ»، وَانْتَشَرَتْ فِي رُبُوعِ فَارِسَ، فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ «كِسْرَى» مَلِكُ الْفُرْسِ مِنْ نَوْمِهِ، وَقَدْ أَفْزَعَهُ مَا أَلَمَّ بِإِيوَانِهِ، وَمَا رَأَى مِنَ الْأَحْلَامِ، لَكِنَّهُ تَصَبَّرَ وَتَجَالَدَ؛ كَيْ يَظْهَرَ أَمَامَ رَعِيَّتِهِ بِمَظْهَرِ الشُّجَاعِ؛ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ مُكَاشَفَةِ كِبَارِ أَفْرَادِ حَاشِيَتِهِ وَأَعْوَانِهِ.

فَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَلَبِسَ تَاجَهُ، وَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمْ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ، وَبَادَرَهُمْ قَائِلًا:

- أَتَدْرُونَ فِيمَ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ؟

قَالُوا:

- لَا... إِلَّا أَنْ يُخْبِرَنَا الْمَلِكُ.

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي تَنَاجِيهِمْ وَحَدِيثِهِمْ، دَخَلَ عَلَى «كِسْرَى» حَارِسُ بَابِهِ يَحْمِلُ إِلَيْهِ كُتُبًا مِنَ الْأَمْصَارِ، يُخْبِرُهُ فِيهَا وُلَاتُهُ عَنْ خُمُودِ النِّيرَانِ الْمُقَدَّسَةِ؛ فَازْدَادَ غَمًّا وَهَمًّا.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى وُزَرَائِهِ وَكِبَارِ أَفْرَادِ حَاشِيَتِهِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا رَأَى فِي مَنَامِهِ، وَعَنْ زَلْزَلَةِ إِيوَانِهِ، وَتَسَاقُطِ شُرُفَاتِهِ، وَعَنْ خُمُودِ النَّارِ فِي الدِّيَارِ وَالْأَمْصَارِ...

عِنْدَئِذٍ قَالَ «الْمَابَاذَانُ»:

- أَصْلَحَ اللهُ الْمَلِكَ؛ وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ هَذِهِ الرُّؤْيَا، ثُمَّ قَصَّ عَلَى الْمَلِكِ رُؤْيَاهُ فِي الْإِبِلِ وَالْخَيْلِ.

فَقَالَ «كِسْرَى»:

- أَيُّ شَيْءٍ يَكُونَ هَذَا يَا «مَابَاذَانُ»؟

قَالَ «الْمَابَاذَانُ»:

- حَدَثٌ يَكُونُ فِي نَاحِيَةِ الْعَرَبِ.

فَكَتَبَ «كِسْرَى» كِتَابًا إِلَى «النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ» يَقُولُ فِيهِ:

مِنْ «كِسْـرَى» مَلِكِ الْمُلُوكِ إِلَى «النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ» أَمَّا بَعْدَ فَوَجِّهْ إِلَيَّ بِرَجُلٍ عَالِمٍ بِمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهُ.

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ يُدْعَى «عَبْدَ الْمَسِيحِ»، فَلَمَّا سَأَلَهُ «كِسْرَى» عَنْ تَفْسِيرِ تِلْكَ الظَّوَاهِرِ وَمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ، وَعَنِ الرُّؤْيَا الَّتِي رَآهَا وَمَا تَرْمُزُ إِلَيْهِ، قَالَ «عَبْدُ الْمَسِيحِ»:

- إِنَّ لِي خَالًا يُدْعَى «سُطَيْحًا» يَسْكُنُ عِنْدَ مَشَارِفِ الشَّامِ، لَعَلِّي أَرَى عِنْدَهُ خَبَرًا يَقِينًا عَمَّا تُرِيدُ وَتَوَدُّ.

قَالَ «كِسْرَى»:

- اذْهَبْ إِلَيْهِ وَاسْتَفْسِرْهُ عَمَّا أَرْغَبُ فِيهِ، وَعُدْ إِلَيَّ.

مَضَى «عَبْدُ الْمَسِيحِ» حَتَّى أَتَى خَالَهُ «سُطَيْحًا» وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، وَأَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ، فَسَأَلَهُ وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ، وَكَانَ «سُطَيْحٌ» يُعَانِي مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ إِلَى «عَبْدِ الْمَسِيحِ» ثُمَّ قَالَ:

- «عَبْدُ الْمَسِيحِ»، عَلَى جَمَلٍ مُشِيحٍ، أَتَى «سُطَيْحًا»، وَقَدْ أَوْفَى عَلَى الضَّرِيحِ. بَعَثَكَ مَلِكُ بَنِي «سَاسَانَ»، لِارْتِجَاسِ الْإِيوَانِ، وَخُمُودِ النِّيرَانِ، وَرُؤْيَا «الْمَبَاذَانِ»، رَأَى إِبِلًا صِعَابًا، تَقُودُ خَيْلًا عِرَابًا، قَدْ قَطَعَتْ دِجْلَةَ، وَانْتَشَرَتْ فِي بِلَادِهَا.

يَا «عَبْدَ الْمَسِيحِ»... إِذَا كَثُرَتِ التِّلَاوَةُ، وَظَهَرَ صَاحِبُ الْهِرَاوَةِ، وَفَاضَ وَادِي السَّمَاوَةِ، وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ «سَاوَةَ»، وَخَمَدَتْ نَارُ فَارِسَ،

فَلَيْسَ الشَّـــامُ لِـ «سُـــطَيْحٍ» شَـــامًا، يَمْلِكُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ وَمَلِكَانِ عَلَى عَدَدِ الشُّرُفَاتِ (أَرْبَعَ عَشْرَةَ شُرْفَةً) وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ.

ثُمَّ قَضَى «سُـــطَيْحٌ» مَكَانَهُ، وَنَهَضَ «عَبْدُ الْمَسِـــيحِ» إِلَى رَاحِلَتِهِ، وَعَادَ إِلَى بِلَادِ فَارِسَ؛ لِيُخْبِرَ «كِسْـــرَى» بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ، وَتَفْسِيرِ وَقَائِعِ مُسْتَقْبَلِ الْأَيَّامِ.

وَلَمَّا تَزَلْزَلَ وَارْتَجَسَ إِيوَانُ «كِسْـــرَى» وَتَسَاقَطَتْ شُـــرُفَاتُهُ لَيْلَةَ مَوْلِدِ الْهَادِي ﷺ، فَإِنَّ عَـــرْشَ «قَيْصَرَ» أَيْضًا قَدِ اهْتَزَّ مِـــنْ تَحْتِهِ، وَلَقَدْ رُوِيَ فِي ذَلِكَ رِوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ وَعَدِيدَةٌ.

وَمِنْ جُمْلَةِ الْإِرْهَاصَاتِ الْبَشَـــرِيَّةِ الَّتِي تَحَدَّثَ بِهَا النَّاسُ وَحَفَلَتْ بِهَا كُتُبُ التَّارِيخِ، وَتَرَدَّدَتْ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ وَعَلَى أَكْثَرَ مِنْ لِسَـــانٍ، مَا رَوَاهُ «هِشَـــامُ بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ» عَنْ «عَائِشَـــةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ـ، قَالَتْ:

ـ كَانَ يَهُودِيٌّ قَدْ سَـــكَنَ «مَكَّةَ» يَتَّجِرُ بِهَا، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ الْيَهُودِيُّ فِي مَجْلِسٍ مِنْ قُرَيْشٍ:

ـ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ هَلْ وُلِدَ فِيكُمُ اللَّيْلَةَ مَوْلُودٌ؟

فَقَالَ الْقَوْمُ:

ـ واللهِ مَا نَعْلَمُهُ.

فَقَالَ:

ـ اللهُ أَكْبَرُ... أَمَّا إِذَا أَخْطَأَكُمْ فَـلَا بَأْسَ، انْظُرُوا وَاحْفَظُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ: وُلِدَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَخِيرَةِ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ عَلَامَةٌ فِيهَا شَـعَرَاتٌ مُتَوَاتِرَاتٌ، كَأَنَّهُنَّ عُرْفُ فَـرَسٍ، لَا يَرْضَعُ لَيْلَتَيْنِ، وَذَلِكَ أَنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ أَدْخَلَ إِصْبَعَهُ فِي فَمِهِ فَمَنَعَهُ الرَّضَاعَ.

فَتَصَدَّعَ الْقَوْمُ (تَفَرَّقُوا) مِنْ مَجْلِسِهِمْ، وَهُمْ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ قَوْلِهِ وَحَدِيثِهِ، فَلَمَّا صَارُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ، أَخْبَرَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ أَهْلَهُ، فَقَالُوا:

ـ قَدْ وَاللهِ وُلِدَ لِـ «عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» غُلَامٌ سَمَّوْهُ «مُحَمَّدًا».

ثُمَّ الْتَقَى الْقَوْمُ فَقَالُوا:

ـ هَلْ سَمِعْتُمْ حَدِيثَ الْيَهُودِيِّ، وَهَلْ بَلَغَكُمْ مَوْلِدُ هَذَا الْغُلَامِ؟

فَانْطَلَقُوا حَتَّى جَاءُوا الْيَهُودِيَّ، فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ.

فَقَالَ:

ـ فَاذْهَبُوا مَعِي حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ.

فَخَرَجُوا بِهِ حَتَّى أَدْخَلُوهُ عَلَى «آمِنَةَ»، فَقَالُوا:

ـ أَخْرِجِي لَنَا ابْنَكِ.

فَأَخْرَجَتْهُ، وَكَشَفُوا عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَأَى الْيَهُودِيُّ تِلْكَ الشَّامَةَ، فَوَقَعَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ! فَلَمَّا أَفَاقَ قَالُوا لَهُ:

ـ مَا لَكَ وَيْلَكَ؟!

قَالَ:

- قَدْ ذَهَبَتْ وَاللهِ النُّبُوَّةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرُحْتُمْ بِهَا يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللهِ لَيَسْطُوَنَّ بِكُمْ سَطْوَةً يَخْرُجُ خَيْرُهَا مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

❊❊❊

كَمَا رُوِيَ لَنَا عَنِ الشَّاعِرِ «حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ» فِي هَذَا الصَّدَدِ قَوْلُهُ:

- إِنِّي لَغُلَامٌ يَفَعَةٌ، ابْنُ سَبْعٍ أَوْ ثَمَانِي سِنِينَ، أَعْقِلُ مَا رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ، إِذَا بِيَهُودِيٍّ فِي «يَثْرِبَ» يَصْرُخُ ذَاتَ غَدَاةٍ:

- يَا مَعْشَرَ يَهُودَ...

فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَأَنَا أَسْمَعُ، فَقَالُوا:

- وَيْلَكَ مَا لَكَ؟

قَالَ:

- قَدْ طَلَعَ نَجْمُ «أَحْمَدَ» الَّذِي يُولَدُ بِهِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ.

❊❊❊

وَنَعُودُ إِلَى سِيَاقِ الْحَدِيثِ وَالْقِصَّةِ:

فَقَدْ حَفِلَتْ دَارُ «آمِنَةَ» بَعْدَ وِلَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْغَادِيَاتِ الرَّائِحَاتِ، يَزُرْنَهَا وَيَقُمْنَ بِخِدْمَتِهَا وَمُسَاعَدَتِهَا، وَالْإِحَاطَةِ الشَّامِلَةِ بِالْمَوْلُودِ، وَقَدْ أَحْسَسْنَ وَشَعَرْنَ بِالْبَرَكَةِ تَغْمُرُهُنَّ، وَتُحِيطُ بِهِنَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

وَمِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي حَدَبْنَ عَلَيْهِ، وَأَحَطْنَهُ بِالرِّعَايَةِ وَالْعِنَايَةِ، وَقُمْنَ

عَلَى خِدْمَتِـهِ، حَاضِنَتُهُ «أُمُّ أَيْمَنَ»، وَتُدْعَى «بَرَكَةَ»، وَهِيَ جَارِيَةٌ وَرِثَهَا عَنْ أَبِيهِ «عَبْدِ اللهِ».

وَلَمْ يَكُنْ لَبَنُ «آمِنَةَ» مِدْرَارًا، وَلَعَلَّ الظُّرُوفَ النَّفْسِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُهَا قَدْ قَلَّلَتْ مِنْهُ، أَوْ لَعَلَّ اللهَ ـ تَعَالَى ـ لَهُ حِكْمَةٌ فِي ذَلِكَ لَا نَعْلَمُهَا نَحْنُ، وَتَقْصُرُ أَفْهَامُنَا عَنْهَا؛ فَقَدْ أَرْضَعَتْهُ مَعَ أُمِّهِ مَوْلَاةُ عَمِّهِ «أَبِي لَهَبٍ» وَتُدْعَى «ثُوَيْبَةَ».

❋❋❋

وَمَضَتْ أَيَّـامٌ... وَالطِّفْلُ فِي حِجْرِ أُمِّـهِ وَبَيْنَ حَوَاضِنِـهِ، وَجَدُّهُ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» فِي سُؤَالٍ دَائِـمٍ عَنْهُ، وَتَطَـلُّعٍ بِشَغَفٍ إِلَيْهِ.

حَتَّـى نَزَلَتْ بِـ «مَكَّةَ» قَافِلَـةٌ قَادِمَةٌ مِنْ دِيَارِ «بَنِي سَـعْدٍ» فِيهَا «حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ» وَزَوْجُهَا، يَبْحَثُونَ عَنْ أَطْفَالٍ مَوْلُودِينَ حَدِيثًا، يَحْمِلُونَهُمْ مَعَهُمْ إِلَى الْبَادِيَةِ؛ لِيُرْضِعُوهُمْ وَيَتَعَهَّدُوهُمْ وَيُنَشِّئُوهُمْ فِي الْفَلَاةِ تَنْشِئَةً فِيهَا الْعَافِيَةُ وَالصِّحَّةُ، حَيْثُ الْهَوَاءُ النَّقِيُّ، وَالْفَضَاءُ الرَّحْبُ، وَالنَّقَاءُ الْمُنَاخِيُّ.

وَهُنَا تَبْدَأُ مَرْحَلَةٌ جَدِيدَةٌ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ـ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ـ.

فَإِلَى الصَّفَحَاتِ الْقَادِمَةِ نَسْتَقْرِئُهَا، وَنَسْتَعْذِبُ فُصُولَهَا، وَنَسْتَلْهِمُ الرُّشْدَ وَالْهِدَايَةَ مِنْ مَعَانِيهَا.

الرَّضَاعُ وَالطُّفُولَةُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾ ﴾ (سُورَةُ الضُّحَى: 1-11).

كَانَتِ السَّنَةُ سَنَةً شَهْبَاءَ مُجْدِبَةً، قَلِيلَةَ الزَّرْعِ وَالضَّرْعِ، يَبِسَتْ فِيهَا الْمَرَاعِي، وَاصْفَرَّتِ الْحَشَائِشُ وَالنَّبَاتَاتُ، وَنَفَقَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَاشِيَةِ، وَعَاشَ النَّاسُ فِي جُوعٍ وَمَسْغَبَةٍ.

وَجَلَسَتْ «حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِي ذُؤَيْبٍ» إِلَى زَوْجِهَا «الْحَارِثِ» تُحَدِّثُهُ وَيُحَدِّثُهَا، وَيَتَشَاكَيَانِ مِنِ انْقِطَاعِ الْمَوْرِدِ، وَفُقْدَانِ الْغِذَاءِ، وَيَتَنَاصَحَانِ مَاذَا يَفْعَلَانِ؟ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفَانِ؟ حِرْصًا عَلَى بَقَائِهِمَا، وَحِفَاظًا عَلَى أَطْفَالِهِمَا.

قَالَتْ «حَلِيمَةُ»:

- غَدًا سَــوْفَ تَنْطَلِقُ مِنْ دِيَارِنَا، دِيَارِ «بَنِي سَــعْدٍ»، قَافِلَــةٌ نَحْوَ «مَكَّةَ»؛ تَلْتَمِسُ النِّسْوَةُ أَطْفَالًا لِسَــادَةِ قُرَيْشٍ يُرْضِعْنَهُمْ، وَيَكْتَسِبْنَ مَالًا وَعَطَاءً مِنْ أَهْلِيهِمْ، كَمَا أَنَّ الرِّجَالَ سَــوْفَ يَتَقَايَضُونَ عَلَى مَا مَعَهُمْ مِنْ بِضَاعَةٍ وَعُرُوضٍ... فَمَا رَأْيُكَ لَوِ انْضَمَمْنَا إِلَى الْقَافِلَةِ وَسَــعَيْنَا سَــعْيَهَا؛ لَعَلَّ الْأَزْمَةَ الَّتِي تَمُرُّ بِنَا تَزُولُ عَنَّا؟!

فَقَالَ «الْحَارِثُ»:

- نِعْمَ الرَّأْيُ مَا رَأَيْتِ يَا «حَلِيمَةُ»، وَدُونَكِ وَمَا تُرِيدِينَ، وَإِنِّي لَمُوَافِقٌ مُنْذُ الْآنَ، وَلَسَــوْفَ أُرَافِقُكِ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ وَهَذَا الْمَسْعَى، وَلَعَلَّ اللهَ تَعَالَى يَرْزُقُنَا رِزْقًا حَسَنًا.

وَمَعَ بُزُوغِ أَنْوَارِ الْفَجْرِ الْفِضِّيَّةِ كَانَــتْ «حَلِيمَةُ» تَرْكَبُ أَتَانَهَا الضَّعِيفَةَ الْهَزِيلَةَ، وَفِي حِجْرِهَــا وَلَدُهَا الْمَوْلُودُ حَدِيثًا، وَالَّذِي تَكَادُ عِظَامُهُ تَبْرُزُ مِنْ تَحْتِ جِلْدِهِ لِشِــدَّةِ نُحُولِهِ، وَيَبْكِي بُكَاءً مُتَوَاصِلًا... وَزَوْجُهَا «الْحَارِثُ» يَسِــيرُ بِإِزَائِهَا مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا غَلِيظَةٍ يَحْمِلُهَا، وَيَجُرُّ شَاةً يَسْتَدِرُّونَ لَبَنَهَا مِنْ ضَرْعِهَا الْجَافِّ بِصُعُوبَةٍ بَالِغَةٍ.

كَانَتِ الْأُسْرَةُ الصَّغِيرَةُ تَمْشِي فِي مُؤَخِّرَةِ الْقَافِلَةِ، وَتُحَاوِلُ عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ أَنْ تَسْتَحِثَّ الْأَتَانَ الْهَزِيلَةَ فِي سَيْرِهَا الْبَطِيءِ الْمُتَّئِدِ.

وَكُلَّمَا قَطَعَتِ الْقَافِلَةُ شَوْطًا طَوِيلًا انْتَظَرَ رَائِدُهَا وَمَنْ فِي الْمُقَدِّمَةِ، بَعْضَ الْوَقْتِ، رَيْثَمَا تَصِلُ «حَلِيمَةُ» وَ«الْحَارِثُ».

وَبَعْدَ مَسِيرَةِ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا بَدَتْ لِلْقَادِمِينَ مِنَ الصَّحْرَاءِ مَشَارِفُ «مَكَّةَ»، بِجِبَالِهَا الْعَالِيَةِ الصَّخْرِيَّةِ السَّوْدَاءِ.

ثُمَّ حَطُّوا رِحَالَهُمْ فِي إِحْدَى الضَّوَاحِي، وَأَقَامُوا خِيَامَهُمْ، وَبَاتُوا يَسْتَرِيحُونَ بَعْضَ الْوَقْتِ مِنْ وَعْثَاءِ وَعَنَاءِ السَّفَرِ الشَّاقِّ؛ وَلِكَيْ يَسْتَعِدُّوا لِإِتْمَامِ الْمَهَامِّ الَّتِي جَاءُوا مِنْ أَجْلِهَا فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ التَّالِي.

وَكَانَتِ النِّسْوَةُ الْمُؤَهَّلَاتُ لِلرَّضَاعِ فِي الْقَبِيلَةِ عَشْرَ نِسْوَةٍ، فَغَدَوْنَ مَعَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ يَطُفْنَ عَلَى الدُّورِ؛ لِيَحْظَيْنَ بِطِفْلٍ رَضِيعٍ لَهُ وَالِدٌ ثَرِيٌّ غَنِيٌّ، كَيْ يَنْعَمْنَ وَيَسْتَفِدْنَ مِنْ مَالِهِ.

وَلَقَدْ كَانَ بَيْتُ «آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ» أَحَدَ الْبُيُوتِ الَّتِي طُفْنَ بِهَا، وَاطَّلَعْنَ عَلَى الطِّفْلِ الْوَلِيدِ وَأَحْوَالِهِ وَإِمْكَانَاتِ ذَوِيهِ، نَظَرًا لِأَنَّهُ «هَاشِمِيٌّ» وَابْنُ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

لَكِنَّهُنَّ جَمِيعًا أَعْرَضْنَ عَنْهُ، وَانْصَرَفْنَ عَنْ حَضَانَتِهِ وَإِرْضَاعِهِ، عِنْدَمَا عَلِمْنَ بِيُتْمِهِ؛ ثُمَّ حَظِينَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَطْفَالِ الْمَوْلُودِينَ حَدِيثًا.

وَكَمَا طَافَ النِّسْوَةُ، طَافَتْ أَيْضًا «حَلِيمَةُ»، وَمَرَّتْ مِثْلَهُنَّ عَلَى دَارِ «آمِنَةَ»، وَأَعْرَضَتْ أُسْوَةً بِهِنَّ عَنْ هَذَا الْيَتِيمِ، لَكِنَّهَا آوَتْ إِلَى خَيْمَتِهَا فِي ضَاحِيَةِ «مَكَّةَ» دُونَمَا ظَفَرٍ بِطِفْلٍ رَضِيعٍ.

وَلَقَــدْ تَأَلَّمَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِــهَا حِينَمَــا رَأَتْ صُوَيْحِبَاتِهَا؛ كُلًّا مِنْهُنَّ تَحْتَضِــنُ فِي حِجْرِهَا وَلِيدًا مِنْ أَهْلِ قُرَيْشٍ وَأَصْحَابِ الصَّدَارَةِ فِيهَا، وَهِيَ (أَيْ حَلِيمَةُ) فَارِغَةُ الْيَدَيْنِ.

ثُمَّ حَاوَلَــتْ جَهْدَهَا فِي الْبَحْثِ لِلْيَوْمِ التَّــالِي دُونَ أَيِّ جَدْوَى، فَقَرَّرَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا أَنْ تَأْخُذَ الطِّفْلَ الْهَاشِمِيَّ الْيَتِيمَ، وَلَمَّا عَرَضَتِ الْأَمْرَ عَلَى زَوْجِهَا «الْحَارِثِ» وَافَقَهَا، وَقَالَ لَهَا:

- عَلَى بَرَكَةِ اللهِ؛ وَحَسَــنًا تَفْعَلِينَ يَا «حَلِيمَــةُ»، وَلَعَلَّ الْبَرَكَةَ تَأْتِينَا بِفَضْلِ هَذَا الْيَتِيمِ.

وَقَفَتْ «حَلِيمَةُ» عِنْدَ رَأْسِ الطِّفْلِ فِي مَهْدِهِ تَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَأَشْرَقَتْ عَلَى ثَغْرِهِ ابْتِسَامَةٌ مَلَائِكِيَّةٌ رَقِيقَةٌ، نَفَذَتْ أَشِعَّتُهَا إِلَى صَمِيمِ قَلْبِ «حَلِيمَةَ» فَأَسَرَتْهَا، وَمَلَكَتْ مَشَــاعِرَهَا، فَرَفَعَتْهُ مِنَ الْمَهْدِ وَاحْتَضَنَتْهُ بِلَهْفَةٍ وَحَنَانٍ، ثُمَّ أَعْطَتْهُ ثَدْيَهَا، فَتَنَاوَلَهُ وَبَدَأَ يَرْضَعُ.

فَــإِذَا الثَّدْيُ الْجَافُّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَقْطُرُ وَلَوْ بِنُقْطَةٍ قَبْلَ ذَلِكَ، يُدِرُّ إِدْرَارًا عَجِيبًا، وَإِذَا اللَّبَنُ يَخْرُجُ مِنْهُ بِغَزَارَةٍ وَوَفْرَةٍ.

وَهَــا هِيَ ذِي مَعَ زَوْجِهَا «الْحَارِثِ» فِي طَرِيــقِ الْأَوْبَةِ إِلَى الدِّيَارِ، حَيْثُ مَضَارِبُ «بَنِي سَعْدٍ» فِي الصَّحْرَاءِ.

تَمْضِي وَفِي حِجْرِهَا طِفْلَانِ: ابْنُهَا وَرَضِيعُ «بَنِي هَاشِــمٍ»، تُسَابِقُ الْخَيْلَ وَالْجِمَالَ فَوْقَ أَتَانِهَا (أُنْثَى الحِمَارِ) الَّتِي كَانَتْ كَسْلَى، ضَعِيفَةً هَزِيلَةً.

أَمَّا صُوَيْحِبَاتُهَا فَقَدْ تَعَجَّبْنَ مِنْ ذَلِكَ، وَتَسَاءَلْنَ عَنْ سِرِّ هَذَا النَّشَاطِ الْمُفَاجِئِ الَّذِي دَبَّ فِي أَوْصَالِ الْأَتَانِ الْقَمِيئَةِ، وَهَذِهِ السُّرْعَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تُعْهَدُ فِيهَا مِنْ قَبْلُ!

وَأَيْضًا... فَقَدْ أَصْبَحَ ابْنُهَا شَبِعًا بَعْدَ أَنْ عَانَى مِنْ جَفَافِ الثَّدْيِ وَنُضُوبِ اللَّبَنِ، وَبَاتَ يَنَامُ نَوْمًا هَادِئًا عَمِيقًا، لَا يَبْكِي وَلَا يَصْرُخُ وَلَا يَقُضُّ مَضَاجِعَ رِفَاقِ الطَّرِيقِ حِينَ يُقِيمُونَ لِلرَّاحَةِ، إِنَّهَا وَلَا شَكَّ بَرَكَةُ «مُحَمَّدٍ» ﷺ.

لَاحَظَتْ «حَلِيمَةُ» كُلَّ تِلْكَ التَّطَوُّرَاتِ، فَأَقْبَلَتْ عَلَى الطِّفْلِ بِحَنَانٍ وَعَطْفٍ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ، وَرَغِبَتْ فِيهِ.

وَكَذَلِكَ زَوْجُهَا «الْحَارِثُ»؛ فَقَدْ رَأَى تَبَدُّلًا ظَاهِرًا بَيِّنًا، وَتَغَيُّرًا وَاضِحًا فِي ظُرُوفِ الْعَوْدَةِ إِلَى الدِّيَارِ، بَعْدَ أَنْ حَمَلُوا مَعَهُمْ «مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، الطِّفْلَ الَّذِي أَعْرَضَتْ عَنْهُ كُلُّ الْمُرْضِعَاتِ، وَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهُ وَيَتَعَهَّدْنَهُ، لِفَقْرِهِ وَيُتْمِهِ.

وَبَدَأَ «الْحَارِثُ» ـ زَوْجُ «حَلِيمَةَ» ـ يَرَى فِي الطِّفْلِ مَصْدَرَ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ، لِهَذَا لَمْ يَكُنْ أَقَلَّ مِنْ زَوْجَتِهِ تَعَلُّقًا بِهِ وَمَحَبَّةً، وَرِعَايَةً لَهُ.

سَبَقَتِ الْأُسْرَةُ الصَّغِيرَةُ رِفَاقَ الطَّرِيقِ، وَجَاوَزَتْ فُحُولَ دَوَابِّ الْقَافِلَةِ، وَبَلَغَتِ الْمَضَارِبَ وَالْخِيَامَ حَيْثُ دِيَارُ «بَنِي سَعْدٍ»، وَقَصَّتْ «حَلِيمَةُ» عَلَى أَبْنَائِهَا الْكِبَارِ وَأَقْرِبَائِهَا مَا شَاهَدَتْ وَعَايَنَتْ مِنْ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ، صَاحَبَتَا احْتِضَانَ الطِّفْلِ الْهَاشِمِيِّ الرَّضِيعِ.

وَكَانَ مِنْ بَيْنِ أَوْلَادِ «حَلِيمَةَ» فَتَاةٌ نَاهِضَةٌ تُلَقَّبُ بِـ «الشَّيْمَاءِ»، سَمِعَتْ بِإِصْغَاءٍ وَتَأَثُّرٍ حَدِيثَ الْأُمِّ، فَاسْتَأْثَرَ حُبُّ الطِّفْلِ مِنْ قَلْبِهَا، فَكَانَتْ لَهُ خَيْرَ رَاعِيَةٍ وَحَاضِنَةٍ، تَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهِ وَتَدْبِيرِ شُئُونِهِ، وَتَحْدِبُ عَلَيْهِ حَدَبًا عَظِيمًا، وَتُسَاعِدُ الْأُمَّ فِي تَوْفِيرِ كُلِّ أَسْبَابِ الرَّاحَةِ لَهُ.

❊❊❊

مَا بَالُ غُنَيْمَاتِ «حَلِيمَةَ» تَتَوَالَدُ وَتَتَكَاثَرُ؟! وَمَا بَالُ شِيَاهِهَا تَنْمُو وَتَكْبُرُ وَتُدِرُّ اللَّبَنَ غَزِيرًا؟! مَا بَالُ أَرْضِهَا تُنْبِتُ الزَّرْعَ الْأَخْضَرَ وَيَكْثُرُ عَطَاؤُهُ؟! مَا بَالُ حَالِهَا وَشُئُونِهَا وَظُرُوفِ مَعِيشَتِهَا فِي انْقِلَابٍ كَبِيرٍ؟!

كَانَ كُلُّ النَّاسِ مِنْ «بَنِي سَعْدٍ» يَتَسَاءَلُونَ عَنْ سِرِّ هَذَا التَّبَدُّلِ الْعَظِيمِ الْمُفَاجِئِ فِي حَيَاةِ «حَلِيمَةَ»، وَفِي شَكْلِ مَعَاشِهَا:

كَانَتْ تَشْكُو الْفَقْرَ فَإِذَا هِيَ فِي غِنًى ظَاهِرٍ! وَكَانَتْ تَشْكُو عِلَلَ أَطْفَالِهَا وَأَوْلَادِهَا، فَإِذَا هُمْ أَصِحَّاءُ أَقْوِيَاءُ! وَكَانَ زَوْجُهَا كَثِيرًا مَا يَقْعُدُ خَالِيًا دُونَ عَمَلٍ وَإِنْتَاجٍ، فَإِذَا هُوَ فِي إِقْبَالٍ وَكَثْرَةِ مَالٍ!

وَأَصْبَحَ بَيْتُ «الْحَارِثِ» وَزَوْجَتُهُ «حَلِيمَةُ» أَظْهَرَ الْبُيُوتِ وَأَعْلَاهَا فِي مَضَارِبِ «بَنِي سَعْدٍ»، وَأَكْثَرَهَا وَأَوْفَرَهَا رَاحَةً وَهَنَاءً وَغِنًى.

وَلَقَدْ كَانَ كُلُّ ذَلِكَ الْخَيْرِ الْعَمِيمِ بِفَضْلِ وَبَرَكَةِ الطِّفْلِ الْيَتِيمِ، وَالرَّسُولِ الْمُنْتَظَرِ الْكَرِيمِ.

مَرَّتْ بِضْعَةُ أَشْهُرٍ فَإِذَا «مُحَمَّدٌ» ﷺ يَثِبُ وَيَقِفُ عَلَى رِجْلَيْهِ، ثُمَّ يَنْمُو

نُمُوًّا سَرِيعًا غَيْرَ مَأْلُوفٍ أَوْ مَعْرُوفٍ عِنْدَ النَّاسِ، وَحَسَبَ النَّوَامِيسِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْقَوَانِينِ الطَّبِيعِيَّةِ.

هَذَا مَا حَدَّثَتْ بِهِ «حَلِيمَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ؛ حَتَّى أَنَّهُ دَرَجَ وَمَشَى فِي أَشْهُرٍ قَلَائِلَ، وَنَمَا جِسْمُهُ وَتَحَرَّكَ لِسَانُهُ فِي وَقْتٍ وَجِيزٍ، وَكَانَ وَجْهُهُ النَّيِّرُ يَسْتَدِيرُ وَيَتَكَامَلُ كَالْبَدْرِ فِي لَأْلَائِهِ وَإِشْعَاعِهِ.

كَانَ يَخْرُجُ مَعَ إِخْوَتِهِ فِي الرَّضَاعِ إِلَى الْمَرَاعِي، حَيْثُ تَسْرَحُ الْمَاشِيَةُ طَلَبًا لِلْكَلَإِ وَالْعُشْبِ وَالْغِذَاءِ النَّدِيِّ.

وَيَنْتَقِلُ فِي الْمُرُوجِ الْوَاسِعَةِ الْخَضْرَاءِ، يَسْتَنْشِقُ الْهَوَاءَ النَّقِيَّ الصَّافِيَ، فَيَمْلَأُ رِئَتَيْهِ، وَيُنْعِشُ قَلْبَهُ وَفُؤَادَهُ مِنْ أَرِيجِ الزَّهْرِ الْفَوَّاحِ الَّذِي يُعَطِّرُ الْأَرْجَاءَ، وَقَدْ طَابَتِ الْأَرْضُ وَازَّيَّنَتْ وَاكْتَسَتْ بِبِسَاطٍ مِنَ السُّنْدُسِ الْأَخْضَرِ الْمُزَخْرَفِ بِزُهُورِ الصَّحْرَاءِ الْبَرِّيَّةِ.

يَقْضِي نَهَارَهُ فِي مُتْعَةٍ وَنُزْهَةٍ وَتَرَيُّضٍ، ثُمَّ يَعُودُ مَعَ الرُّعَاةِ وَالْمَاشِيَةِ إِلَى الْمَأْوَى، وَقَدْ تَزَوَّدَ بِزَادٍ نَفْسِيٍّ وَجُسْمَانِيٍّ عَظِيمَيْنِ.

ظَلَّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ عَامَيْنِ كَامِلَيْنِ حَتَّى اسْتَوَى عُودُهُ، وَقَوِيَ بَدَنُهُ، وَشَبَّ عَنِ الطَّوْقِ شُبُوبًا رَائِعًا، حَدَّثَتْنَا عَنْهُ «حَلِيمَةُ» بِعَجَبٍ وَدَهْشَةٍ.

وَحِينَ آنَ أَوَانُ الْعَوْدَةِ إِلَى «مَكَّةَ» وَقَدِ انْقَضَى زَمَانُ رَضَاعِهِ ﷺ حَزَّ فِي نَفْسِ «حَلِيمَةَ» أَنْ يَفُوتَهَا الْخَيْرُ الَّذِي تَعِيشُ فِي بَحْبُوحَتِهِ مِنْ جَرَّاءِ إِقَامَةِ الْوَلِيدِ الْهَاشِمِيِّ الْمُبَارَكِ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهَا؛ فَاعْتَزَمَتْ أَمْرًا، وَقَرَّرَتْ قَرَارًا.

فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى «مَكَّةَ» تَنْطَلِقُ بِهَا أَتَانُهَا وَ«مُحَمَّدٌ» ﷺ فِي حِجْرِهَا، وَزَوْجُهَا «الْحَارِثُ» مَعَهَا يُمْسِكُ بِالْمِقْوَدِ، كَانَ اللِّقَاءُ الْعَظِيمُ؛ فَقَدْ كَانَتْ «آمِنَةُ» طَوَالَ الْعَامَيْنِ تُعَانِي مِنْ شَوْقِهَا وَحَنِينِهَا إِلَى طِفْلِهَا، وَسَلْوَةِ أَحْزَانِهَا؛ تَتَلَهَّفُ لِرُؤْيَتِهِ، كَيْ تَكْتَحِلَ عَيْنُهَا بِطَلْعَتِهِ الْبَهِيَّةِ، وَإِشْرَاقَةِ جَبْهَتِهِ السَّنِيَّةِ.

وَكَذَلِكَ الطِّفْلُ... فَقَدْ وَعَى مُبَكِّرًا عَلَى الْأَشْيَاءِ وَالْأَحْدَاثِ، وَتَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى لِقَاءِ أُمِّهِ الَّتِي كَانَتْ تُحَدِّثُهُ عَنْهَا «حَلِيمَةُ» حَدِيثَ الْحَنَانِ وَالْإِعْجَابِ.

وَمَا إِنْ أَطَلَّ بِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، عِنْدَ بَابِ الدَّارِ، حَتَّى احْتَضَنَتْهُ «آمِنَةُ» الْمُشْتَاقَةُ، وَأَوْسَعَتْهُ تَقْبِيلًا وَشَمًّا وَضَمًّا؛ وَكَذَلِكَ فَعَلَ ﷺ.

ثُمَّ نَطَقَتْ «حَلِيمَةُ» فِي اسْتِعْطَافٍ وَاسْتِدْرَارِ حَنَانٍ، وَاسْتَأْذَنَتْ «آمِنَةَ» فِي حَمْلِ الطِّفْلِ مَعَهَا إِلَى دِيَارِ «بَنِي سَعْدٍ»؛ لِأَنَّهَا قَدْ وَجَدَتِ الْخَيْرَ ـ كُلَّ الْخَيْرِ ـ فِي إِقَامَتِهِ مَعَهَا، وَالْبَرَكَةَ ـ كُلَّ الْبَرَكَةِ ـ فِي يُمْنِ طَالِعِهِ السَّعِيدِ.

وَبَعْدَ حِوَارٍ اسْتَمَرَّ فَتْرَةً، وَافَقَتْ «آمِنَةُ» مُكْرَهَةً مُتَرَدِّدَةً، فَأَقَامَ الطِّفْلُ بِجِوَارِ أُمِّهِ أَيَّامًا قَلَائِلَ، ثُمَّ ارْتَحَلَ مَعَ «حَلِيمَةَ» إِلَى دِيَارِ «بَنِي سَعْدٍ» حَيْثُ تَفَتَّحَتْ عَيْنَاهُ عَلَى الْحَيَاةِ.

وَكَانَتْ لَحْظَةُ الْوَدَاعِ مُؤَثِّرَةً بَالِغَةَ التَّأْثِيرِ؛ فَقَدِ احْتَضَنَتْهُ أُمُّهُ بِذِرَاعَيْهَا، وَطَفِقَتْ تُقَبِّلُهُ، وَعَيْنَاهَا لَا تَنْفَكَّانِ عَنْ إِرْسَالِ الدَّمْعِ السَّاخِنِ، وَالطِّفْلُ فِي

تَجَاوُبٍ أَكْبَرَ وَأَعْظَمَ، فَقَدْ جَاشَ وُجْدَانُهُ الْبَرِيءُ بِكُلِّ أَحَاسِيسِ الْبُنُوَّةِ، وَعَوَاطِفِ الْمَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ.

عَادَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ مَعَ «حَلِيمَةَ» فَاسْتَقْبَلَهُ إِخْوَتُهُ مِنَ الرَّضَاعِ اسْتِقْبَالًا حَافِلًا، وَفَرِحُوا بِعَوْدَتِهِ إِلَيْهِمْ، وَنُزُولِهِ فِي دَارِهِمْ، وَأَخَذُوا يَتَحَلَّقُونَ حَوْلَهُ يَتَحَدَّثُونَ أَحَادِيثَ الطُّفُولَةِ الْبَرِيئَةِ الْوَادِعَةِ.

كَانَتِ الْبَادِيَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ ﷺ جُزْءًا مِنْ حَيَاتِهِ وَوَظِيفَةِ يَوْمِهِ؛ وَهَا هُوَ الْآنَ أَكْثَرُ وَعْيًا، وَأَشَدُّ شَوْقًا، وَأَكْثَرُ تَعَلُّقًا.

وَهَا هُوَ يَخْرُجُ عَلَى عَادَتِهِ مَعَ إِخْوَتِهِ قَاصِدِينَ الْمَرَاعِيَ.. يَسُوقُونَ مَاشِيَتَهُمْ، ثُمَّ يَتْرُكُونَهَا تَسْرَحُ وَتَمْرَحُ وَتَتَغَذَّى بِالْعُشْبِ الْأَخْضَرِ الْيَانِعِ.

أَمَّا الْأَطْفَالُ الرُّعَاةُ فَكَانُوا يَقُومُونَ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ الْمَاشِيَةِ، يَلْعَبُونَ أَلْعَابًا مُخْتَلِفَةً يَقْطَعُونَ بِهَا الْوَقْتَ، وَيُسَلُّونَ أَنْفُسَهُمْ.

وَعَادَ الْخَيْرُ إِلَى دِيَارِ «بَنِي سَعْدٍ» جَمِيعًا.

لَمْ تَنْحَصِرِ الْبَرَكَةُ فِي «حَلِيمَةَ» وَأُسْرَتِهَا، بَلْ عَمَّتْ كُلَّ النَّاسِ، وَلَوْ أَنَّهَا كَانَتْ ظَاهِرَةً أَكْثَرَ فِي نِطَاقِهَا، وَضِمْنَ أَفْرَادِ عَائِلَتِهَا، وَمَوَارِدِ رِزْقِهَا.

أَيْنَعَ الزَّرْعُ، وَاخْضَرَّتِ الْمَرَاعِي، وَسَمِنَتِ الْمَاشِيَةُ، وَدَرَّ اللَّبَنُ، وَفَاضَ الْخَيْرُ، وَانْتَشَرَ الرَّخَاءُ، وَطَابَتِ الْحَيَاةُ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ، بَيْنَمَا كَانَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ مَعَ إِخْوَتِهِ يَرْعَوْنَ الْمَاشِيَةَ، عَلَى عَادَتِهِمْ، ظَهَرَ فِي الْفَضَاءِ طَائِرَانِ أَبْيَضَانِ يَهْبِطَانِ رُوَيْدًا نَحْوَ الْأَرْضِ.

فَلَمَّا اقْتَرَبَا وَتَبَيَّنَ لِلْأَطْفَالِ أَنَّهُمَا رَجُلَانِ يَرْتَدِيَانِ ثِيَابًا بَيْضَاءَ، وَعَلَى كَتِفَيْهِمَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ الطَّيْرِ.. تَنَافَرَ الصِّغَارُ وَابْتَعَدُوا عَنِ الْمَكَانِ خَوْفًا، وَذُعِرُوا مِمَّا شَاهَدُوا، وَلَمْ يَلْبَثْ فِي مَكَانِهِ غَيْرُ «مُحَمَّدٍ» ﷺ؛ لَمْ يُخَالِجْهُ مَا خَالَجَ الْآخَرِينَ مِنَ الْجَزَعِ.

وَكَانَ أَحَدُ الْأَطْفَالِ، وَهُوَ أَسَنُّ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ تَوَارَى خَلْفَ كَثِيبٍ مِنَ الرَّمْلِ يَرْقُبُ مَا سَيَجْرِي وَمَا سَيَحْدُثُ.

تَقَدَّمَ الرَّجُلَانِ مِنْ «مُحَمَّدٍ» ﷺ وَأَضْجَعَاهُ أَرْضًا، وَهُوَ ثَابِتُ الْجَنَانِ، غَيْرُ خَائِفٍ وَلَا مُرْتَعِدٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ أَحَدُهُمَا سِكِّينًا فَتَحَ بِهَا الصَّدْرَ، ثُمَّ أَخْرَجَ الْقَلْبَ وَفَتَحَهُ، ثُمَّ تَنَاوَلَ مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ قَذَفَ بِهَا بَعِيدًا، وَغَسَلَ الْقَلْبَ بِمَاءٍ كَانَ مَعَهُ، ثُمَّ أَعَادَ الْقَلْبَ إِلَى مَكَانِهِ، وَمَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى الصَّدْرِ حَيْثُ فَتْحَةُ الْجُرْحِ، فَإِذَا هِيَ سَلِيمَةٌ، وَالصَّدْرُ مُعَافًى، وَلَا أَثَرَ لِشَيْءٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

ثُمَّ قَامَا وَانْطَلَقَا؛ فَاخْتَفَيَا عَنِ الْأَنْظَارِ.

كَانَ أَخُوهُ مِنَ الرَّضَاعِ، الْمُخْتَبِئُ وَرَاءَ الْكَثِيبِ، يَرَى كُلَّ ذَلِكَ فَتَصْطَفِقُ رِجْلَاهُ، وَيَخْفِقُ قَلْبُهُ، وَيَعْجِزُ لِسَانُهُ عَنِ النُّطْقِ وَالصُّرَاخِ.

وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي مُشَاهَدَةِ الْخَاتِمَةِ، أَسْرَعَ يَعْدُو نَحْوَ دَارِهِمْ، وَرِجْلَاهُ تُسَابِقَانِ الرِّيحَ، فَلَمَّا اقْتَرَبَ أَخَذَ يَصْرُخُ:

ـ أُمَّاهُ... أُمَّاهُ...

فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ «حَلِيمَةُ» مَذْعُورَةً تَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ صُرَاخِهِ وَخَوْفِهِ، فَأَخْبَرَهَا بِمَا جَرَى لِأَخِيهِ الْقُرَشِيِّ، فَمَا إِنْ سَمِعَتْ حَدِيثَهُ حَتَّى أَمْسَكَتْ بِذَيْلِ ثَوْبِهَا، وَهَبَّتْ مُسْرِعَةً كَالرِّيحِ نَحْوَ «مُحَمَّدٍ» ﷺ، فَرَأَتْهُ مُمْتَقِعًا (مُتَغَيِّرٌ) لَوْنُهُ، مُصْفَرًّا وَجْهُهُ، فَاحْتَضَنَتْهُ بِحَنَانٍ، وَسَأَلَتْهُ عَمَّا حَدَثَ، فَأَخْبَرَهَا بِتَفَاصِيلِ الْحَادِثِ، فَكَشَفَتْ عَنْ صَدْرِهِ فَلَمْ تَجِدْ أَثَرًا لِجُرْحٍ.

ثُمَّ عَادَتْ بِهِ إِلَى الدَّارِ فِي حَيْطَةٍ وَحَذَرٍ، تَحْنُو عَلَيْهِ وَتَحْتَاطُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتَرْقُبُهُ فِي كُلِّ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، وَتُبَالِغُ فِي مُرَاقَبَتِهِ؛ خَوْفًا عَلَيْهِ مِنَ الْأَذَى.

مَرَّتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ عَلَى «حَلِيمَةَ» فِي قَلَقٍ وَأَرَقٍ، لَمْ تَذُقْ طَعْمَ النَّوْمِ، وَلَمْ يَجِدِ الرُّقَادُ سَبِيلًا إِلَى جَفْنَيْهَا، وَكَانَتْ تَقُومُ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْفَيْنَةِ إِلَى مَرْقَدِ الطِّفْلِ، فَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَتَطْمَئِنُّ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى فِرَاشِهَا.

وَقَبْلَ أَنْ يَتَنَفَّسَ الصَّبَاحُ، وَتُشْرِقَ الشَّمْسُ، كَانَتْ قَدِ اتَّخَذَتْ قَرَارَهَا، وَحَزَمَتْ أَمْرَهَا.

ثُمَّ تَحَدَّثَتْ إِلَى زَوْجِهَا «الْحَارِثِ» فِيمَا اعْتَزَمَتْهُ مِنْ إِرْجَاعِ الصَّبِيِّ إِلَى أَهْلِهِ؛ اكْتِفَاءً مِنْهَا بِمَا حَمَلَتْهُ مِنْ مَسْئُولِيَّةِ الرَّضَاعِ وَالتَّرْبِيَةِ حَتَّى الْآنَ، وَكَيْ لَا تَكُونَ أَمَامَ ذَوِيهِ وَأَهْلِهِ فِي مَوْضِعِ الِاتِّهَامِ وَالتَّفْرِيطِ فِي الْأَمَانَةِ؛ فَوَافَقَهَا عَلَى مَا رَأَتْ.

وَاتَّخَذَتْ سَبِيلَهَا إِلَى «مَكَّةَ»، تَمْتَطِي أَتَانَهَا، وَالصَّبِيُّ فِي حِجْرِهَا، وَ«الْحَارِثُ» كَعَادَتِهِ يُمْسِكُ بِالْمِقْوَدِ، وَيَحْرُسُ الرَّكْبَ الْمَيْمُونَ.

فُوجِئَتْ «آمِنَةُ» بِـ «حَلِيمَةَ» تَدْخُلُ عَلَيْهَا وَمَعَهَا الْغُلَامُ، وَلَمَّا يَمْضِ عَلَى ذَهَابِهَا سِوَى فَتْرَةٍ قَلِيلَةٍ، أَقَلَّ مِنَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ!

رَحَّبَتْ بِوَلِيدِهَا، وَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا وَقَبَّلَتْهُ، ثُمَّ الْتَفَتَتْ إِلَى «حَلِيمَةَ» وَسَأَلَتْهَا عَنْ سَبَبِ عَوْدَتِهَا سَرِيعًا، فَقَالَتْ «حَلِيمَةُ»:

ـ لَقَدْ وَفَّيْنَا الْمُدَّةَ، وَأَدَّيْنَا الْأَمَانَةَ.

لَكِنَّ «آمِنَةَ» لَمْ تَقْتَنِعْ بِالْجَوَابِ؛ فَقَدْ كَانَتْ «حَلِيمَةُ» شَدِيدَةَ التَّمَسُّكِ بِعَوْدَةِ الطِّفْلِ مَعَهَا فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ، فَمَا بَالُهَا الْيَوْمَ غَيْرَ مُتَحَمِّسَةٍ كَمَا كَانَتْ فِي السَّابِقِ، فَبَيَّنَتْ لَهَا مَا فِي نَفْسِهَا مِنَ الشَّكِّ وَالرِّيبَةِ، وَطَلَبَتْ إِلَيْهَا أَنْ تَصْدُقَهَا الْقَوْلَ.

فَرَوَتْ لَهَا «حَلِيمَةُ» مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ مَعَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَتَيَاهُ وَشَقَّا صَدْرَهُ، وَقَالَتْ إِنَّهَا تَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ وَاقِعَةٍ أُخْرَى قَدْ تُؤْذِيهِ، وَوَاجِبُ الْأَمَانَةِ يَقْضِي عَلَيْهَا أَنْ تَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ سَلِيمًا مُعَافًى، بَرَاءً مِنْ كُلِّ سُوءٍ.

فَتَبَسَّمَتْ «آمِنَةُ» وَقَالَتِ:

ـ اسْمَعِي يَا «حَلِيمَةُ»... إِنَّنِي لَا أَخْشَى عَلَى بُنَيَّ هَذَا مِنْ أَيِّ ضَرَرٍ أَوْ أَذًى، وَإِنَّ لَهُ لَشَأْنًا عَظِيمًا يَفُوقُ كُلَّ أَقْرَانِهِ وَأَتْرَابِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَثْنَاءَ حَمْلِهِ مِنَ الرُّؤَى مَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ، وَسُمُوِّ مَكَانَتِهِ...

وَأَكْثَـرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ رَأَيْتُ لَيْلَةَ مَوْلِدِهِ، وَسَـاعَةَ وُقُوعِهِ مِنْ بَطْنِي، كَأَنَّ نُورًا خَرَجَ مِنِّي فَأَضَاءَ قُصُورَ بُصْرَى فِي الشَّامِ.

لَا عَلَيْكِ يَا «حَلِيمَـةُ»، فَقَدْ أَدَّيْتِ الْأَمَانَةَ، وَبَلَّغْـتِ الْحُقُوقَ، وَوَفَّيْتِ بِالْعُهُودِ، فَشُكْرًا لَكِ.

وَانْصَرَفَتْ «حَلِيمَةُ» مِنْ دَارِ «آمِنَةَ» آيِبَةً إِلَى زَوْجِهَا وَرَحْلِهَا، ثُمَّ اتَّخَذَتْ سَبِيلَهَا إِلَى دِيَارِهَا. وَأَوَى الطِّفْلُ الْعَظِيمُ إِلَى حِجْرِ أُمِّهِ.

وَهَكَذَا انْتَهَى فَصْلٌ مِنْ حَيَاةِ سَـيِّدِ الْخَلْقِ «مُحَمَّـدٍ» ﷺ، لِيَبْدَأَ فَصْلٌ جَدِيدٌ، وَفِي كُلٍّ عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ.

فَإِلَى الصَّفَحَاتِ الْقَادِمَةِ، نَسْتَلْهِمُ الرُّشْدَ وَالْمَعْرِفَةَ وَالْحِكْمَةَ مِنْهَا.

الْيَتِيمُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ (الشَّرْحُ: 1-8).

أَقَامَ الطِّفْلُ الْهَاشِمِيُّ فِي رِعَايَةِ أُمِّهِ «آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ» فِي مَكَّةَ، يَنْهَلُ مِنْ يَنْبُوعِ حَنَانِهَا أَصْفَى الشَّرَابِ وَأَحْلَاهُ وَأَطْيَبَهُ، وَيَرْعَاهُ جَدُّهُ الْحَنُونُ الْعَطُوفُ، لَا يَنْقَطِعُ عَنْ زِيَارَةِ الْبَيْتِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِ.

وَكَانَ ﷺ يَنْمُو نُمُوًّا ظَاهِرًا يَلْفِتُ الْأَنْظَارَ، فَكَلَامُهُ وَمَنْطِقُهُ وَعَقْلُهُ يُحَاكِي الْكِبَارَ النَّاضِجِينَ، وَهُدُوءُهُ وَاتِّزَانُهُ يُشَابِهُ الشُّيُوخَ الْمُجَرِّبِينَ، مِمَّا جَعَلَهُ حَدِيثَ النَّاسِ جَمِيعًا، وَمَحَطَّ أَنْظَارِهِمْ وَمَحَلَّ إِعْجَابِهِمْ وَتَقْدِيرِهِمْ.

لَمْ يَعْرِفْ خِفَّةَ الْأَطْفَالِ وَلَا طَيْشَهُمْ وَلَا نَزَوَاتِهِمْ؛ فَقَدْ كَانَتْ عَيْنُ اللهِ تَعَالَى تَرْعَاهُ وَتَكْلَؤُهُ وَتَحْفَظُهُ، وَإِلْهَامُ السَّمَاءِ وَهَدْيُهَا يُوَجِّهُهُ.

وَحِينَ قَارَبَ السَّادِسَةَ مِنْ عُمْرِهِ، وَقَدْ جَرَى الْحَدِيثُ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمِّهِ حَوْلَ أَبِيهِ «عَبْدِ اللهِ»، وَذَكَرَهُ فِي حَسْرَةِ الْيَتِيمِ الَّذِي فَتَحَ عَيْنَيْهِ عَلَى الدُّنْيَا مَحْرُومًا مِنْ حَنَانِ الْأَبِ وَعَطْفِهِ، جَاشَتْ نَفْسُ «آمِنَةَ» بِالذِّكْرَى، وَاشْتَعَلَ فُؤَادُهَا بِالْحَنِينِ، وَالْتَهَبَتْ مَشَاعِرُهَا بِالشَّوْقِ، فَرَأَتْ أَنْ تَرْحَلَ بِطِفْلِهَا إِلَى «يَثْرِبَ» حَيْثُ قَبْرُ «عَبْدِ اللهِ» يَزُورَانِهِ، وَيُطْفِئَانِ مَا فِي فُؤَادَيْهِمَا مِنْ حَرَارَةِ الْحِرْمَانِ وَأَسَاهُ.

وَقَبْلَ أَنْ تَفْعَلَ اسْتَأْذَنَتْ «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ» فِي الرَّحِيلِ إِلَى «يَثْرِبَ» وَالزِّيَارَةِ، فَأَذِنَ لَهَا وَوَصَّاهَا خَيْرًا بِنَفْسِهَا وَبِوَلَدِهَا.

خَرَجَتْ «آمِنَةُ» مِنْ «مَكَّةَ» وَمَعَهَا «أُمُّ أَيْمَنَ» ـ بَرَكَةُ ـ حَاضِنَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِرُفْقَتِهِمَا الطِّفْلُ، قَاصِدِينَ «يَثْرِبَ».

وَالْمَسَافَةُ بَيْنَ «مَكَّةَ» وَ«يَثْرِبَ» بَعِيدَةٌ، وَالطَّرِيقُ طَوِيلٌ شَاقٌّ، وَفِيهِ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ مَا يَنُوءُ بِهِ الرِّجَالُ أُولُو الْعَزْمِ وَالْقُوَّةِ؛ لَكِنَّ الشَّوْقَ وَالْحَنِينَ أَنْسَيَا الرَّكْبَ الصَّغِيرَ الْمَحْدُودَ كُلَّ الْمَتَاعِبِ، وَحَفَّزَاهُ إِلَى تَحَمُّلِ كُلِّ أَنْوَاعِ الْمَصَاعِبِ فِي سَبِيلِ بُلُوغِ الْهَدَفِ.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ الْمَسِيرِ الْمُضْنِي، وَصَلُوا إِلَى «يَثْرِبَ» وَنَزَلُوا فِي ضِيَافَةِ أَخْوَالِ وَالِدِ النَّبِيِّ ﷺ «بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ»، مُكَرَّمِينَ مُعَزَّزِينَ، يَحُوطُونَهُمْ بِكُلِّ ضُرُوبِ الرِّعَايَةِ وَالْعِنَايَةِ وَالْمَحَبَّةِ.

وَلَمْ يَكُنْ عِنْـدَ «آمِنَةَ» وَلَا الطِّفْلِ الْكَرِيمِ صَبْرٌ عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِ «عَبْدِ اللهِ»، الزَّوْجِ الْحَبِيبِ وَالْأَبِ النَّجِيبِ.

فَبَـادَرُوا وَبِرُفْقَتِهِـمْ «أُمُّ أَيْمَـنَ» إِلَى حَيْثُ دُفِنَ، وَهُنَـاكَ كَانَتْ وَقْفَةً خَشَـعَتْ لَهَا الْأَحْجَارُ الصُّمُّ، وَتَزَلْزَلَتْ لَهَا الرَّوَاسِـي الشُّمُّ، إِذْ ذَرَفَتْ «آمِنَةُ» مِـنَ الدَّمْعِ، وَأَطْلَقَتْ مِنَ التَّنَهُّدَاتِ وَالزَّفَـرَاتِ مَا حَرَّكَتْ كَامِنَ الْحُزْنِ الْعَمِيقِ فِي قَلْبِهَا الْفَتِيِّ.

أَمَّـا الصَّبِيُّ فَقَدْ بَكَى بُـكَاءً مُرًّا، وَانْتَحَبَ انْتِحَابًـا صَامِتًا، مِمَّا جَعَلَ مَلَائِكَةَ السَّـمَاءِ تَضِجُّ بِالْأَنِينِ وَالْحَنِينِ، وَتَسَـأَلُ الْعَطْـفَ عَلَى الصَّبِيِّ الْيَتِيـمِ الْكَرِيمِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَرُدُّ الْبَارِي ـ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ عَلَيْهَا اسْتِعْطَافَهَا بِأَنَّهُ ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ هُوَ الْمُدَبِّرُ وَهُوَ الْمُعِينُ.

وَلَبِثَـتْ «آمِنَةُ» وَمَعَهَا طِفْلُهَا وَحَاضِنَتُهُ فِي «يَثْـرِبَ» أَيَّامًا، ثُمَّ آنَ أَوَانُ الْعَـوْدَةِ إِلَى «مَكَّةَ»، فَتَجَهَّزَتْ وَاسْـتَأْذَنَتْ مُضَيِّفِيهَا فِي الْعَوْدَةِ فَأَذِنُوا لَهَا، وَهَيَّئُوا لَهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ زَادٍ وَمِنْ طَعَامٍ وَشَـرَابٍ وَغَيْرِهِ، مِمَّا تَتَبَلَّغُ بِهِ فِي رِحْلَتِهَا. ثُمَّ وَدَّعُوهَا حَتَّى مَشَارِفِ «يَثْرِبَ».

وَلَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلِ وَقْتٍ مُنْذُ بَدْءِ الرِّحْلَةِ حَتَّى وَقَعَتْ «آمِنَةُ» فَرِيسَـةَ الْحُمَّى الشَّـدِيدَةِ، فَقَامَتْ «أُمُّ أَيْمَنَ» عَلَى تَمْرِيضِهَا وَإِسْعَافِهَا، وَنَصَبَتْ

فَوْقَ رَأْسِهَا رِدَاءً أَشْبَهَ بِالْخَيْمَةِ؛ كَيْ تَسْتَظِلَّ بِهِ، وَيَحْمِيَهَا مِنْ حَرَارَةِ شَمْسِ الصَّحْرَاءِ، وَلَهِيبِ رِمَالِهَا السَّاخِنَةِ الَّتِي تَزِيدُ الْجَوَّ اخْتِنَاقًا.

أَمَّا الطِّفْلُ «مُحَمَّدٌ» ﷺ فَقَدْ لَزِمَ جَانِبَ الْأُمِّ الْمَرِيضَةِ يَبْكِي بِصَمْتٍ وَأَلَمٍ، وَنَظَرَاتُهُ زَائِغَةٌ بَيْنَ مَرْقَدِ الْأُمِّ وَمَثْوَى الْأَبِ فِي «يَثْرِبَ»... وَبَيْنَ السَّمَاءِ حَيْثُ الرَّجَاءُ وَالْعَزَاءُ.

ثُمَّ... مَاتَتْ «آمِنَةُ» وَأَسْلَمَتِ الرُّوحَ، وَلَمْ تَقْوَ عَلَى مُقَاوَمَةِ الْمَرَضِ.

سَكَتَ الْقَلْبُ عَنِ النَّبْضِ، وَأَطْبَقَتِ الْعَيْنَانِ، وَصَمَتَ اللِّسَانُ.

وَأَقْبَلَ الْمُصْطَفَى ﷺ يَضُمُّ الْجَسَدَ السَّاكِنَ الْهَادِئَ، وَيُشْبِعُهُ تَقْبِيلًا، وَيُنَادِيهِ بِصَوْتٍ تَخْنُقُهُ الدُّمُوعُ، وَلَكِنْ لَا مُجِيبَ.

ثُمَّ أَمْسَكَتْهُ «أُمُّ أَيْمَنَ» بِرِفْقٍ وَأَبْعَدَتْهُ، وَقَامَتْ بِدَفْنِ «آمِنَةَ»، وَمُوَارَاتِهَا الثَّرَى، وَكَانَ ذَلِكَ فِي مَكَانٍ يُدْعَى «الْأَبْوَاءَ» بَيْنَ «مَكَّةَ» وَ«الْمَدِينَةِ».

وَقَبْلَ أَنْ تَرْكَبَ «أُمُّ أَيْمَنَ» مَطِيَّتَهَا، وَتَجْعَلَ الطِّفْلَ فِي حِجْرِهَا، وَقَفَ الِاثْنَانِ عِنْدَ الرَّمْسِ يُلْقِيَانِ نَظْرَةَ الْوَدَاعِ الْأَخِيرَةَ، ثُمَّ اتَّخَذَا سَبِيلَهُمَا عَلَى رِمَالِ الصَّحْرَاءِ سَرَبًا.

يَا لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ حَزِينٍ، وَحَالٍ بَائِسٍ مِسْكِينٍ...

لَقَدْ أَضْحَى الْيَتِيمُ لَطِيمًا، فَقَدَ الْأَبَ دُونَ أَنْ يَرَاهُ، وَهُوَ لَمَّا يَزَلْ فِي بَطْنِ أُمِّهِ جَنِينًا، وَفَقَدَ الْأُمَّ الْحَنُونَ وَالصَّدْرَ الرَّءُومَ، وَالْحِضْنَ الدَّافِئَ، وَهُوَ لَمَّا يَزَلْ صَبِيًّا صَغِيرًا.

وَأَصْبَحَ وَحِيدًا خَالِيَ الْيَدَيْنِ تَتَقَاذَفُهُ تَيَّارَاتُ الْحَيَاةِ؛ لَمْ يَتَجَاوَزِ السَّادِسَةَ مِنْ عُمْرِهِ، كَيْفَ يَمْضِي فِي دُرُوبِ الْحَيَاةِ؟! وَإِلَى أَيْنَ يَسِيرُ؟ وَكَيْفَ يَحْيَا؟

لَكِنَّ عَيْنَ اللهِ تَعَالَى لَا تَغْفُلُ وَلَا تَنَامُ، هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، هُوَ الرَّاعِي وَالْمُعِينُ، هُوَ الْقَائِلُ لِنَبِيِّهِ ﷺ:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (سُورَةُ الضُّحَى: 6-8).

وَتَلَقَّفَتْهُ يَدَا «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» الْحَانِيَتَانِ...

لَقَدِ اسْتَقْبَلَ الرَّكْبَ حِينَ أَوْبَتِهِ إِلَى «مَكَّةَ»، وَلَمْ يَجِدْ مِنْ بَيْنِهِمْ «آمِنَةَ»؛ وَعَلِمَ مَا حَلَّ بِهَا، فَاحْتَضَنَ الطِّفْلَ بِشِدَّةٍ، وَهُوَ يَبْكِي، ثُمَّ رَبَّتَ عَلَى ظَهْرِهِ وَكَتِفَيْهِ، وَأَمْسَكَ بِيَدِهِ وَأَخَذَهُ إِلَى بَيْتِهِ، وَبَدَأَتْ مَرْحَلَةٌ جَدِيدَةٌ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، مَرْحَلَةُ كَفَالَةِ جَدِّهِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» لَهُ.

وَلَقَدْ كَانَتْ فَتْرَةُ حَيَاتِهِ ﷺ فِي كَنَفِ جَدِّهِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وَمَا أَسْبَغَهُ الشَّيْخُ الْوَقُورُ عَلَى حَفِيدِهِ مِنَ الِاهْتِمَامِ وَالْحَنَانِ وَالرِّعَايَةِ مِنْ أَرْقَى وَأَسْمَى مَا عَرَفَتْهُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَأُمْثُولَةً فِي الْوَفَاءِ وَالْحُبِّ لِكُلِّ الْبَشَرِ.

يُحْكَى أَنَّهُ كَانَ لِـ«عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» ـ وَهُوَ شَيْخُ قُرَيْشٍ وَعَظِيمُهَا وَصَاحِبُ السِّقَايَةِ فِيهَا ـ كَانَ لَهُ فِرَاشٌ أَشْبَهُ بِسَرِيرِ الْمُلْكِ، يُبْسَطُ لَهُ فِي ظِلِّ «الْكَعْبَةِ»، يَجْلِسُ عَلَيْهِ فِي أَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، ثُمَّ يَأْتِي أَبْنَاؤُهُ الْكُثْرُ فَيَجْلِسُونَ حَوْلَهُ، ثُمَّ يَأْتِي سَادَةُ قُرَيْشٍ وَكُبَرَاؤُهَا فَيَتَحَلَّقُونَ مِنْ حَوْلِهِ، يُحَدِّثُهُمْ وَيُعْطِي رَأْيَهُ فِي

شُئُونِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَكُلُّهُمْ مُصْغٍ وَسَامِعٌ؛ وَلَا يَجْلِسُ عَلَى هَذَا الْفِرَاشِ أَحَدٌ مِنْ أَبْنَائِهِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ إِجْلَالًا لَهُ وَتَعْظِيمًا لِمُقَامِهِ.

فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْتِي ـ وَهُوَ غُلَامٌ ـ حَتَّى يَجْلِسَ عَلَيْهِ، قَبْلَ جَدِّهِ، فَيَأْخُذُهُ أَعْمَامُهُ لِيُؤَخِّرُوهُ عَنْهُ، وَيُبْعِدُوهُ حَتَّى يَأْتِيَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ».

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ وَصَلَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» فَوَجَدَ حَفِيدَهُ «مُحَمَّدًا» ﷺ بَاكِيًا حَزِينًا، فَسَأَلَهُ عَنْ سِرِّ ذَلِكَ وَسَبَبِهِ، فَأَنْبَأَهُ بِمَا حَدَثَ مِنْ إِزَاحَتِهِ عَنِ الْفِرَاشِ بِقَسْوَةٍ وَغِلْظَةٍ، فَأَدْنَاهُ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» مِنْهُ وَقَرَّبَهُ وَوَاسَاهُ وَطَيَّبَ خَاطِرَهُ، وَقَالَ لِأَبْنَائِهِ:

ـ دَعُوا ابْنِي... فَوَاللهِ إِنَّ لَهُ لَشَأْنًا.

ثُمَّ أَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى فِرَاشِهِ، وَمَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَدِهِ.

وَمِمَّا كَانَ مِنْ أَحْوَالِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» مَعَ حَفِيدِهِ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَرِقَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِيهِ رِقَّتَهُ عَلَى «مُحَمَّدٍ»، فَكَانَ يُقَرِّبُهُ مِنْهُ وَيُدْنِيهِ، فَإِذَا مَا نَامَ وَخَلَا فِي فِرَاشِهِ يَدْخُلُ عَلَيْهِ لِيَطْمَئِنَّ إِلَى طِيبِ مَنَامِهِ وَرُقَادِهِ.

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ جَاءَ قَوْمٌ مِنْ «بَنِي مُدْلِجٍ» إِلَى «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، فَقَالُوا:

ـ يَا «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ» احْتَفِظْ بِهِ (أَيْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ) فَإِنَّا لَمْ نَرَ قَدَمًا أَشْبَهَ بِالْقَدَمِ الَّتِي فِي الْمَقَامِ مِنْهَا.

فَالْتَفَتَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» إِلَى ابْنِهِ «أَبِي طَالِبٍ» الَّذِي كَانَ حَاضِرًا، وَقَالَ لَهُ:

- اسْمَعْ مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ...

فَكَأَنَّهُ كَانَ يُوصِيهِ بِهِ، أَوْ كَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ إِشَارَةً لِـ«أَبِي طَالِبٍ» أَنَّهُ سَيَكُونُ الْقَيِّمَ وَالْوَصِيَّ عَلَى الْغُلَامِ مِنْ بَعْدِهِ.

وَقَالَ ذَاتَ مَرَّةٍ لِـ «أُمِّ أَيْمَنَ» حَاضِنَتِهِ ﷺ:

- يَا «بَرَكَةُ»... لَا تَغْفُلِي عَنِ ابْنِي فَإِنِّي وَجَدْتُهُ مَعَ غِلْمَانٍ قُرْبَ السِّدْرَةِ، وَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَزْعُمُونَ أَنَّ ابْنِي نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَكَانَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» لَا يَأْكُلُ طَعَامًا إِلَّا يَقُولُ:

- عَلَيَّ بِابْنِي...

فَيُؤْتَى بِهِ إِلَيْهِ.

مَضَتْ سَنَتَانِ عَلَى وَفَاةِ «آمِنَةَ»، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَحْيَا فِي كَنَفِ جَدِّهِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وَلَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ صُوَرِ الْحُبِّ وَالْوَفَاءِ كَثِيرًا مِمَّا كَانَ يُضْفِيهِ الْجَدُّ الْحَنُونُ عَلَى حَفِيدِهِ.

وَلَمَّا آذَنَتْ شَمْسُ حَيَاةِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» بِالْمَغِيبِ، وَدَنَتْ سَاعَةُ الرَّحِيلِ عَنِ الدُّنْيَا، وَأَقْعَدَهُ الْمَرَضُ الشَّدِيدُ عَنِ الْحَرَكَةِ، نَادَى عَلَى «أَبِي طَالِبٍ» وَأَوْصَاهُ بِابْنِ أَخِيهِ، وَحَمَّلَهُ أَمَانَةَ رِعَايَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ.

أَمَّا لِمَاذَا اخْتَارَ «عَبْدُ الْمُطَّلِبِ» «أَبَا طَالِبٍ» وَلَمْ يَخْتَرْ غَيْرَهُ مِنْ أَبْنَائِهِ رَغْمَ كَثْرَتِهِمْ، وَرَغْمَ غِنَى بَعْضِهِمْ وَقِلَّةِ ذَاتِ يَدِ «أَبِي طَالِبٍ».. فَإِنَّ لِذَلِكَ

سَـــبَبًا، فَقَدْ كَانَ «أَبُو طَالِبٍ» وَ«عَبْدُ اللهِ» وَالِدُ النَّبِيِّ ﷺ أَخَوَيْنِ شَقِيقَيْنِ، أُمُّهُمَا وَاحِدَةٌ.

وَمِمَّا يُذْكَرُ أَنَّ «عَبْدَ الْمُطَّلِبِ» سَاعَةَ وَفَاتِهِ جَمَعَ أَبْنَاءَهُ وَبَنَاتِهِ، وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُرَثُّوهُ لِيَسْمَعَ بِأُذُنَيْهِ مَا يَقُولُونَهُ فِيهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَاضِرًا، وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمْرِ ثَمَانِيَ سَنَوَاتٍ، وَاعِيًا مُدْرِكًا، مُتَفَهِّمًا.

وَهَذِهِ الْحَادِثَةُ تُعْتَبَرُ الْفَرِيدَةَ مِنْ نَوْعِهَـــا فِي التَّارِيخِ، وَلَقَدْ قَالَتْ بَنَاتُ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» ـ «أَرْوَى»، وَ«أُمَيْمَةُ»، وَ«صَفِيَّةُ»، وَ«الْبَيْضَاءُ» (أُمُّ حَكِيمٍ) رِثَاءً جَمِيلًا رَائِعًا فِي أَبِيهِنَّ، لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ.

ثُمَّ فَارَقَ «عَبْدُ الْمُطَّلِـــبِ» الدُّنْيَا، وَكَانَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ أَكْثَرَ الْحَاضِرِينَ تَأَثُّرًا وَحُزْنًا وَبُكَاءً.

وَتَحَوَّلَ الطِّفْلُ إِلَى دَارِ «أَبِي طَالِبٍ»...

وَكَانَ «أَبُو طَالِبٍ» رَجُلًا دَمْثَ الطَّبْـــعِ، لَيِّنَ الْأَخْلَاقِ وَالْعَرِيكَةِ، كَثِيرَ الْعِيَالِ، قَلِيلَ الْمَوَارِدِ، فَقِيرًا...

ضَمَّ ابْنَ أَخِيهِ الْيَتِيمَ إِلَى أَبْنَائِهِ، وَاتَّخَذَ لَهُ مِنْ دَارِهِ الضَّيِّقَةِ مُقَامًا وَمَكَانًا.. وَحَلَّتِ الْبَرَكَةُ فِي دَارِ «أَبِي طَالِبٍ».

كَانَ أَبْنَـــاؤُهُ إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى طَعَامٍ لَمْ يَكْفِهِمْ، وَقَامُوا عَنْهُ جِيَاعًا؛ فَلَمَّا نَزَلَ بِسَـــاحَتِهِمُ الرَّسُـــولُ الْكَرِيمُ، وَأَصْبَحَ وَاحِدًا مِنْهُمْ، إِذَا امْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى قَصْعَةٍ أَوْ جَفْنَةٍ حَلَّتْ فِيهَـــا الْبَرَكَةُ، وَأَحَاطَ بِهَا الْخَيْرُ وَالْوَفْرُ، فَأَكَلُوا

جَمِيعًا وَشَـبِعُوا، وَبَقِيَ فِي الْوِعَاءِ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَكْفِي غَيْرَهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ.

هَذَا مَا حَدَّثَتْنَا بِـهِ الرِّوَايَاتُ الْمُتَوَاتِرَةُ، فِي أَكْثَـرَ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ كُتُبِ السِّيرَةِ.

وَلَحَظَ ذَلِكَ «أَبُو طَالِبٍ» وَأَدْرَكَـهُ وَعَرَفَهُ، فَازْدَادَ إِقْبَالًا عَلَى ابْنِ الْأَخِ «الْيَتِيمِ»، وَاشْتَدَّ فِي رِعَايَتِهِ، وَلَقَدْ كَانَ حَنَانُهُ عَلَيْهِ وَمَحَبَّتُهُ لَهُ تَفُوقُ مَحَبَّتَهُ لِأَبْنَائِهِ الَّذِين هُمْ مِنْ صُلْبِهِ.

وَمَرَّتْ سَـنَوَاتُ الصِّبَا وَبَلَـغَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ مَبْلَغَ الشَّـبَابِ، وَمَرْحَلَةَ الْفُتُوَّةِ، وَنَاهَزَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ الْبَرِّ الْكَرِيمِ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ أَلَحَّ «مُحَمَّدٌ» عَلَى عَمِّهِ أَنْ يَعْمَلَ، أَنْ يَكْسِبَ رِزْقَهُ وَقُوتَهُ بِعَمَلِ يَدِهِ، وَلَمْ يَجِدْ «أَبُو طَالِبٍ» بُدًّا مِنَ الِاسْتِجَابَةِ لَهُ.

وَنَـزَلَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ إِلَى مَيْـدَانِ الْعَمَلِ، فَكَانَ يَرْعَـى الْأَغْنَامَ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنْ قُرَيْشٍ.

وَهُنَـاكَ... فِي الْخَلَاءِ حَيْـثُ الْفَضَاءُ الرَّحْـبُ وَالطَّبِيعَـةُ الْجَمِيلَةُ، وَالْأَوْدِيَةُ وَالْجِبَالُ وَالسُّهُولُ، وَمُخْتَلِفُ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى فِي كَوْنِهِ الْعَظِيمِ.

هُنَـاكَ.. بَدَأَ خَيَالُ «مُحَمَّـدٍ» ﷺ وَتَفْكِيرُهُ يَنْطَلِقَانِ مِنْ أَسْـرِ عَادَاتِ وَتَقَالِيدِ الْمُجْتَمَعِ الْوَثَنِيِّ الْعَاكِفِ عَلَى الْأَصْنَامِ، الْغَارِقِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

كَانَ يَنْظُـرُ وَيُفَكِّرُ وَيَعْتَبِـرُ، وَكَانَ أَكْثَرُ تَطَلُّعِهِ إِلَى السَّـمَاءِ وَمَا فِيهَا، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ نِظَـامٍ دَقِيقٍ وَتَدْبِيرٍ مُحْكَمٍ، ثُمَّ يَعُـودُ بِبَصَرِهِ إِلَى الْأَرْضِ،

ثُمَّ يَسْـرَحُ بِهِ نَحْوَ «مَكَّةَ» مُتَخَيِّلًا قَوْمَهُ وَعَشِـيرَتَهُ فِي خُضُوعِهِمْ لِلْأَوْثَانِ وَخُشُوعِهِمْ لِلْأَصْنَامِ، فَيَبْدُو لَدَيْهِ التَّبَايُنُ عَجِيبًا غَرِيبًا...

لَقَدْ كَانَ ﷺ مُنْذُ مَطْلَعِ شَبَابِهِ، بَلْ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ، بَلْ مَنْ قَبْلِ صِبَاهُ وَطُفُولَتِهِ.. بَلْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ جَنِينًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ، بَلْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كُلِّهِ، مُنْذُ أَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللهِ ـ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ وَفِي قَدَرِهِ.. الْإِنْسَانَ الْأَسْمَى، وَالنَّبِيَّ الْأَعْظَمَ، وَالرَّسُولَ الْأَكْرَمَ.

وَلَقَدْ بَدَأَ ﷺ مُنْذُ تِلْكَ السِّـنِّ الْمُبَكِّرَةِ يَعْتَمِدُ عَلَى نَفْسِهِ وَيَدِهِ فِي كَسْبِ رِزْقِهِ وَقُوتِهِ، مُحَاوِلًا أَنْ يُخَفِّفَ الْعِبْءَ عَنْ عَمِّهِ «أَبِي طَالِبٍ».

وَكَانَ «أَبُو طَالِبٍ» مِنَ الْقُرَشِـيِّينَ الَّذِينَ يَشُدُّونَ الرِّحَالَ إِلَى الشَّامِ مَعَ قَوَافِلِ التِّجَارَةِ، فِي سَـبِيلِ الْحُصُولِ عَلَى الْمَالِ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ الْكُثْرِ.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ كَانَ «أَبُو طَالِبٍ» يَسْـتَعِدُّ لِلرَّحِيلِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي؛ فَهُوَ يُهَيِّـئُ زَادَهُ وَرَاحِلَتَـهُ، وَيُعْطِي تَعْلِيمَاتِـهِ وَتَوْجِيهَاتِهِ لِأَبْنَائِـهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ لِيُرَاعُوهَا أَثْنَاءَ غِيَابِهِ.

وَجَاءَهُ ابْنُ أَخِيـهِ «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» يَطْلُبُ إِلَيْـهِ أَنْ يُرَافِقَهُ فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ، وَبِدَافِعٍ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى الصَّبِـيِّ الْيَتِيمِ، وَعَدَمِ تَعْرِيضِهِ لِلْأَذَى وَالْمَشَقَّةِ وَالتَّعَبِ، رَفَضَ «أَبُو طَالِبٍ» أَوَّلًا.

وَلَمَّا وَجَدَ الْإِلْحَاحَ مِنِ ابْنِ أَخِيهِ، وَرَغْبَتَهُ الْجَامِحَةَ فِي السَّفَرِ، وَظُهُورَ رَنَّـةِ الْعَطْفِ وَالْحَنَانِ فِي كَلَامِـهِ، وَالْحُزْنِ فِي عَيْنَيْهِ، رَقَّ لَـهُ، وَنَزَلَ عِنْدَ رَغْبَتِهِ، وَوَافَقَ عَلَى سَفَرِهِ مَعَهُ.

وَكَمْ كَانَتْ فَرْحَةُ «مُحَمَّدٍ» ﷺ بِهَذَا الْأَمْرِ وَتِلْكَ الْمُوَافَقَةِ، وَظَلَّ طُولَ لَيْلِهِ سَاهِرًا لَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ، بِانْتِظَارِ بُزُوغِ الْفَجْرِ، وَتَحَرُّكِ الْقَافِلَةِ.

كَانَ الطَّرِيقُ إِلَى الشَّامِ طَوِيلًا وَشَاقًّا، وَالْمَسَافَةُ شَاسِعَةٌ بَعِيدَةٌ، وَالْفَصْلُ صَيْفًا تَشْتَدُّ فِيهِ الْحَرَارَةُ حَتَّى تَدْخُلَ الْقَافِلَةُ أَطْرَافَ الشَّامِ، فَهُنَاكَ يَبْدُو الْجَوُّ لَطِيفًا وَالْهَوَاءُ رَقِيقًا نَقِيًّا.

فَلَا بُدَّ وَالْحَالُ هَذِهِ مِنَ التَّحَوُّطِ وَاجْتِنَابِ حَرَارَةِ الشَّمْسِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ؛ لِهَذَا يَكُونُ أَكْثَرُ السَّيْرِ لَيْلًا، وَمَعَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، حَتَّى وَقْتِ الضُّحَى، فَإِذَا مَا اشْتَدَّ لَهِيبُ شُعَاعِ الشَّمْسِ أَقَامُوا حَيْثُ وَصَلُوا، رَيْثَمَا يَأْخُذُونَ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ، وَيَتَجَنَّبُونَ الْأَخْطَارَ.

وَنَحْنُ حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنْ ذَلِكَ، أَوْ نُفِيضُ فِيهِ، فَإِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نُشِيرَ إِلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ بَالِغِ الْأَهَمِّيَّةِ، أَجْمَعَتْ كُتُبُ السِّيرَةِ عَلَى ذِكْرِهِ، وَالْإِشَادَةِ بِهِ، هَذَا الْأَمْرُ.. هُوَ ظَاهِرَةٌ مِنْ ظَوَاهِرِ وَعَلَامَاتِ نُبُوَّةِ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَإِكْرَامِ اللهِ تَعَالَى لَهُ.

فَقَدْ كَانَ ﷺ حِينَمَا تُشْرِقُ الشَّمْسُ، تَبْدُو فَوْقَ رَأْسِهِ غَمَامَةٌ تُظَلِّلُهُ وَتَحْمِيهِ، تَسِيرُ مَعَهُ فِي سَيْرِهِ، وَتَتَوَقَّفُ حَيْثُ يَقِفُ.

سَحَابَةٌ فِي السَّمَاءِ تَتَحَرَّكُ بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَوَفْقَ إِرَادَتِهِ؛ لِتَبْعَثَ الظِّلَّ الْوَارِفَ فَوْقَ رَأْسِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، وَتَحْفَظُهُ مِنْ كُلِّ أَذًى.

كَانَتْ «بُصْرَى» ـ إِحْدَى مُدُنِ دِيَارِ الشَّـــامِ ـ مَحَطَّـــةً لِلْقَوَافِلِ الْقَادِمَةِ مِـــنْ أَرْضِ الْحِجَازِ، تُنِيخُ عِنْدَهَا جِمَالَهَـــا، وَتُرِيحُهَا مِنْ أَحْمَالِهَا، وَيَأْخُذُ الْقَادِمُونَ فَتْرَةً مِنَ الرَّاحَةِ، اسْتِعْدَادًا لِإِقَامَةِ السُّوقِ بَيْعًا وَشِرَاءً وَتَبَادُلًا.

وَكَانَ فِي إِحْدَى قِمَمِ الْجِبَالِ الْمُحِيطَةِ بِهَا صَوْمَعَةٌ لِرَاهِبٍ مُتَنَسِّكٍ يُدْعَى «بُحَيْرَى»، وَافِرَ الْعِلْمِ، كَثِيرَ الْحِكْمَةِ، بَعِيدَ النَّظَرِ؛ يَقْصِدُهُ بَعْضُ الْقَادِمِينَ لِيَسْـــأَلُوهُ وَيُحَادِثُوهُ وَيَتَزَوَّدُوا مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّاهِبُ «بُحَيْرَى» لِيَهْتَمَّ بِالْقَادِمِينَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَزُورُونَهُ فِي صَوْمَعَتِهِ.

فَلَمَّـــا وَصَلَتِ الْقَافِلَةُ الَّتِي تَضُمُّ فِي عِدَادِهَا «مُحَمَّدًا» ﷺ إِلَى «بُصْرَى»، تَوَقَّفُوا عَنِ الْمَسِيرِ، وَأَنَاخُوا جِمَالَهُمْ، وَأَنْزَلُوا مِنْ عَلَى ظُهُورِهَا أَحْمَالَهُمْ، وَنَصَبُـــوا خِيَامَهُمْ، وَأَقَامُوا لِلرَّاحَةِ، انْتَحَى رَسُـــولُ اللهِ ﷺ مَعَ عَمِّهِ نَاحِيَةً غَيْـرَ بَعِيـدَةٍ عَنِ الْقَوْمِ، وَلَحِقَتْ بِهِ السَّحَابَةُ تُظَلِّلُهُ.

كَانَ «بُحَيْرَى» سَاعَتَئِذٍ يَنْظُرُ مِنْ صَوْمَعَتِهِ إِلَى الْقَافِلَةِ، فَرَأَى مَنْظَرَ السَّحَابَةِ وَتَحَرُّكَهَا، فَأَثَارَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ كَوَامِنَ عِلْمِهِ، وَمَا قَرَأَهُ فِي كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَمَا حَفِظَهُ مِنْ عَلَامَاتِ ظُهُورِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَالْهُدَى.

فَأَرْسَـــلَ يَدْعُو أَفْرَادَ الْقَافِلَةِ إِلَى وَلِيمَةٍ أَقَامَهَا لَهُـــمْ، فَلَمَّا حَضَرُوا وَقَدْ تَخَلَّفَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَأَلَهُمْ «بُحَيْرَى»:

ـ هَلْ حَضَرْتُمْ جَمِيعًا؟!

فَقَالُوا:

- نَعَمْ... وَمَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا تَخَلَّفَ سِوَى صَبِيٍّ يَافِعٍ يُدْعَى «مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ»، هُوَ ابْنُ أَخِي «أَبِي طَالِبٍ».

فَقَالَ «بُحَيْرَى»:

- ادْعُوهُ لِي...

فَدَعَوْهُ، فَلَمَّا حَضَرَ رَحَّبَ بِهِ «بُحَيْرَى»، وَأَخَذَ يَسْأَلُهُ أَسْئِلَةً كَثِيرَةً، وَيَسْتَفْسِرُ مِنْهُ اسْتِفْسَارَاتٍ عَدِيدَةً، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى «أَبِي طَالِبٍ» وَقَالَ لَهُ:

- إِنَّ لِابْنِ أَخِيكَ شَأْنًا يَا «أَبَا طَالِبٍ»، فَاحْتَفِظْ بِهِ.

وَانْفَضَّ الْقَوْمُ، ثُمَّ أَقَامُوا سُوقَهُمْ، وَنَفَقَتْ تِجَارَتُهُمْ، ثُمَّ آبُوا مِنْ حَيْثُ أَتَوْا إِلَى «مَكَّةَ»، وَكَانَ «أَبُو طَالِبٍ» إِثْرَ نَصِيحَةِ «بُحَيْرَى» أَكْثَرَ حِرْصًا وَأَشَدَّ رِعَايَةً لِـ «مُحَمَّدٍ» ﷺ وَأَعْظَمَ تَعَلُّقًا بِهِ وَحَدَبًا عَلَيْهِ.

وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ بَدَأَ ﷺ يَأْخُذُ طَرِيقَهُ فِي الِاسْتِقْلَالِ بِحَيَاتِهِ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِهِ، غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْ عَمِّهِ الَّذِي هُوَ بِمَثَابَةِ الْأَبِ الْحَنُونِ وَالْوَصِيِّ الرَّءُوفِ.

عَادَ إِلَى رِعَايَةِ الْمَاشِيَةِ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنْ قُرَيْشٍ، يَأْخُذُ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا وَرِزْقًا.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ فُتُوَّتِهِ وَصِبَاهُ، فَإِنَّهُ ظَلَّ فِي مَسْلَكِهِ الْحَيَاتِيِّ مُتَرَفِّعًا عَنِ اللَّهْوِ وَالْمُجُونِ وَفَسَادِ الْأَقْرَانِ، كَانَ جَادًّا مُسْتَقِيمًا، تَرْعَاهُ عَيْنُ الْبَارِي وَتَحْفَظُهُ، وَلَقَدْ حَدَثَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنْ قَالَ لِرَفِيقِهِ الَّذِي يُعِينُهُ فِي رَعْيِ الْأَغْنَامِ، وَقَدْ سَمِعَ أَصْوَاتَ مَزَامِيرَ وَطُبُولٍ مِنْ نَاحِيَةِ «مَكَّةَ»:

- إِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ أَذْهَبَ لِأَرَى مَا هُنَاكَ، وَلَعَلِّي أَسْمُرُ مَعَ السَّامِرِينَ، فَكُنْ فِي غَيْبَتِي حَرِيصًا عَلَى مَا بِأَيْدِينَا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ.

ثُمَّ مَضَى...

فَلَمَّا شَارَفَ الْمَكَانَ الَّذِي تَصْدُرُ مِنْهُ الْأَصْوَاتُ، لَبِثَ فِي مَكَانِهِ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ أَغْفَى، وَلَمْ يَسْتَيْقِظْ إِلَّا مَعَ مَسِّ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الْحَارِقَةِ.

وَهَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي حَدَّثَتْهُ فِيهَا نَفْسُهُ بِاللَّهْوِ الْبَرِيءِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ صَانَتْهُ عِنَايَةُ اللهِ، وَأَلْقَتْ عَلَيْهِ النُّعَاسَ.

إِنَّهُ ﷺ يُحَضَّرُ وَيُدَبَّرُ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطِيرٍ، إِنَّهُ يُهَيَّأُ لِلنُّبُوَّةِ!

النَّشْأَةُ وَالزَّوَاجُ مِنْ «خَدِيجَةَ»

الِاسْتِقْلَالِيَّةُ فِي الْعَمَلِ

وَبَدَأَ ﷺ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنَ «الشَّامِ» مَعَ عَمِّهِ، يَنْهَجُ نَهْجَ الِاسْتِقْلَالِيَّةِ فِي الْعَمَلِ؛ لِيُعِيلَ نَفْسَهُ وَيَكْفِيهَا...

فَعَمِلَ فِي رِعَايَةِ الْأَغْنَامِ لِبَعْضِ الْقُرَشِيِّينَ عَلَى قَرَارِيطَ (أَجْزَاءٌ مِنَ الدِّرْهَمِ)، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَؤُوبُ فِي نِهَايَةِ النَّهَارِ إِلَى دَارِ عَمِّهِ، حَيْثُ الصَّدْرُ الْحَنُونُ وَالْأُمُّ الرَّؤُومُ وَالْكِنُّ الْهَادِئُ وَالْإِخْوَةُ الْأَحِبَّةُ وَالْوَالِدُ الْكَرِيمُ...

وَبَدَأَ ﷺ أَيْضًا يُزَاوِلُ الْحَيَاةَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ، يَأْلَفُ النَّاسَ وَيَأْلَفُونَهُ، يُصَادِقُهُمْ وَيُصَادِقُونَهُ. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمِيلُ إِلَى شَيْئَيْنِ فِي حَيَاتِهِمْ:

١ ـ أَصْنَامِهِمْ.

٢ ـ وَلَهْوِهِمْ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ عَلَا صِيتُهُ، وَارْتَفَعَتْ سُمْعَتُهُ، وَأَضَاءَ نَجْمُهُ، وَعُرِفَ بَيْنَ كُلِّ النَّاسِ بِلَقَبِ: «الْأَمِينِ».

وَالْأَلْقَابُ ـ يَا بُنَيَّ الْعَزِيزَ ـ عِنْدَ الْعَرَبِ مَأْلُوفَةٌ مَعْرُوفَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ أَعْظَمُ مِنْ لَقَبِ الْأَمِينِ شَرَفًا وَمَكَانَةً يَسْتَحِقُّهُ «مُحَمَّدٌ» ﷺ عَنْ جَدَارَةٍ وَكَفَاءَةٍ.

مَعَ «مَيْسَرَةَ» غُلَامِ «خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ»

وَكَانَتْ «خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ»، وَهِيَ سَيِّدَةٌ مِنْ سَيِّدَاتِ «قُرَيْشٍ»، قَدْ تَزَوَّجَتْ مِنْ قَبْلُ مَرَّتَيْنِ وَتُوُفِّيَ زَوْجَاهَا، فَوَرِثَتْ عَنْهُمَا مَالًا كَثِيرًا وَثَرْوَةً طَائِلَةً، بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا وَرِثَتْهُ عَنْ أَبَوَيْهَا.

وَقَدْ وَضَعَتْ كُلَّ ذَلِكَ الْمَالِ فِي التِّجَارَةِ فَرَبِحَتْ وَاغْتَنَتْ؛ وَأَضْحَتْ مِنْ أَثْرِيَاءِ أُمِّ الْقُرَى الْمَعْدُودِينَ. وَهِيَ مَعَ غِنَاهَا كَانَتْ سَيِّدَةً كَرِيمَةَ الْمَحْتِدِ، رَفِيعَةَ الْأَخْلَاقِ وَالسَّجَايَا، عَظِيمَةَ الشَّمَائِلِ.

وَكَمْ حَاوَلَ الْكَثِيرُونَ مِنَ السَّادَةِ وَالْعُظَمَاءِ، وَأَشْرَافِ «قُرَيْشٍ»، أَنْ يَقْتَرِنُوا بِهَا، فَكَانَتْ تَأْبَى، وَقَدْ رَضِيَتْ مِنْ حَيَاتِهَا وَقَنِعَتْ بِمَا هِيَ فِيهِ وَعَلَيْهِ.

وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ تِجَارَتُهَا رَائِجَةً، غَادِيَةً رَائِحَةً، كَانَتْ تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ لِيَعْمَلُوا عِنْدَهَا، قَيِّمِينَ عَلَى عُرُوضِهَا وَأَمْوَالِهَا، وَتَنْفَحُهُمْ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ أَجْرَ مَا يَعْمَلُونَ، وَعِوَضَ مَا يَقُومُونَ بِهِ مِنْ خِدْمَاتٍ.

وَكَانَ لَهَا غُلَامٌ اسْـمُهُ «مَيْسَرَةُ» هُوَ مَوْضِعُ ثِقَتِهَا وَتَقْدِيرِهَا، يُدِيرُ شُئُونَ أَمْوَالِهَا وَتِجَارَتِهَا حَسْبَمَا تُوَجِّهُهُ سَيِّدَتُهُ.

❊❊❊

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ...

بَيْنَمَا كَانَ «مَيْسَرَةُ» يَسْعَى بَيْنَ النَّاسِ بَاحِثًا عَنْ أَشْخَاصٍ يَقُومُونَ مَعَهُ بِالْعَمَلِ لِسَيِّدَتِهِ فِي رِحْلَةٍ جَدِيدَةٍ، الْتَقَى بِـ «الْأَمِينِ» ﷺ...

وَكَمْ كَانَتْ فَرْحَةُ «مَيْسَـرَةَ» عَظِيمَةً حِيـنَ قَبِلَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ.

وَانْطَلَقَـتِ الْقَافِلَةُ مِنْ «مَكَّةَ» بِاتِّجَاهِ الشَّـامِ، فِيهَـا الْجِمَالُ الْمُحَمَّلَةُ بِمُخْتَلِفِ أَنْـوَاعِ الْبِضَاعَةِ، وَالرِّجَـالُ الْأُمَنَاءُ الْمَسْـئُولُونَ، وَالْحَرَسُ، تَضْرِبُ فِي الْبَيْدَاءِ وَالْفَيَافِي. حَتَّى بَلَغَتْ غَايَتَهَا، فَبَاعَ النَّاسُ وَاشْـتَرَوْا، ثُمَّ عَادُوا، يَحْمِلُونَ الرِّبْحَ الْوَفِيرَ، وَعُرُوضًا جَدِيدَةً لِبَيْعِهَا فِي أَسْوَاقِ «مَكَّةَ».

وَدَخَلَ «مَيْسَـرَةُ» عَلَى سَـيِّدَتِهِ «خَدِيجَةَ» يُقَدِّمُ لَهَا حِسَابَاتِ الرِّحْلَةِ، وَهُوَ جَذْلَانُ فَرِحٌ، يَمْتَلِئُ نَشْوَةً وَاعْتِزَازًا...

وَبَدَتِ الدَّهْشَةُ عَلَى وَجْهِ السَّيِّدَةِ الشَّرِيفَةِ...

وَرَاحَتْ تَسْتَفْسِـرُ مِنْ غُلَامِهَا عَمَّا أَدْهَشَـهَا، لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الرِّحْلَةُ بِنَتَائِجِهَـا وَأَرْبَاحِهَا عَلَى غَيْرِ الْعَـادَةِ، وَتَفُوقُ بِكَثِيرٍ جِدًّا مَا سَـلَفَ مِنْ تِجَارَاتِهَا وَقَوَافِلِهَا، وَمُنْذُ سِـنِينَ بَعِيدَةٍ! فَمَا السِّرُّ فِي ذَلِكَ؟ وَمَا السَّبَبُ؟

وَهُنَا كَانَ لَا بُدَّ لِـ «مَيْسَرَةَ» أَنْ يُفِيضَ فِي الْحَدِيثِ وَالْكَلَامِ عَنْ «مُحَمَّدٍ» ـ الْأَمِينِ ـ الَّذِي كَانَ عُنْصُرَ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ، فَإِنَّهُ فِي حُسْنِ عَرْضِهِ، وَحُسْنِ مُسَاوَمَتِهِ، وَحُسْنِ تَفَاهُمِهِ مَعَ الْمُشْتَرِينَ، وَصِدْقِهِ... قَدْ جَعَلَ الْإِقْبَالَ عَلَى مَا يَحْمِلُونَ يَفُوقُ كُلَّ تَصَوُّرٍ...

هَذَا الْحَدِيثُ الشَّيِّقُ الْمُمْتِعُ الَّذِي تَحَدَّثَهُ «مَيْسَرَةُ» إِلَى سَيِّدَتِهِ «خَدِيجَةَ» قَدْ تَرَكَ فِي نَفْسِهَا وَوُجْدَانِهَا أَثَرًا عَمِيقًا، وَجَعَلَهَا تُفَكِّرُ كَثِيرًا فِي «الْأَمِينِ».. تُفَكِّرُ فِيهِ مِنْ خِلَالِ شَخْصِيَّتِهِ الْفَذَّةِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ فِي «قُرَيْشٍ».

إِنَّهُ شَخْصِيَّةٌ مُمَيَّزَةٌ حَقًّا.. فِي أَخْلَاقِهَا، وَفِي تَصَرُّفَاتِهَا، وَفِي سُمُوِّ شَمَائِلِهَا وَآدَابِهَا، وَفِي نَزْعَتِهَا عَنْ كُلِّ مَا يَشِينُ وَيُهِينُ، وَفِي تَعَالِيهَا عَنِ السَّفَاسِفِ.

لَقَدْ أَثْبَتَ «مُحَمَّدٌ» وُجُودَهُ بَيْنَ الْكُبَرَاءِ وَالسَّادَةِ، وَفَرَضَ ذَاتَهُ عَلَى مُجْتَمَعِهِ... رَغْمَ يُتْمِهِ وَرَغْمَ فَقْرِهِ. وَهُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ...

إِنَّ «الْأَمِينَ» يَنْأَى بِنَفْسِهِ وَعَقْلِهِ وَصَفَاءِ رُوحِهِ عَنْ أَوْثَانِ الْقَوْمِ وَأَصْنَامِهِمْ، وَآلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدُونَ، وَلَهَا يَتَزَلَّفُونَ.

وَرَأَتْ «خَدِيجَةُ» نَفْسَهَا بَعْدَ طُولِ التَّفْكِيرِ فِي «مُحَمَّدٍ» ـ الْأَمِينِ ـ وَشَخْصِيَّتِهِ وَخِلَالِهِ، أَنَّهَا مَشْدُودَةٌ إِلَيْهِ بِكُلِّ عَقْلِهَا وَمَشَاعِرِهَا وَأَحَاسِيسِهَا...

وَرَأَتْ أَنَّ زَوَاجَهَا مِنْهُ غَايَةُ الْغَايَاتِ وَأَقْصَى الْمُنَى...

فَعَمَدَتْ إِلَى التَّدْبِيرِ...

فَسَعَتْ إِلَى صَدِيقَةٍ لَهَا، وَصَارَحَتْهَا بِمَا تَشْعُرُ بِهِ نَحْوَ «مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ»، وَأَنَّهَا تَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهَا وَتَكُونَ لَهُ.

سَكَتَتِ الصَّدِيقَةُ بُرْهَةً، فَكَّرَتْ خِلَالَهَا...

ثُمَّ وَعَدَتْ «خَدِيجَةَ» بِأَنَّهَا سَوْفَ تَبْذُلُ قُصَارَى جَهْدِهَا فِي إِتْمَامِ ذَلِكَ الْأَمْرِ، وَهَوَّنَتْهُ عَلَيْهَا، مِمَّا جَعَلَ «خَدِيجَةَ» تَتَصَوَّرُ أَنَّ الْأَمِينَ ﷺ قَدْ أَصْبَحَ زَوْجًا لَهَا فِعْلًا، وَأَنَّهُمَا يُظِلُّهُمَا سَقْفٌ وَاحِدٌ.

العَرْضُ وَالْقَبُولُ

وَأَتَتِ الصَّدِيقَةُ، الْوَفِيَّةُ الْأَمِينَةُ الْمُخْلِصَةُ، «مُحَمَّدًا»... وَوَجَدَتِ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِمُفَاتَحَتِهِ فِي الْأَمْرِ وَمُصَارَحَتِهِ...

وَلَكِنْ.. بِطَرِيقَةٍ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الِاعْتِزَازِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَقَامِ وَمَرْكَزِ السَّيِّدَةِ «خَدِيجَةَ».

لَمْ تُصَرِّحِ الصَّدِيقَةُ بِاسْمِ «خَدِيجَةَ» وَلَمْ تَذْكُرْهَا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ؛ بَلْ حَدَّثَتْ «مُحَمَّدًا» ﷺ فِي أَمْرِ الزَّوَاجِ وَضَرُورَتِهِ، وَلِمَاذَا هُوَ حَتَّى الْآنَ لَمْ يَتَزَوَّجْ، وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمْرِ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ عَامًا؟!

فَاحْتَجَّ ﷺ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَؤُونَةً وَلَا مَالًا، وَلَا قُدْرَةً عَلَى الْإِنْفَاقِ.

عِنْدَئِذٍ قَالَتِ الصَّدِيقَةُ الْوَسِيطَةُ: بِأَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَكْفِيكَ كُلَّ ذَلِكَ، هُنَاكَ مَنْ يَمْلِكُ الْمَالَ وَالْجَمَالَ وَالسُّؤْدَدَ وَالشَّرَفَ وَالْحَسَبَ وَالنَّسَبَ؟!

كَانَتِ الصَّدِيقَةُ تُدْعَى: «نَفِيسَةَ بِنْتَ مُنْيَةَ»... وَكَانَتْ ذَكِيَّةً لَبِيبَةً أَرِيبَةً، لَهَا مَقَامُهَا عِنْدَ «خَدِيجَةَ»، وَلَهَا مَكَانَتُهَا عِنْدَ «مُحَمَّدٍ»، وَفِي مُجْتَمَعِ «مَكَّةَ» كُلِّهِ.

سَأَلَتْ «مُحَمَّدًا» فِيمَ عُزُوفُهُ عَنِ الزَّوَاجِ... وَعَنِ الدُّنْيَا... وَقَضَاؤُهُ عَلَى شَبَابِهِ بِالْحِرْمَانِ؟ وَهَلَّا سَكَنَ إِلَى زَوْجٍ تَحْنُو عَلَيْهِ وَتُؤْنِسُهُ وَتُزِيلُ وَحْشَتَهُ؟

وَكَانَ جَوَابُهُ:

- مَا بِيَدِي مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ.

وَكَانَ رَدُّ «نَفِيسَةَ»:

- فَإِنْ دُعِيتَ إِلَى الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالشَّرَفِ وَالْكَفَاءَةِ... أَلَا تُجِيبُ؟!

وَحِينَئِذٍ سَأَلَهَا عَمَّنْ تَعْنِي، فَأَجَابَتْ:

- «خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ».

وَنَزَلَ اسْمُهَا مِنْ سَمْعِهِ الشَّرِيفِ، وَمِنْ قَلْبِهِ الْكَبِيرِ، مَنْزِلَ الْعَاطِفَةِ الْجَيَّاشَةِ وَالْحُبِّ الْعَظِيمِ... وَالْأُمْنِيَّةِ.

فَطَلَبَ إِلَى «نَفِيسَةَ» ـ الصَّدِيقَةِ الْوَسِيطَةِ ـ أَنْ تَعْرِضَ الْأَمْرَ عَلَى «خَدِيجَةَ»، فَإِنْ وَافَقَتْ حَضَرَ هُوَ وَأَعْمَامُهُ لِلْخِطْبَةِ.

وَانْصَرَفَتْ «نَفِيسَــةُ بِنْتُ مُنْيَةَ» مِنْ عِنْدِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ، وَتَرَكَتْهُ مَشْغُولَ الْبَــالِ، يَرْنُو فِي رِقَّةٍ إِلَى طَيْفِ «خَدِيجَةَ بِنْــتِ خُوَيْلِدٍ»، وَقَدْ تَرَاءَتْ لَهُ فِي وَحْدَتِهِ طَلْقَةَ الْمُحَيَّا، بَاشَّــةَ الْأَسَارِيرِ، تَشِعُّ عَيْنَاهَا لُطْفًا وَبَهَاءً وَحُنُوًّا.

وَأَشْفَقَ أَنْ تَبْعُدُ بِهِ أَمَانِيهِ!!

فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ عَنْ «خَدِيجَةَ» أَنَّهَا رَدَّتْ أَشْــرَافَ «قُرَيْشٍ» وَأَغْنِيَاءَهَا، فَغَالَبَ نَفْسَهُ لِيَسْتَرِدَّهَا إِلَى وَاقِعِهِ، وَانْطَلَقَ يَسْعَى نَحْوَ «الْكَعْبَةِ».

وَفِي الطَّرِيقِ الْتَقَتْهُ كَاهِنَةٌ، فَاسْتَوْقَفَتْهُ سَائِلَةً:

ـ جِئْتَ خَاطِبًا يَا «مُحَمَّدُ»؟!

فَأَجَابَ ﷺ ـ غَيْرَ كَاذِبٍ ـ:

ـ كَلَّا...

فَتَأَمَّلَتْهُ بُرْهَةً، ثُمَّ هَزَّتْ رَأْسَهَا، وَأَرْدَفَتْ قَائِلَةً:

ـ وَلِمَ؟ فَوَاللهِ مَا فِي «قُرَيْشٍ» امْرَأَةٌ ـ وَإِنْ كَانَتْ «خَدِيجَةُ» ـ لَا تَرَاكَ كُفُؤًا لَهَا.

انْتَقَلَتْ «نَفِيسَةُ» إِلَى دَارِ «خَدِيجَةَ»، وَدَخَلَتْ عَلَيْهَا ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً، فَلَمَّا رَأَتْهَــا «خَدِيجَةُ» قَامَتْ إِلَيْهَــا مُرَحِّبَةً، وَقَدْ أَدْرَكَتْ أَنَّ الْوَسِــيطَةَ نَجَحَتْ فِي مَسْعَاهَا، وَأَنَّ «مُحَمَّدًا» قَدْ قَبِلَ الزَّوَاجَ مِنْهَا...

لِمَاذَا كُلُّ هَذِهِ اللَّهْفَةِ؟

كَانَتْ «خَدِيجَةُ» فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهَا، وَكَانَ إِحْسَاسُهَا بِتَقَدُّمِ السِّنِّ يُغَالِبُهَا بَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ، وَمَا كَانَتْ تَرُدُّ الرِّجَالَ الْخَاطِبِينَ إِلَّا لِأَنَّهَا تَعْرِفُ طَمَعَهُمْ فِي مَالِهَا وَمَرْكَزِهَا، لَيْسَ رَغْبَةً فِيهَا هِيَ.

وَكَانَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ يَصْغُرُهَا بِخَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا، وَفَارِقُ السِّنِّ هُوَ الَّذِي كَانَ يَشْغَلُ بَالَهَا، وَيَجْعَلُهَا مُتَلَهِّفَةً عَلَى مَعْرِفَةِ رَدِّهِ عَلَى الْعَرْضِ.

فَلَمَّا أَتَتْهَا صَدِيقَتُهَا «نَفِيسَةُ» تَحْمِلُ الْبُشْرَى... امْتَلَأَ قَلْبُهَا حُبُورًا وَسُرُورًا، وَكَافَأَتْ «نَفِيسَةَ».

وَهُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ...

كَانَتِ السَّيِّدَةُ «خَدِيجَةُ» بِحُكْمِ قَرَابَتِهَا مِنْ «وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ» الَّذِي كَانَ مِنْ مُتَحَنِّفِي الْجَاهِلِيَّةِ (الرَّافِضِينَ لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ)، وَالَّذِي قَدْ حَصَّلَ بَعْضَ عُلُومِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَاطَّلَعَ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ... وَمَالَ إِلَيْهَا حِينًا مِنَ الزَّمَنِ، وَكَانَ يَرَى فِي طُقُوسِ الْجَاهِلِيِّينَ وَعِبَادَتِهِمْ وَأَوْثَانِهِمْ مَا يُنْكِرُهُ عَلَيْهِمْ...

كَانَتْ تَسْمَعُ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ حَانَ زَمَانُ نَبِيٍّ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ مِنَ الْعَرَبِ.. وَكَانَتْ تَرْجُو وَتَأْمُلُ أَنْ يَكُونَ «مُحَمَّدًا»...

وَلَمْ تَكُ إِلَّا فَتْرَةً قَصِيرَةَ الْمَدَى بَيْنَ الْعَرْضِ وَالِاسْتِجَابَةِ، حَتَّى تَلَقَّى «مُحَمَّدٌ» ﷺ دَعْوَةَ «خَدِيجَةَ».

فَسَارَعَ إِلَيْهَا مُلَبِّيًا، وَفِي صُحْبَتِهِ عَمَّاهُ «أَبُو طَالِبٍ» وَ«حَمْزَةُ».

وَفِي دَارِ «خَدِيجَةَ» وَجَدُوا أَهْلَهَا وَقَوْمَهَا يَنْتَظِرُونَ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ هُيِّئَ لِإِتْمَامِ الزَّوَاجِ.

وَتَكَلَّمَ «أَبُو طَالِبٍ» خَاطِبًا وَخَطِيبًا فَقَالَ:

ـ «الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَزَرْعِ إِسْمَاعِيلَ، وَجَعَلَنَا حَضِينَةَ بَيْتِهِ، وَسُوَّاسَ حَرَمِهِ، وَجَعَلَ لَنَا بَيْتًا مَحْجُوبًا، وَحَرَمًا آمِنًا، وَجَعَلَنَا الْحُكَّامَ عَلَى النَّاسِ.

أَمَّا بَعْدُ.. فَإِنَّ ابْنَ أَخِي «مُحَمَّدًا» مِمَّنْ لَا يُوزَنُ بِهِ فَتًى مِنْ «قُرَيْشٍ» إِلَّا رَجَحَ بِهِ شَرَفًا وَنُبْلًا، وَفَضْلًا وَعَقْلًا، وَإِنْ كَانَ فِي الْمَالِ قِلًّا... فَإِنَّمَا الْمَالُ ظِلٌّ زَائِلٌ وَعَارِيَةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ...

وَلَهُ فِي «خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ» رَغْبَةٌ، وَلَهَا فِيهِ مِثْلُ ذَلِكَ».

فَأَثْنَى عَلَى مَقَالَةِ «أَبِي طَالِبٍ» عَمُّ «خَدِيجَةَ» ـ «عَمْرُو بْنُ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى» ـ وَقَبِلَ الْعَرْضَ، وَزَوَّجَهَا بِوِلَايَتِهِ عَنْهَا، مِنْ «مُحَمَّدٍ» ﷺ عَلَى صَدَاقٍ قَدْرُهُ عِشْرُونَ بَكْرَةً.

وَالْبَكْرَةُ ـ يَا بُنَيَّ الْعَزِيزَ ـ مِقْدَارٌ مِنَ الْمَالِ، بِالدَّرَاهِمِ أَوِ الدَّنَانِيرِ ـ لَا يُمْكِنُ لَنَا الْيَوْمَ تَقْدِيرُهُ، إِنَّمَا نَأْخُذُ الْمَوْضُوعَ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهُ مَهْرٌ مُتَعَارَفٌ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَالْأَزْمَانِ.

وَلَمَّا انْتَهَى الْعَقْدُ...

نُحِرَتِ الذَّبَائِحُ، وَدُقَّتِ الدُّفُوفُ، وَفُتِحَتْ دَارُ «خَدِيجَةَ» لِلْأَهْلِ وَالْأَصْدِقَاءِ.

وَإِذَا بَيْنَ الْحَاضِرِينَ «حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ» ـ مُرْضِعَتُهُ ـ ﷺ وَأُمُّهُ مِنَ الرَّضَاعِ، قَدْ جَاءَتْ مِنْ دِيَارِهَا فِي «بَنِي سَعْدٍ» لِتَشْهَدَ عُرْسَ وَلَدِهَا الَّذِي أَرْضَعَتْهُ صَغِيرًا... وَقَدْ حَلَّتْ بَرَكَتُهُ عَلَيْهَا...

وَلِتَعُودَ مِنَ الْغَدَاةِ وَمَعَهَا أَرْبَعُونَ رَأْسًا مِنَ الْغَنَمِ؛ هِبَةً مِنَ الْعَرُوسِ الْكَرِيمَةِ.

وَتَنَدَّتْ عَيْنَا «مُحَمَّدٍ» ﷺ وَهُوَ يَفْتَقِدُ أُمَّهُ «آمِنَةَ»، فَإِذَا يَدٌ لَطِيفَةٌ رَقِيقَةٌ تَأْسُو الْجُرْحَ الْقَدِيمَ، فِي حَنَانٍ غَامِرٍ، وَإِذَا بِهِ ﷺ يَجِدُ فِي «خَدِيجَةَ» الزَّوْجَ وَالْأُمَّ، وَعِوَضًا جَمِيلًا طَيِّبًا عَمَّا قَاسَاهُ مِنْ حِرْمَانٍ طَوِيلٍ.

❊❊❊

وَكَانَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا وَتَدْبِيرًا مِنَ اللهِ تَعَالَى... جَلَّ جَلَالُهُ.

الْأَمِيـنُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القَلَمُ: 4).

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي».

وَقَالَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

«كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ».

❊❊❊

وَلْيَسْمَحْ لِيَ الْقَارِئُ الْعَزِيزُ أَنْ نَعُودَ إِلَى الْوَرَاءِ قَلِيلًا؛ لِنَذْكُرَ مَالَا يَنْبَغِي إِغْفَالُهُ مِنْ فَتْرَةِ شَبَابِهِ ﷺ...

قَارَبَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ الْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ...

قَارَبَهَا بَعْدَ أَنْ عَرَكَ الْحَيَاةَ، وَأَبْلَى فِي مَيْدَانِ الْعَمَلِ، وَأَصْبَحَ غَيْرَ كَلٍّ عَلَى عَمِّهِ «أَبِي طَالِبٍ»، وَمَضَى فِي دُرُوبِ الْكَسْبِ سَاعِيًا، فِي عِفَّةٍ وَاتِّزَانٍ وَوَقَارٍ وَخُلُقٍ كَرِيمٍ، وَسُمْعَةٍ طَيِّبَةٍ، وَصِيتٍ حَسَنٍ، وَذِكْرٍ مَشْفُوعٍ بِالِاحْتِرَامِ عَلَى كُلِّ شَفَةٍ وَلِسَانٍ.

وَلَقَدْ بَاشَـرَ ﷺ أَلْـوَانَ الْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّـةِ وَالسِّيَاسِـيَّةِ لِقَوْمِهِ وَأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ، دُونَمَا انْغِمَاسٍ فِي حَمْأَةِ الْجَاهِلِيَّةِ.

فَشَهِدَ «حَرْبَ الْفِجَارِ» وَشَارَكَ فِيهَا، وَقِصَّةُ ذَلِكَ:

أَنَّ حَيَّيْنِ مِنَ الْعَرَبِ هُمَا «قُرَيْشٌ» وَ«قَيْسٌ» اخْتَلَفَا عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، فَبَدَتْ بَيْنَهُمَا الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَأَضْمَرَ كُلٌّ مِنْهُمَا الشَّرَّ لِلْآخَرِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ أَحَدُ زُعَمَاءِ الْحَيَّيْنِ يَتَلَاحى مَعَ زَعِيمٍ آخَرَ وَيَتَلَاسَنُ، اشْتَدَّا فِي أَقْوَالِهِمَا، وَثَـارَتْ فِيهِمَا حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ فَانْتَضَيَا سَـيْفَيْهِمَا وَتَبَارَزَا، فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ.

وَانْتَصَرَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِصَاحِبِهَا، فَحَشَدُوا حُشُودَهُمْ وَحَمَلُوا جُمُوعَهُمْ، وَدَخَلُوا فِي حَرْبٍ طَاحِنَةٍ اسْـتَمَرَّتْ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ، كَانَ النَّصْرُ يَتَرَاوَحُ فِيهَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ دُونَمَا حَسْمٍ أَوْ تَقْرِيرٍ.

وَشَـهِدَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الْمَشَـاهِدَ؛ دِفَاعًا عَنِ الْحَقِّ الْمَهْضُومِ، وَالْعَدْلِ الذَّبِيحِ، وَوَقَفَ إِلَى جَانِبِ أَعْمَامِـهِ يَنْبُلُ عَنْهُمْ، أَيْ يَحْمِيهِمْ مِنَ السِّهَامِ وَالنِّبَالِ.

وَلَقَدْ سُـمِّيَتْ تِلْكَ الْحَرْبُ «حَرْبَ الْفِجَـارِ»؛ لِأَنَّ الْمُعْتَدِينَ فَجَرُوا فِيهَا، وَلَمْ يُرَاعُوا قَدَاسَـةَ الْأَشْـهُرِ الْحُرُمِ الَّتِي كَانَ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَحْتَرِمُونَهَا وَيُجِلُّونَهَا، وَلَا يَسْفِكُونَ فِيهَا دَمًا...

وَكَذَلِكَ يَمْنَعُونَ الْأَذَى عَمَّنِ احْتَمَى بِالْحَرَمِ، بِبَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، وَلَوْ كَانَ جَانِيًا، مُرْتَكِبًا دَمًا وَإِثْمًا.

فَمَا بَالُكَ بِالْمُعْتَدِينَ فِي «حَرْبِ الْفِجَارِ»، وَقَدِ اسْتَطَاعُوا فِي إِحْدَى هَجَمَاتِهِمْ أَنْ يَدْخُلُوا حَتَّى يَبْلُغُوا مُنْتَصَفَ الْحَرَمِ، وَهُمْ يَكْتَسِحُونَ بِقَسْوَةٍ وَجَبَرُوتٍ عَدُوَّهُمْ؟!

فَقَطْ، هَذِهِ هِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي شَهِدَهَا وَشَارَكَ فِيهَا ﷺ.

وَلَكِنْ هُنَاكَ يَوْمٌ يَعْتَزُّ بِهِ وَيَفْخَرُ، شَهِدَهُ وَكَانَ مِنْ بَيْنِ حُضُورِهِ، وَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهُ دُعِيَ إِلَى مِثْلِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَفَعَلَ.

هَذَا الْيَوْمُ هُوَ «يَوْمُ الْفُضُولِ» أَوْ «يَوْمُ الْمُطَيَّبِينَ».

وَقِصَّتُهُ...

أَنَّ رَجُلًا تَاجِرًا مِنْ «زَبِيدَ» مِنْ أَهْلِ «الْيَمَنِ»، حَدَثَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ «الْعَاصِ ابْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ» أَحَدِ سَادَةِ قُرَيْشٍ، خِلَافٌ غَمَطَ فِيهِ «الْعَاصُ» حَقَّ الزَّبِيدِيِّ؛ فَقَامَ الرَّجُلُ عِنْدَ جَبَلٍ مِنْ جِبَالِ «مَكَّةَ»، وَرَفَعَ عَقِيرَتَهُ (صَوْتَهُ) بِالصُّرَاخِ وَالنِّدَاءِ، مُسْتَنْجِدًا بِأَهْلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَاجْتَمَعُوا عَلَى صَوْتِهِ، وَاسْتَفْسَرُوا مِنْهُ عَنْ سَبَبِ نِدَائِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ «الْعَاصِ»، فَبَادَرَ السَّادَةُ مِنْهُمْ إِلَى «الْعَاصِ» وَكَلَّمُوهُ فِي الْأَمْرِ، وَرَدُّوا عَلَى الرَّجُلِ الزَّبِيدِيِّ حَقَّهُ...

وَإِلَى هُنَا... الْقِصَّةُ عَادِيَّةٌ بَسِيطَةٌ، وَلَكِنَّ الْأَحْسَنَ وَالْأَجْمَلَ وَالْأَرْوَعَ مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي شَهِدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَحَدَّثَنَا عَنْهُ بِإِعْجَابٍ وَإِكْبَارٍ.

فَقَدِ اجْتَمَعَ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْأَشْرَافِ أُولِي الْحَزْمِ وَالْعَزْمِ وَالرَّأْيِ مِنْ قُرَيْشٍ فِي دَارِ «عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ»، وَهُنَاكَ تَعَاهَدُوا وَتَحَالَفُوا ـ أَمَامَ الْمَلَإِ مِنَ الْحُضُورِ ـ أَنْ يَرُدُّوا الْمَظَالِمَ، وَلَا يُعِينُوا ظَالِمًا، وَأَنْ يُنْصِفُوا كُلَّ مَظْلُومٍ.

ثُمَّ غَمَسُوا أَيْدِيَهُمْ بِالطِّيبِ وَخَتَمُوا بِهَا عَلَى الْمُعَاهَدَةِ، وَعَلَى جُدْرَانِ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ «الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» ـ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدَ السَّاعِينَ الْعَامِلِينَ فِي ذَلِكَ الْحِلْفِ، الَّذِي دُعِيَ فِيمَا بَعْدُ: «حِلْفَ الْفُضُولِ» أَوْ «حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ».

ذَلِكُمْ ـ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ ـ حَدَثَانِ هَامَّانِ فِي حَيَاةِ قُرَيْشٍ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ، شَارَكَ فِيهِمَا الْمُصْطَفَى ﷺ، وَحَدَّثَنَا بِهِمَا فِيمَا بَعْدُ.

❊❊❊

وَنَعُودُ الْآنَ ـ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ ـ إِلَى الزَّوَاجِ الْمَيْمُونِ الْمُبَارَكِ؛ زَوَاجِ «مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ» مِنْ «خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ»؛ فَقَدْ كَانَ الزَّوَاجُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ زَوَاجًا مِثَالِيًّا، زَوَاجَ عَقْلٍ رَاجِحٍ إِلَى عَقْلٍ رَاجِحٍ، وَكَمَالِ خُلُقٍ إِلَى مِثْلِهِ، وَحَسَبٍ شَرِيفٍ وَصِيتٍ طَيِّبٍ إِلَى نَظِيرِهِ.

وَقَامَ ﷺ عَلَى شُؤونِ الْأُسْـرَةِ خَيْرَ قِيَامٍ، وَأَصْبَحَ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ الْقَيِّمَ عَـلَى ابْنَتَيْ «خَدِيجَةَ» مِنْ زَوَاجِهَا السَّـابِقِ، كَمَا أَضْحَى مُسْـتَرِيحًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَادِّيَّةِ الْمَالِيَّةِ، غَيْرَ مُضْطَرٍّ إِلَى السَّـعْيِ وَالْجُهْدِ؛ إِذْ كَانَتْ أَمْوَالُ «خَدِيجَةَ» الْكَثِيرَةُ تُغْنِيهِ عَنِ السَّعْيِ.

وَوَكَلَتْ إِلَيْهِ أَمْرَ الْإِشْـرَافِ التَّامِّ عَلَى تِجَارَتِهَا وَأَمْوَالِهَا، فَأَدَّى وَاجِبَ الْأَمَانَةِ خَيْرَ الْأَدَاءِ، فَنَمَتْ أَكْثَرَ، وَتَضَاعَفَتْ وَأَثْمَرَتْ.

وَخِلَالَ عَشْرِ سَـنَوَاتٍ بَعْدَ زَوَاجِهِ مِنْ «خَدِيجَةَ» وَلَدَتْ لَهُ: (الْقَاسِمَ وَالطَّيِّبَ وَالظَّاهِرَ مِنَ الذُّكُورِ وَجَمِيعُهُـمْ مَاتُوا صِغَارًا، ثُمَّ زَيْنَبَ وَرُقَيَّةَ وَأُمَّ كُلْثُومٍ...).

وَفِي مَوْتِ الذُّكُورِ بِالتَّتَابُعِ كَانَ «الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ السَّـهْمِيُّ» يَتَحَدَّثُ وَيُعَيِّرُ «مُحَمَّدًا» ﷺ وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَالنُّبُوَّةِ، حَسَدًا وَحِقْدًا، فَكَانَ يَقُولُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَنَّهُ أَبْتَرُ، لَا عَقِبَ لَهُ.

وَلَقَدْ رَدَّ اللهُ ـ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ عَلَى «الْعَاصِ» وَأَمْثَالِهِ مِمَّنْ كَانُوا أَعْدَاءَ أَلِدَّاءَ لِلدَّعْوَةِ وَصَاحِبِهَا، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ (سُورَةُ الكَوْثَر).

وَكَانَتْ «خَدِيجَـةُ» بِالْإِضَافَةِ إِلَى إِعْجَابِهَا بِأَخْلَاقِ الْمُصْطَفَى ﷺ مِنْ أَمَانَةٍ وَصِدْقٍ وَاسْـتِقَامَةٍ، تَعْجَبُ أَيْضًا مِنْ أُمُورٍ لَا تَدْرِي لَهَا تَفْسِيرًا، وَلَا تَعْرِفُ لَهَا مَعْنًى.

وَكَانَ لَهَا ـ كَمَا عَرَفْنَا مِنْ قَبْلُ ـ ابْنُ عَمٍّ يُدْعَى «وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ» قَدْ عَزَفَ عَنْ عَادَاتِ الْجَاهِلِيِّينَ وَتَقَالِيدِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ، تَعَلَّمَ وَتَضَلَّعَ فِي الْعِلْمِ، وَاطَّلَعَ عَلَى كُتُبِ السَّالِفِينَ وَالْقُدَمَاءِ، خُصُوصًا أَهْلَ الدِّيَانَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ: الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، ثُمَّ تَنَصَّرَ.

وَكَانَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَمًا وَمَرْجِعًا، يَسْتَفْتُونَهُ، وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْ آرَائِهِ وَأَقْوَالِهِ وَبَصِيرَتِهِ بِالْأُمُورِ وَالْقَضَايَا.

فَأَحَبَّتْ «خَدِيجَةُ» أَنْ تَعْلَمَ تَفْسِيرًا لِمَا تَرَاهُ مِنْ بَعْضِ أَحْوَالِ زَوْجِهَا الْعَظِيمِ، فَأَتَتْ إِلَى «وَرَقَةَ» ابْنِ عَمِّهَا وَحَدَّثَتْهُ عَنْ كُلِّ مَا يُثِيرُ تَسَاؤُلَاتِهَا، فَأَصْغَى إِلَيْهَا «وَرَقَةُ» إِصْغَاءً تَامًّا، بَلْ كَانَ يَسْتَزِيدُهَا فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ فَتُفِيضُ فِي الْحَدِيثِ، وَأَخِيرًا قَالَ لَهَا:

ـ لَئِنْ كَانَ هَذَا حَقًّا يَا «خَدِيجَةُ»... إِنَّ «مُحَمَّدًا» لَنَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ كَائِنٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ نَبِيٌّ يُنْتَظَرُ؛ هَذَا زَمَانُهُ.

فَانْصَرَفَتْ «خَدِيجَةُ» مِنْ عِنْدِ «وَرَقَةَ»، وَبَيْنَ جَنْبَيْهَا فُؤَادٌ ازْدَادَ حُبًّا وَتَعَلُّقًا وَإِعْجَابًا بِالزَّوْجِ الْكَرِيمِ.

وَيَبْدُو أَنَّ «خَدِيجَةَ» قَدْ تَوَقَّفَتْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ عَنْ لِقَاءِ «وَرَقَةَ»، وَمُحَادَثَتِهِ فِي أُمُورٍ جَدِيدَةٍ وَعَلَامَاتٍ وَإِشَارَاتٍ كَانَتْ تَتَوَالَى عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ كَمَا يَبْدُو أَنَّ «وَرَقَةَ» كَانَ يَتَمَنَّى التَّعْجِيلَ فِي ظُهُورِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ؛ لِيَكُونَ وَاحِدًا مِنَ الَّذِينَ يُؤَيِّدُونَهُ وَيَنْصُرُونَهُ وَيَتَّبِعُونَهُ.

وَنَسْتَدِلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ قَصَائِدَ وَأَشْعَارٍ كَثِيرَةٍ قَالَهَا «وَرَقَةُ»، وَيَكْفِينَا هُنَا أَنْ نُورِدَ وَاحِدَةً مِنْهَا، فَفِي ذَلِكَ مَا يَفِي بِالْغَرَضِ.

قَالَ «وَرَقَةُ»:

لَجَجْتُ، وَكُنْتُ فِي الذِّكْرَى لَجُوجَا
لِهَمٍّ طَالَمَا بَعَثَ النَّشِيجَا

وَوَصْفٍ مِنْ «خَدِيجَةَ» بَعْدَ وَصْفٍ
فَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يَا «خَدِيجَا»

بِبَطْنِ الْمَكَّتَيْنِ عَلَى رَجَائِي
حَدِيثُكِ أَنْ أَرَى مِنْهُ خُرُوجَا

بِمَا خَبَّرْتِنَا مِنْ قَوْلِ قِسٍّ
مِنَ الرُّهْبَانِ أَكْرَهُ أَنْ يَعُوجَا

بِأَنَّ «مُحَمَّدًا» سَيَسُودُ قَوْمًا
وَيَخْصِمُ مَنْ يَكُونُ لَهُ حَجِيجَا

وَيَظْهَرُ فِي الْبِلَادِ ضِيَاءُ نُورٍ
يَقُومُ بِهِ الْبَرِيَّةُ أَنْ تَمُوجَا

فَيَلْقَى مَنْ يُحَارِبُهُ خَسَارًا
وَيَلْقَى مَنْ يُسَالِمُهُ فُلُوجَا

فَيَا لَيْتَنِي إِذَا مَا كَانَ ذَاكُمْ
شَهِدْتُ وَكُنْتُ أَوَّلَهُمْ وُلُوجَا

وُلُوجًا فِي الَّذِي كَرِهَتْ قُرَيْشٌ
وَلَوْ عَجَّتْ بِمَكَّتِهَا عَجِيجَا
أُرَجِّي بِالَّذِي كَرِهُوا جَمِيعًا
إِلَى ذِي الْعَرْشِ إِنْ سَفَلُوا عُرُوجَا
وَهَلْ أَمْرُ السَّفَالَةِ غَيْرُ كُفْرٍ
بِمَنْ يَخْتَارُ مَنْ سَمَكَ الْبُرُوجَا
فَإِنْ يَبْقُوا وَأَبْقَ تَكُنْ أُمُورٌ
يَضِجُّ الْكَافِرُونَ لَهَا ضَجِيجَا
وَإِنْ أَهْلِكْ فَكُلُّ فَتًى سَيَلْقَى
مِنَ الْأَقْدَارِ مَتْلَفَهُ خُرُوجَا

❊❊❊

وَكَانَتْ ظُرُوفُ وَنَوْعِيَّةُ حَيَاتِهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْآوِنَةِ تَتَوَزَّعُ بَيْنَ أَطْرَافٍ ثَلَاثَةٍ: حَيَاتِهِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ مَعَ النَّاسِ، وَحَيَاتِهِ الْعَائِلِيَّةِ فِي بَيْتِهِ، وَخَلَوَاتِهِ...

أَمَّا حَيَاتُهُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ مَعَ النَّاسِ فَقَدْ كَانَ طَابَعُهَا الْعَامُّ الْخُلُقَ الْعَظِيمَ، حَتَّى إِنَّهُ ﷺ عُرِفَ وَاشْتُهِرَ بَيْنَ الْجَمِيعِ بِلَقَبِ «الْأَمِينِ»؛ وَقَلِيلًا مَا كَانَ مَعَارِفُهُ وَأَهْلُ «مَكَّةَ» جَمِيعًا يُنَادُونَهُ بِاسْمِهِ «مُحَمَّدٍ»، فَقَدْ غَلَبَ اللَّقَبُ عَلَى الِاسْمِ، فَتَرَاهُمْ يَقُولُونَ: جَاءَ الْأَمِينُ، وَذَهَبَ الْأَمِينُ، وَهَذَا هُوَ الْأَمِينُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ.

وَأَيْضًا...

فَقَــدْ كَانَتْ لَهُ صَدَاقَاتٌ حَمِيمَةٌ مَعَ نَفَرٍ مِنَ النَّــاسِ أَمْثَالِ: «الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ» وَ«أَبِي سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» وَ«عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ» وَغَيْرِهِمْ... وَسَيَكُونُ فِي مُسْــتَقْبَلِ الْأَيَّامِ لِكُلٍّ مِنْ هَؤُلَاءِ قِصَّةٌ أَوْ قِصَصٌ مَعَهُ ﷺ.

أَمَّا مُعْتَقَدُ الْقَــوْمِ وَإِقْبَالُهُمْ عَلَى تَقْدِيسِ الْأَوْثَــانِ وَالْأَصْنَامِ، فَقَدْ كَانَ بِالنِّسْــبَةِ لَهُ أَمْرًا غَرِيبًا مُسْــتَهْجَنًا، وَلَوْ أَنَّهُ لَمْ يَتَحَدَّثْ بِذَلِكَ أَوْ يُسَــفِّهُهُ وَيُحَقِّــرُهُ قَبْلَ النُّبُــوَّةِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَمُــرُّ بِهَا جَمِيعًا مُرُورًا فِيهِ اسْــتِخْفَافٌ وَازْدِرَاءٌ، وَتَعَجُّــبٌ مِنْ حُلُومِ (عُقُولِ) النَّاسِ كَيْــفَ يَعْبُدُونَ وَيُعَظِّمُونَ حَجَرًا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَشْفَعُ، لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.

أَمَّــا حَيَاتُهُ الْعَائِلِيَّةُ، فَقَدْ كَانَ ﷺ نِعْمَ الزَّوْجُ الصَّالِحُ لِلْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ؛ مَا رُئِيَ عَابِسًا قَطُّ، وَلَا ثَارَ أَوْ غَضِبَ لِأَمْرٍ أَبَدًا، مَا صَخِبَ وَلَا عَلَا صَوْتُهُ، أَوْ تَفَوَّهَ بِعِبَارَةٍ أَوْ كَلِمَةٍ فِيهَا إِيذَاءٌ لِشُــعُورِ الزَّوْجَةِ، أَوْ مَسٌّ بِكَرَامَتِهَا.

أَمَّا شَخْصِيَّةُ الْأَبِ فَقَدْ كَانَتْ شَخْصِيَّةً مُثْلَى، وَقُدْوَةً خَيْرَ قُدْوَةٍ، يُرَاعِي الْبَنَاتِ وَيَرْعَاهُنَّ، وَيُدَاعِبُهُنَّ وَيُنَاجِيهُــنَّ، وَيُغْدِقُ عَلَيْهِنَّ مِنْ فَيْضِ حُبِّهِ وَحَنَانِــهِ وَعَطْفِهِ، لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ بَنَاتِهِ مِــنْ «خَدِيجَةَ»: «رُقَيَّةَ»، وَ«زَيْنَبَ» وَ«أُمِّ كُلْثُومٍ» وَبَيْنَ أَبْنَائِهَا مِنْ زَوَاجِهَا السَّابِقِ.

❊❊❊

ثُمَّ إِنَّ «خَدِيجَةَ» وَهَبَتْهُ حِينَ زَوَاجِهِ مِنْهَا رَقِيقًا كَانَتْ تَمْلِكُهُ هُوَ «زَيْدُ ابْنُ حَارِثَةَ»، فَلَمْ يُعَامِلْهُ ﷺ إِلَّا مُعَامَلَةَ الْأَبِ لِابْنِهِ، وَذَلِكَ عَلَى غَيْرِ عَادَةِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِينَ كَانُوا يَقْسُونَ عَلَى عَبِيدِهِمْ وَأَرِقَّائِهِمْ، وَيُؤْذُونَهُمْ فِي نُفُوسِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ.

وَكَانَ ﷺ بَرًّا بِذَوِي قَرَابَتِهِ؛ أَعْمَامِهِ وَعَمَّاتِهِ، يَصِلُهُمْ وَيَزُورُهُمْ، يُجِلُّ كَبِيرَهُمْ وَيَحْتَرِمُ صَغِيرَهُمْ، خُصُوصًا «أَبَا طَالِبٍ» عَمَّهُ الَّذِي كَفَلَهُ وَرَعَاهُ وَحَدَبَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِ جَدِّهِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

وَمِمَّا يُرْوَى فِي هَذَا الصَّدَدِ أَنَّهُ ﷺ وَفَاءً مِنْهُ لِعَمِّهِ «أَبِي طَالِبٍ» قَدْ تَحَدَّثَ إِلَى عَمِّهِ «حَمْزَةَ»، وَشُعُورُ الْأَسَى بَادٍ فِي عَيْنَيْهِ؛ شَفَقَةً عَلَى عَمِّهِ مِنْ كَثْرَةِ الْعِيَالِ وَقِلَّةِ الْمَؤُونَةِ، وَطَلَبَ إِلَى عَمِّهِ «حَمْزَةَ» أَنْ يَضْطَلِعَ هُوَ بِعِبْءِ تَرْبِيَةِ وَاحِدٍ مِنْ أَبْنَاءِ «أَبِي طَالِبٍ»، وَيَتَحَمَّلَ «حَمْزَةُ» تَرْبِيَةَ وَاحِدٍ آخَرَ، فَكَانَ «عَلِيٌّ» مِنْ نَصِيبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ «جَعْفَرٌ» مِنْ نَصِيبِ «حَمْزَةَ».

❊❊❊

أَمَّا خَلَوَاتُهُ ﷺ فَحَدِّثْ عَنْهَا وَلَا حَرَجَ...

كَانَ يَخْلُو ﷺ إِلَى نَفْسِهِ فِي مَوَاسِمَ مُعَيَّنَةٍ، بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ يَتَفَكَّرُ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِي نِظَامِ الْكَوْنِ، وَمَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ فَسَادٍ وَشُرُورٍ وَآثَامٍ.

وَلَقَدْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ تَدْبِيرًا مِنَ الْبَارِي ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَتَمْهِيدًا لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، وَحَدَثٍ كَبِيرٍ، هُوَ أَعْظَمُ الْأَيَّامِ عَلَى الدَّهْرِ، وَأَكْبَرُ أَحْدَاثِ الزَّمَنِ، يَوْمُ بَعْثَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ.

وَقَبْلَ الْبَعْثَةِ بِخَمْسِ سَنَوَاتٍ حَدَثَ فِي «مَكَّةَ» حَدَثٌ كَبِيرٌ، كَانَ لِـ «مُحَمَّدٍ» ﷺ الْيَدُ الطُّولَى فِيهِ، وَالْأَثَرُ الْخَيِّرُ عَلَى قُرَيْشٍ، حَفِظَتْ يَدُهُ الشَّرِيفَةُ يَوْمَهَا دِمَاءَ النَّاسِ، وَحَسَمَتْ نِزَاعَهُمْ.

الْيَدُ الشَّرِيفَةُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: 96، 97).

... وَأَسْرَعَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ، يَنْسِلُونَ نَحْوَ «الْكَعْبَةِ»، وَالْأَصْوَاتُ تَعْلُو، وَالضَّجِيجُ يَمْلَأُ الْمَكَانَ، وَاللَّهَبُ يَزْدَادُ اشْتِعَالًا، وَالنَّارُ تَتَعَالَى أَلْسِنَتُهَا .

ثُمَّ حَاوَلُوا جَهْدَ طَاقَتِهِمْ إِطْفَاءَ هَذَا الْحَرِيقِ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى، فَقَدْ أَتَتِ النِّيرَانُ عَلَى كِسَائِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتَصَدَّعَتْ جُدْرَانُهَا، وَسَقَطَ سَقْفُهَا، وَانْزَاحَتْ بَعْضُ حِجَارَتِهَا عَنْ مَكَانِهَا!

وَقَفُوا جَمِيعًا مَبْهُوتِينَ مُتَحَيِّرِينَ، وَقَدْ هَدَأَ صَخَبُهُمْ، وَضَلَّ غَضَبُهُمْ وَغَيْظُهُمْ وَسَطَ الدُّخَانِ الَّذِي بَدَأَ يَخْفُتُ وَيَخِفُّ، وَلَمْ تَعُدْ تَسْمَعُ مِنْهُمْ سِوَى هَمْهَمَاتٍ وَهَمَسَاتٍ.

وَكَانَتْ أَكْثَرَ الْحَاضِرِينَ جَزَعًا وَرُعْبًا امْرَأَةٌ.

هَذِهِ الْمَرْأَةُ هِيَ الَّتِي كَانَتِ السَّبَبَ فِي الْحَرِيقِ الْهَائِلِ الَّذِي أَصَابَ «الْكَعْبَةَ»، رَمْزَ عِزَّتِهِمْ وَفَخَارِهِمْ وَمَجْدِهِمْ عَلَى كُلِّ الْعَرَبِ.

لَقَدْ أَرَادَتْ أَنْ تُجَمِّرَ، فَأَشْعَلَتِ النَّارَ قَرِيبًا مِنَ «الْكَعْبَةِ»، فَطَارَتْ شَرَارَاتٌ عَلِقَتْ بِأَسْتَارِهَا، فَاشْتَعَلَتْ بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ، وَلَمْ تَسْتَطِعِ الْأَيْدِي الْقَلِيلَةُ أَنْ تُكَافِحَ النِّيرَانَ، وَحِينَ انْطَلَقَتْ أَصْوَاتُ الِاسْتِغَاثَةِ، وَحَضَرَ النَّاسُ، كَانَتِ النَّارُ قَدْ فَعَلَتْ فِعْلَهَا، وَأَصْبَحَتِ «الْكَعْبَةُ» بِنَاءً مُتَدَاعِيًا بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى التَّرْمِيمِ وَالْإِصْلَاحِ.

وَكَانَ فِي «مَكَّةَ» نَجَّارٌ نَصْرَانِيٌّ مَاهِرٌ فِي الصَّنْعَةِ، فَلَمَّا أَرَادُوهُ فِي الْعَمَلِ، طَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُوَافُوهُ بِالْخَشَبِ اللَّازِمِ لِبِنَاءِ السَّقْفِ، فَتَدَارَسَ السَّادَةُ مِنْ قُرَيْشٍ هَذِهِ الْمُشْكِلَةَ: مِنْ أَيْنَ لَهُمْ بِالْخَشَبِ وَمَا فِي «مَكَّةَ» كُلِّهَا قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ؟!

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي بَحْثٍ وَتَنْقِيبٍ، جَاءَهُمْ مَنْ يُخْبِرُهُمْ بِأَنَّ سَفِينَةً مُحَمَّلَةً بِكَثِيرٍ مِنَ الْبِضَاعَةِ وَعُرُوضِ التِّجَارَةِ قَدْ جَنَحَتْ، وَأَلْقَتْ بِهَا الْأَنْوَاءُ عَلَى سَاحِلِ «جُدَّةَ»...

فَهَبُّوا سِـــرَاعًا وَكَوَّنُوا فَرِيقًا مِنْ بَيْنِهِمْ؛ لِيَذْهَبَ عَلَى الْفَوْرِ إِلَى «جُدَّةَ»، وَيَأْتِيَ بِالْأَخْشَـــابِ اللَّازِمَةِ مِنْ بَقَايَا السَّفِينَةِ، فَهَذَا رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ.

وَفِي خِلَالِ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ كَانَتِ الْجِمَالُ تَحْمِلُ الْكَثِيرَ مِنَ الْخَشَـــبِ، ثُمَّ تَنْقُلُهُ إِلَى «مَكَّةَ»، حَيْثُ يَبْدَأُ الْإِعْدَادُ لِإِصْلَاحِ «الْكَعْبَةِ».

وَشَمَّرَ النَّاسُ عَنْ سَـــوَاعِدِهِمْ مَدْفُوعِينَ بِحَمِيَّتِهِمُ الدِّينِيَّةِ، وَتُحَفِّزُهُمْ رَغْبَتُهُمْ فِي إِعْمَارِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، رَمْزِ مَكَانَتِهِمُ السَّـــامِيَةِ بَيْنَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ جَمِيعًا.

وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ هَدْمِ الْجُدْرَانِ حَتَّى الْأَسَاسِ!!

وَهُنَا تَوَقَّفَ الْقَوْمُ عَنْ مُبَاشَـــرَةِ الْعَمَلِ، فَقَدْ كَانَتْ تُدَاخِلُ نُفُوسَـــهُمْ وَقُلُوبَهُمْ خَشْيَةٌ وَرَهْبَةٌ، كَيْفَ يَنْقُضُونَ بِنَاءً مُقَدَّسًا؟!

كَيْفَ يَضْرِبُونَ الْمَعَاوِلَ فِي الْأَحْجَارِ؟!

وَكَانُوا ـ كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ عَنْهُمْ ـ مُتَأَثِّرِينَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَسَاطِيرِ وَالْخُرَافَاتِ وَالْأَوْهَامِ، تَنَاقَلُوهَا خَلَفًا عَنْ سَـــلَفٍ، وَخَضَعُوا بَلِ اسْتَسْلَمُوا لَهَا، مِنْهَا مَـــا يَتَعَلَّقُ بِالْجِنِّ... وَمِنْهَا مَـــا يَتَعَلَّقُ بِالْأَفَاعِي الَّتِـــي تَحْرُسُ «الْكَعْبَةَ»، وَمَا يَحْرُسُـــهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَلَكِنَّهُمْ فِي جَهْلِهِمْ يَخُوضُونَ، وَفِي أَوْهَامِهِمْ وَضَلَالَاتِهِمْ يَعْمَهُونَ.

تَوَقَّفُوا عَنْ مُبَاشَـــرَةِ أَيِّ عَمَلٍ، وَلَمْ يَجْرُؤْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، سَوَاءٌ كَانَ مِنَ السَّادَةِ أَوْ مِنَ الْعَامَّةِ عَلَى الْإِقْدَامِ!!

تَوَقَّفُوا أَيَّامًا، وَتَحَيَّرُوا، وَتَرَدَّدُوا، وَتَبَاحَثُوا، وَتَنَاقَشُوا، وَتَدَارَسُوا وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى نَتِيجَةٍ تُذْكَرُ، تُخْرِجُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ جُمُودٍ.

وَفِي يَوْمٍ... رَأَوْا وَاحِدًا مِنْهُمْ يَعْتَلِي أَحَدَ الْجُدْرَانِ وَبِيَدِهِ مِعْوَلٌ، فَاجْتَمَعُوا حَوْلَهُ وَهُمْ مُشْفِقُونَ...

كَانَ هَذَا الشَّخْصُ هُوَ «الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيَّ»؛ وَقَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ ضَرْبَتَهُ الْأُولَى، نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ:

ـ اللَّهُمَّ إِنَّمَا نُرِيدُ الْخَيْرَ، وَلَا شَيْءَ غَيْرَهُ...

ثُمَّ أَهْوَى بِالْمِعْوَلِ عَلَى الْأَحْجَارِ يَنْقُضُهَا حَتَّى تَعِبَ وَكَلَّ، ثُمَّ نَزَلَ وَتَوَلَّى إِلَى دَارِهِ.

أَمَّا الشُّهُودُ فَلَمْ يَتَقَدَّمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لِمُسَاعَدَتِهِ وَمُعَاوَنَتِهِ؛ خَوْفًا وَرَهْبَةً، وَقَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ:

ـ نَنْتَظِرُ اللَّيْلَةَ فَإِذَا لَمْ يُصَبِ «الْوَلِيدُ» بِأَذًى، فَإِنَّ اللهَ يَكُونَ رَاضِيًا عَمَّا نَفْعَلُ، فَنُقْدِمُ وَلَا نُحْجِمُ، وَإِنْ أَصَابَهُ سُوءٌ أَقْلَعْنَا عَمَّا نَحْنُ بِصَدَدِهِ.

وَمَعَ بَاكِرِ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، كَانُوا يَتَسَاءَلُونَ مُسْتَفْسِرِينَ عَمَّا حَلَّ بِـ «الْوَلِيدِ»، فَإِذَا بِهِ صَحِيحٌ مُعَافًى لَيْسَ بِهِ أَذًى، فَأَقْبَلُوا سِرَاعًا وَبِأَيْدِيهِمُ الْمَعَاوِلُ، لِيُشَارِكُوا فِي الشَّرَفِ الْعَظِيمِ، شَرَفِ تَرْمِيمِ «الْكَعْبَةِ» وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا.

وَكَانَ السَّادَةُ مِنَ الْقَوْمِ هُمُ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِالْعَمَلِ، وَلَا يَتْرُكُونَ لِغَيْرِهِمْ فُرْصَةً.

وَفِي غُضُــونِ يَوْمَيْنِ أَوْ أَكْثَــرَ قَلِيلًا، وَصَلُوا إِلَى الْأَسَــاسِ، وَتَجَمَّعَتِ الْأَحْجَارُ فِي رُكْنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ.

وَيُحْكَــى حِكَايَاتٌ فِيهَا كَثِيــرٌ مِنَ الطَّرَافَــةِ وَالْخُرَافَــةِ عَمَّا أَصَابَ بَعْضَ الَّذِينَ مَسَّتْ مَعَاوِلُهُمُ الْأَسَــاسَ؛ مِنْهَا أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ ضَرَبَ أَحَدَ أَحْجَارِ الْأَسَــاسِ بِمِعْوَلِهِ، فَطَارَ الْمِعْوَلُ بَعِيدًا، وَانْقَدَحَ مِنَ الْحَجَرِ ضَوْءٌ كَالشِّهَابِ أَغْشَى الْعُيُونَ، ثُمَّ عَادَ الْحَجَرُ إِلَى مَكَانِهِ!

وَمِنْهَا أَنَّهُمْ رَأَوْا عِنْدَ الْأَسَاسِ أَفْعًى ضَخْمَةً تُحِيطُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ أَرْكَانِهِ، ذَنَبُهَا عِنْدَ رَأْسِهَا، مِنْ عِظَمِ طُولِهَا.

لِهَذَا ارْتَدُّوا عَنْ مَسِّ الْأَسَــاسِ، وَبَدَأُوا فِي عَمَلِيَّةِ إِعَادَةِ بِنَاءِ الْجُدْرَانِ وَتَدْعِيمِهَا.

وَنَحْــنُ لَا نُصَدِّقُ وَاحِدَةً مِنْ تِلْــكَ الْحِكَايَاتِ الَّتِــي تَلُفُّهَا الْأَوْهَامُ، وَتَحُوطُهَا الْخُرَافَاتُ وَالْأَسَــاطِيرُ؛ إِيمَانًا مِنَّا بِاللهِ تَعَالَى، الْحَافِظِ الْقَوِيِّ، الْقَادِرِ. وَهَذَا الْبِنَاءُ هُوَ بَيْتُهُ الْمُحَرَّمُ.

وَحِينَ بَدَءُوا فِي بِنَاءِ الْجُدْرَانِ تَزَاحَمُوا وَاخْتَلَفُوا، إِذْ أَرَادَ كُلُّ فَرِيقٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ السَّهْمُ الْأَوْفَرُ؛ وَالشَّرَفُ الْأَكْبَرُ.

عِنْدَئِــذٍ اجْتَمَعُوا وَتَبَاحَثُوا، ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ عَشِــيرَةٍ جِهَةٌ تَضْطَلِعُ بِعِبْءِ بِنَائِهَا، وَشَرَفِ إِقَامَتِهَا.

وَكَانُــوا خَمْسَ فِرَقٍ، نَهَضُــوا إِلَى الْعَمَلِ بِأَقْصَى هِمَّةٍ، وَأَرْفَعِ نِشَــاطٍ، وَأَوْفَرِ عَزِيمَةٍ.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلَائِلَ ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ حَتَّى حَاذَى الرُّكْنَ، حَيْثُ مَكَانُ «الْحَجَرِ الْأَسْــوَدِ»، وَهُنَا عَادُوا يَتَنَازَعُونَ مِنْ جَدِيدٍ، بِعُنْفٍ وَقَسْوَةٍ، فَقَدْ أَرَادَ كُلُّ فَرِيقٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرَفُ إِعَادَةِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ إِلَى مَكَانِهِ.

عَلَا صِيَاحُهُمْ، وَاشْــتَدَّ صَخَبُهُمْ، وَظَهَرَ الْغَضَبُ وَالْحِقْدُ فِي عُيُونِهِمْ، وَاحْمَرَّتْ خُدُقُهُمْ (أَعْيُنُهُمْ)، وَامْتَدَّتِ الْأَيْدِي إِلَى مَقَابِضِ السُّــيُوفِ، ثُمَّ حَجَــزَ الْعُقَلَاءُ بَيْنَهُمْ... فَتَرَكُوا الْعَمَلَ، وَعَادَ كُلٌّ إِلَى دَارِهِ وَمُقَامِهِ، وَأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ...

وَاسْــتَمَرُّوا عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ، مَــا إِنْ يَصِلُوا إِلَى فِنَاءِ «الْكَعْبَــةِ»، وَيَتَقَــدَّمْ أَحَدُ الْفُرَقَــاءِ لِلْعَمَــلِ، حَتَّى يُبَادِرَهُ الْآخَــرُ مَانِعًا وَمُتَصَدِّيًا... ثُمَّ يَنْفَضُّونَ.

وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِــعِ، كَانَ الْخِلَافُ قَدْ بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَلَمْ يَنْفَعْ فِيهِمْ قَوْلٌ أَوْ رَأْيٌ عَاقِلٌ، وَصَمَّمَ كُلُّ الْأَطْرَافِ عَلَى أَخْذِ الْمُبَادَرَةِ وَلَوْ أَدَّى إِلَى سَــفْكِ الدِّمَاءِ!

ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ:

- يَا قَوْمُ.. كُفُّوا عَنِ الْمُشَاحَنَةِ وَالْبَغْضَاءِ...

مَـا رَأْيُكُمْ لَوْ حَكَّمْنَا فِي خِلَافِنَا هَذَا أَوَّلَ قَادِمٍ عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الْبَابِ؟

فَسَـكَتُوا جَمِيعًا، وَرَانَ عَلَيْهِمُ الصَّمْتُ، وَارْتَدَّتْ أَيْدِيهِمْ عَنْ سِلَاحِهِمْ وَقَالُوا:

- رَضِينَا...

تُرَى أَيُّهَا الْقَـارِئُ الْعَزِيزُ، مَنْ يَكُونُ الْحَكِيمُ، وَمَـنْ يَكُونَ الطَّالِعُ عَلَى الْقَوْمِ؟ وَمَنْ يَكُونُ صَاحِبُ الشَّأْنِ الْأَعْظَمِ وَالْحَظِّ الْأَوْفَرِ وَالْمَقَامِ الْأَسْمَى؟

مَنْ يَكُونُ غَيْرَ «مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ» ﷺ؟

مَنْ يَكُونُ غَيْرَ نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ؟!

وَتَطَلَّعَتْ أَنْظَارُ الْقَوْمِ جَمِيعًا بِبَابِ «بَنِي شَيْبَةَ»، فَإِذَا وَجْهُ «مُحَمَّدٍ» ﷺ كَالْبَدْرِ الْمُنِيرِ يُشْـرِقُ عَلَى النَّاسِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَـاءِ، فَيُحِيلُهَا نَهَارًا مُضِيئًا وَهَّاجًا...

وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ جَمِيعًا تَقُولُ وَكَأَنَّهَا لِسَانٌ وَاحِدٌ:

- رَضِينَا بِـ «الْأَمِينِ» حَكَمًا.

ثُمَّ عَرَضُوا عَلَيْهِ شَأْنَهُمْ وَخِلَافَهُمْ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخِلَافِ وَالْمُشَاحَنَةِ، وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يُنْصِفَ بَيْنَهُمْ.

كَانَ فِيهِمْ كِبَارُ الْقَوْمِ وَسَـادَتُهُمْ، شُـيُوخُهُمْ وَزُعَمَاؤُهُمْ، وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ وَالْمَشُـورَةِ فِيهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ فِي عَصَبِيَّتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ أَضْعَفَ وَأَقَلَّ مِنْ أَنْ يَحْسِمُوا أَمْرًا، أَوْ يَحْزِمُوا فِي مَوْقِفٍ.

ثُـمَّ تَقَدَّمَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ بِخُطًـى ثَابِتَةٍ، وَوَقَارٍ وَهَيْبَـةٍ، وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَتَرَيَّثُوا قَلِيلًا، ثُمَّ نَزَعَ رِدَاءَهُ وَبَسَـطَهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَوَضَعَ بِيَدِهِ الشَّـرِيفَةِ «الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ» فِي وَسَطِهِ، وَطَلَبَ إِلَى كُلِّ زَعِيمِ عَشِيرَةٍ أَنْ يُمْسِكَ بِطَرَفٍ مِنَ الرِّدَاءِ، ثُمَّ اعْتَلَى ﷺ الْجِدَارَ مِنْ نَاحِيَةِ الرُّكْنِ، وَطَلَبَ إِلَى رُؤَسَاءِ الْقَوْمِ أَنْ يَرْفَعُوا الرِّدَاءَ، ثُمَّ تَنَاوَلَ «الْحَجَرَ الْأَسْـوَدَ» بِـ «يَدِهِ الشَّرِيفَةِ» وَوَضَعَهُ فِي مَكَانِهِ مِنَ الرُّكْنِ... ثُمَّ نَزَلَ.

وَبِهَذَا التَّدْبِيرِ الْحَكِيمِ، وَالْفِطْنَةِ الرَّائِعَةِ، وَالْحِكْمَةِ السَّـامِيَةِ، اسْتَطَاعَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ أَنْ يَحْقِنَ دِمَاءَ الْعَرَبِ، وَيَحْجِزَ بَيْنَ زُعَمَائِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، وَيَمْنَعَ الْقَتْـلَ أَنْ يَقَعَ فِي صُفُوفِهِمْ، وَالْحِقْدَ وَالْغَضَبَ أَنْ يَأْخُذَ طَرِيقَهُ إِلَى قُلُوبِهِمْ وَصُفُوفِهِمْ.

وَبِهَذَا التَّدْبِيرِ أَيْضًا شَارَكَ كُلُّ الزُّعَمَاءِ وَالسَّادَةِ فِي شَرَفِ رَفْعِ «الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ» وَإِعَادَتِهِ إِلَى مَكَانِهِ مِنَ الرُّكْنِ.

هَذَا الْمَوْقِفُ فِي حَيَاةِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ، مِنْ أَعْظَمِ الْمَوَاقِفِ، وَكُلُّ حَيَاتِهِ مَوَاقِفُ عَظِيمَةٌ، قَدَّرَهَا اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَـبْعِ سَـمَاوَاتٍ، وَرَتَّبَهَا؛ لِيَكُونَ لِلْعَرَبِ وَلِلْعَالَمِينَ هَادِيًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا.

وَانْصَرَفَ ﷺ عَنْ جِوَارِ «الْكَعْبَةِ»، وَمِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ رَاشِـدًا مَشْـفُوعًا بِنَظَرَاتِ الْإِعْجَـابِ وَالتَّقْدِيرِ، وَسَـارَ بِاتِّجَاهِ مَنْزِلِهِ، وَقَـدِ ازْدَادَ وَجْهُهُ إِشْرَاقًا، وَجَبِينُهُ تَوَهُّجًا وَضِيَاءً.

وَبَيْنَمَا هُوَ فِي سَيْرِهِ الْمُتَّئِدِ الرَّزِينِ، قَابَلَتْهُ امْرَأَةٌ فَاسْتَوْقَفَتْهُ، وَبَشَّرَتْهُ بِوِلَادَةِ أُنْثَى رَابِعَةٍ، هِيَ «فَاطِمَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ فَاتَّسَعَتْ بَسْمَتُهُ الْوَضَّاءَةُ عَلَى ثَغْرِهِ الشَّرِيفِ، وَأَسْرَعَ الْخُطَى نَحْوَ الدَّارِ لِيَكُونَ قَرِيبًا مِنَ السَّيِّدَةِ الْجَلِيلَةِ «خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ.

وَهُنَا نُحِبُّ أَنْ نَتَوَقَّفَ قَلِيلًا...

لَقَدْ كَانَ مِنَ الْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ، الَّتِي أَبْطَلَهَا الْإِسْلَامُ، أَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ إِذَا بُشِّرَ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ؟ وَكَثِيرًا مَا كَانُوا يَقْتُلُونَ بَنَاتِهِمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ وَفَقْرٍ، أَوْ دَفْعًا لِلْفَضِيحَةِ ـ عَلَى حَدِّ زَعْمِهِمْ ـ.

وَكَمَا قُلْنَا.. أَبْطَلَ الْإِسْلَامُ هَذِهِ الْعَادَةَ، أَبْطَلَهَا بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ قَتْلًا لِلنَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَأَبْطَلَهَا بِالْقُدْوَةِ الْحَسَنَةِ، وَلَعَلَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لَهُ حِكْمَةٌ، أَوْ حِكَمٌ كَثِيرَةٌ، مِنْ خِلَالِ نَسْلِ النَّبِيِّ مِنَ الْإِنَاثِ الطَّاهِرَاتِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

مَضَى سَرِيعًا إِلَى الدَّارِ، مُتَهَلِّلَ الْوَجْهِ بِشْرًا وَحُبُورًا، وَأَقْبَلَ عَلَى فِرَاشِ الزَّوْجَةِ الْحَبِيبَةِ، يَمْسَحُ بِـ «يَدِهِ الشَّرِيفَةِ» حَبَّاتِ الْعَرَقِ عَنْ جَبِينِهَا النَّاصِعِ، وَالَّتِي بَدَتْ كَحَبَّاتٍ مِنَ اللُّؤْلُؤِ الصَّافِي الْبَرَّاقِ...

وَيُوَاسِيهَا مُخَفِّفًا عَنْهَا آلَامَ الْوَضْعِ بِكَلِمَاتِهِ الطَّيِّبَاتِ، وَنَفَحَاتِ عِبَارَاتِهِ الْعَطِرَاتِ.

ثُمَّ يَنْظُرُ بِحَنَانٍ بَالِغٍ، وَعَطْفٍ مُتَزَايِدٍ نَحْوَ «رُقَيَّةَ» وَ«زَيْنَبَ» وَ«أُمِّ كُلْثُومٍ».

ثُمَّ اخْتَارَ لَهَا ﷺ اسْمَ «فَاطِمَةَ»؛ تَيَمُّنًا بِاسْمِ جَدَّتِهِ لِأَبِيهِ، وَكَانَ اسْمُهَا «فَاطِمَةَ».

وَخَيَّمَ عَلَى الْبَيْتِ الطَّاهِرِ الْكَرِيمِ جَوٌّ مِنَ السَّعَادَةِ الْغَامِرَةِ، وَالْفَرْحَةِ الْعَامِرَةِ.

وَاتَّخَذَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ بَعْدَ ذَلِكَ سَبِيلَهُ إِلَى «حِرَاءَ»، حَيْثُ كَانَ يَخْلُو بِنَفْسِهِ مُتَأَمِّلًا مُتَفَكِّرًا، مُنْقَطِعًا عَنْ دُنْيَا النَّاسِ.

وَمَضَتْ خَمْسُ سَنَوَاتٍ عَلَى وِلَادَةِ «فَاطِمَةَ»، وَكَانَ ﷺ قَدْ أَتَمَّ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهِ السَّعِيدِ، وَبَدَأَ الِاسْتِعْدَادَ لِلْيَوْمِ الْعَظِيمِ، يَوْمِ اتِّصَالِ الْأَرْضِ بِالسَّمَاءِ، يَوْمِ نُزُولِ «جِبْرِيلَ» بِالْآيِ الْكَرِيمَةِ.

يَوْمِ نُبِّيءَ الْمُصْطَفَى ﷺ وَأُرْسِلَ إِلَى الدُّنْيَا كَافَّةً رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَلِيَخُطَّ لِلْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا دَرْبَ الْخَلَاصِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَإِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ الْخَالِدِ، يَوْمِ «اقْرَأْ» نَسْتَرْوِحُ رِيحَهُ، وَنَسْتَنْشِقُ مِنْهُ عَبِيرَ الْجَنَّةِ.

اقْـرَأْ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي
عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ ﴾ (العَلَقُ: 1 ـ 5).

وَقَالَ تَعَالَى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ
مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ
حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥ ﴾ (سُورَةُ الْقَدرِ).

❊❊❊

كُنَّا قَدْ تَحَدَّثْنَا فِيمَا سَبَقَ عَنْ خَلَوَاتِهِ ﷺ وَعُزُوفِهِ عَنِ النَّاسِ، وَانْقِطَاعِهِ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَذَهَابِهِ إِلَى «غَارِ حِرَاءٍ» حَيْثُ يَتَأَمَّلُ وَيَتَفَكَّرُ.

وَلَقَدْ كَانَ يَحْدُثُ مِنْهُ ذَلِكَ أَحْيَانًا.

فَلَمَّا آنَ أَوَانُ الْبَعْثَةِ، وَقَرُبَ مَوْعِدُهُ مَعَ النُّبُوَّةِ، ازْدَادَ تَعَلُّقًا بِالْوَحْدَةِ وَالِانْفِرَادِ، وَالِاخْتِلَاءِ بِالنَّفْسِ، وَالتَّطَلُّعِ الدَّائِمِ إِلَى السَّمَاءِ.

وَكَانَ شَهْرُ رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ عَامٍ ـ الْأَعْوَامِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي سَبَقَتِ الْبَعْثَةَ ـ هُوَ أَحَبَّ الشُّهُورِ إِلَى قَلْبِهِ ﷺ، فَفِيهِ يَسْتَأْذِنُ أَهْلَهُ، وَيَأْخُذُ زَادَهُ، وَيَمْضِي إِلَى «غَارِ حِرَاءٍ» وَحِيدًا فَرِيدًا، وَهُنَاكَ يَسْتَغْرِقُ فِي التَّحَنُّثِ (التَّعَبُّدِ)، فِي التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ، فِي رِيَاضَةِ النَّفْسِ وَالْحِسِّ، فِي النَّظَرِ إِلَى الْخَلْقِ وَالْكَوْنِ بِعَيْنِ الضَّمِيرِ وَالْفُؤَادِ، وَتَسْبِيحِ وَتَمْجِيدِ الْخَالِقِ الْبَارِئِ.

وَمَعَ انْقِضَاءِ الشَّهْرِ يَعُودُ إِلَى «مَكَّةَ»، وَقَدْ تَزَوَّدَ بِزَادٍ رُوحِيٍّ عَظِيمٍ، وَقَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ وَدَارَهُ يَعْرُجُ عَلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَيَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ أَشْوَاطًا بِحَسَبِ مَا يَقْدِرُ أَوْ يَتَرَاءَى لَهُ؛ تَعْظِيمًا لَهَا وَاحْتِرَامًا لِقَدَاسَتِهَا.

ثُمَّ يَمْضِي إِلَى الْبَيْتِ، فَيُقْبِلُ عَلَى أَهْلِهِ مُسَلِّمًا وَمُعَانِقًا.

وَ«حِرَاءٌ» جَبَلٌ يَقَعُ بِأَعْلَى «مَكَّةَ»، عَلَى مَسَافَةِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنْهَا، وَهُوَ عَلَى يَسَارِ الْمَارِّ إِلَى «مِنَى»، قِمَّتُهُ تُشْرِفُ عَلَى «الْكَعْبَةِ» بِشَكْلٍ مُنْحَنٍ، وَالْغَارُ فِي تِلْكَ الْحَنْيَةِ.

وَلَمَّا أَتَمَّ ﷺ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَأَصْبَحَ مِنَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، كَانَ يَرَى كَثِيرًا مِنَ الرُّؤَى وَالْأَحْلَامِ، فَيَقُومُ مُضْطَرِبًا مَفْزُوعًا، وَيُحَدِّثُ بِهَا زَوْجَتَهُ الْفَاضِلَةَ «خَدِيجَةَ»، فَتَبْتَسِمُ فِي وَجْهِهِ، وَتُسَرِّي عَنْهُ بِكَلَامِهَا الْعَذْبِ، وَمَنْطِقِهَا الرَّقِيقِ.

وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ الرُّؤَى وَالْأَحْلَامُ إِشَارَاتٍ إِلَى مَوْعِدِهِ مَعَ اللهِ تَعَالَى، مَعَ الْآيِ الْكَرِيمِ وَالْوَحْيِ الْعَظِيمِ، مَعَ «جِبْرِيلَ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ يَتَنَزَّلُ بِالْقَوْلِ الثَّقِيلِ، الشَّدِيدِ الْوَطْأَةِ... ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المُزَّمِّلُ: 5)؛ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الْحَشْرُ: 21).

وَرُؤْيَاهُ ﷺ صَادِقَةٌ، وَكَذَلِكَ رُؤَى الْأَنْبِيَاءِ، وَبِهَذَا الصَّدَدِ تَقُولُ السَّيِّدَةُ «عَائِشَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ:

ـ مَا رَأَى ﷺ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ كَفَلَقِ الصُّبْحِ.

وَمَعَ مُرُورِ الْأَيَّامِ ازْدَادَ ﷺ قُرْبًا...

وَيُحْكَى أَنَّهُ كَثِيرًا مَا كَانَ يَمْضِي وَحِيدًا فِي شِعَابِ جِبَالِ «مَكَّةَ»، غَيْرَ مُتَطَلِّعٍ أَوْ شَاعِرٍ بِالْوُجُودِ الْمَادِيِّ الَّذِي حَوْلَهُ، فَإِذَا مَا مَرَّ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، سَمِعَ أَصْوَاتًا تَقُولُ:

ـ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ...

فَيَجْفِلُ وَيَنْظُرُ حَوْلَهُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، فَلَا يَرَى شَيْئًا، لَا يَرَى بَشَرًا وَلَا يُشَاهِدُ أَثَرًا...

وَلَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ ﷺ قَوْلُهُ:

«إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ، كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ سُمَرَةَ).

وَعِنْدَمَا حَلَّ رَمَضَانُ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ، خَرَجَ ﷺ عَلَى عَادَتِهِ إِلَى «غَارِ حِرَاءٍ»؛ لِيَتَحَنَّثَ وَيَتَعَبَّدَ وَيَتَنَسَّكَ.

وَدَّعَ أَهْلَهُ، وَحَمَلَ زَادَهُ، وَمَضَى.

وَلَقَدْ ظَهَرَ فِي وَجْهِهِ الشَّرِيفِ، فِي تِلْكَ الْآوِنَةِ، أَمَارَاتٌ وَإِرْهَاصَاتٌ ازْدَادَ بِهَا نُورًا وَبَهَاءً وَتَأَلُّقًا، وَنَفْحًا عَطِرًا طَيِّبًا.

فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ الْمُبَارَكِ ـ عَلَى الْمَشْهُورِ ـ وَهِيَ لَيْلَةُ «مُحَمَّدٍ» ﷺ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ وَالشَّرَفِ.

نَزَلَ عَلَيْهِ «جِبْرِيلُ»، فَدَنَا مِنْهُ، فَخَافَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَخَافَةً شَدِيدَةً.

فَوَضَعَ «جِبْرِيلُ» يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَقَالَ:

ـ اللَّهُمَّ احْطُطْ وِزْرَهُ، وَاشْرَحْ صَدْرَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ.

يَا «مُحَمَّدُ» أَبْشِرْ، فَإِنَّكَ نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ. اقْرَأْ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فِي رِعْدَةٍ وَحَيْرَةٍ:

ـ مَا أَنَا بِقَارِئٍ، مَا قَرَأْتُ كِتَابًا قَطُّ وَلَا أُحْسِنُهُ، وَمَا أَكْتُبُ وَمَا أَقْرَأُ.

فَأَخَذَهُ جِبْرِيلُ فَغَتَّهُ غَتًّا شَدِيدًا، ثُمَّ تَرَكَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

ـ اقْرَأْ...

فَأَعَادَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلَ مَا قَالَ أَوَّلًا.

فَأَجْلَسَهُ «جِبْرِيلُ» عَلَى بِسَاطٍ، فَرَأَى فِيهِ مِنْ صَفَائِهِ وَحُسْنِهِ كَهَيْئَةِ اللُّؤْلُؤِ وَالْيَاقُوتِ..

ثُمَّ قَالَ لَهُ «جِبْرِيلُ»:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (الْعَلَقُ: 1 - 5).

ثُمَّ قَالَ لَهُ:

- لَا تَخَفْ يَا «مُحَمَّدُ»، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ.

ثُمَّ انْصَرَفَ...

وَاهْتَمَّ ﷺ وَاغْتَمَّ، مَاذَا يَقُولُ لِلنَّاسِ؟ وَكَيْفَ يُوَاجِهُهُمْ؟ ثُمَّ قَامَ وَهُوَ خَائِفٌ...

فَأَتَاهُ «جِبْرِيلُ» ثَانِيَةً، وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي مَكَانِهِ لَمْ يَتَحَرَّكْ، أَتَاهُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ الصُّورَةِ السَّابِقَةِ، وَوَاجَهَهُ مِنْ أَمَامِهِ، فَرَأَى ﷺ مِنْ «جِبْرِيلَ» أَمْرًا عَظِيمًا مَلَأَ صَدْرَهُ.

فَقَالَ لَهُ «جِبْرِيلُ»:

- لَا تَخَفْ يَا «مُحَمَّدُ»، «جِبْرِيلُ» رَسُولُ اللهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، فَأَيْقِنْ بِكَرَامَةِ اللهِ، فَإِنَّكَ رَسُولُ اللهِ.

ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ.

وَرَجَعَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَارِ «حِرَاءٍ» قَاصِدًا بَيْتَهُ وَأَهْلَهُ، فَكَانَ لَا يَمُرُّ عَلَى شَجَرٍ وَلَا حَجَرٍ إِلَّا هُوَ سَاجِدٌ خَاشِعٌ يَقُولُ:

- السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَعَرَفَ كَرَامَةَ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُ.

وَدَخَلَ الدَّارَ بِوَجْهٍ غَيْرِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ، وَبِهَيْئَةٍ غَيْرِ الَّتِي خَرَجَ عَلَيْهَا، يَرْتَعِدُ وَيَرْتَجِفُ، فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ «خَدِيجَةُ» مُسْتَفْسِرَةً مُسْتَهْجِنَةً، فَقَالَ ﷺ:

- زَمِّلُونِي... زَمِّلُونِي... (أَيْ دَثِّرُونِي بِالْأَغْطِيَةِ).

فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ «خَدِيجَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ بِكُلِّ مَا حَدَثَ لَهُ، وَأَضَافَ:

- لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي...

وَهُنَــا ـ أَيُّها الْقَارِئُ الْعَزِيــزُ ـ تَظْهَرُ بِوُضُوحٍ وَجَلَاءٍ عَظَمَةُ شَــخْصِيَّةِ «خَدِيجَــةَ»، الزَّوْجَةِ الصَّالِحَــةِ الْفَاضِلَةِ؛ فَابْتَسَــمَتْ... وَقَالَتْ بِرَصَانَةٍ وَهُدُوءٍ:

- كَلَّا وَاللهِ... لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّــكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

قَالَتْ «خَدِيجَةُ» ـ رَضِــيَ اللهُ عَنْهَا ـ ذَلِكَ وَهِيَ تَعْنِي كُلَّ كَلِمَةٍ تَقُولُهَا، وَكَأَنَّهَا تَقْرَأُ صَفْحَــةً نَاصِعَةً مِنْ صَفَحَاتِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ كَانَ عُنْوَانًا لِلْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ.

كَانَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْهُ فِي قُرَيْشٍ، وَكَانَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ قَبِيلًا، وَكَانَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ مَالًا وَغِنًى وَثَرَاءً، وَكَانَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَرْسَخُ مِنْهُ رَأْيًا وَنُفُوذًا.

وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ فِي «مَكَّةَ» وَلَا فِي دِيَارِ الْعَرَبِ كُلِّهَا مَنْ هُوَ أَسْمَى مِنْهُ خُلُقًا، وَلَا أَصْوَبَ مِنْهُ رَأْيًا، وَلَا أَعْظَمَ مِنْهُ هَيْبَةً، وَلَا أَرْحَمَ مِنْهُ عَلَى إِنْسَانٍ، وَلَا أَنْصَفَ مِنْهُ لِمَظْلُومٍ، وَلَا أَسْخَى يَدًا.

وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلَنْ يُخْزِيَهُ اللهُ وَلَنْ يُؤْذِيَهُ أَبَدًا، وَهَذِهِ نَتِيجَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ وِجْدَانِيَّةٌ، نَطَقَتْ بِهَا «خَدِيجَةُ» فَأَثْلَجَتْ صَدْرَ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَنَزَلَ كَلَامُهَا عَلَى قَلْبِهِ بَرْدًا وَسَلَامًا.

كَانَتْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ تَثِقُ بِحِكْمَةِ ابْنِ عَمِّهَا «وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ»، وَتَرَفُّعِهِ عَنْ سَفَاهَاتِ قُرَيْشٍ، وَعُزُوفِهِ عَنْ أَوْثَانِهَا، وَتَعَالِيهِ عَنْ فُحْشِهَا وَفُجُورِهَا، وَهَذَا مِمَّا أَدَّى بِهِ إِلَى التَّنَصُّرِ وَاتِّبَاعِ دِيَانَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

فَقَصَدَتْهُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَسْتَوْضِحُهُ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ.

قَالَتْ «خَدِيجَةُ»:

ـ يَا ابْنَ عَمِّ... اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ.

فَقَالَ «وَرَقَةُ»:

ـ يَا ابْنَ أَخِي.. مَاذَا تَرَى؟

فَأَخْبَرَهُ رَسُــولُ اللهِ ﷺ بِمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ «جِبْرِيلَ» مَعَهُ فِي «غَارِ حِرَاءٍ»، وَمَاذَا قَالَ لَهُ، وَبِمَاذَا بَشَّرَهُ.

فَصَاحَ «وَرَقَةُ» قَائِلًا:

- قُــدُّوسٌ... قُدُّوسٌ... هَذَا النَّامُــوسُ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَى «مُوسَــى» وَ«عِيسَــى»، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا؛ لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا، إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَأَنْصُرُكَ نَصْرًا عَزِيزًا...

فَقَالَ ﷺ:

- أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟

فَقَالَ «وَرَقَةُ»:

- نَعَــمْ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُــودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ، أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.

ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ «خَدِيجَةُ» مِنْ عِنْدِ «وَرَقَةَ» وَعَادَا إِلَى الدَّارِ.

وَأَرَادَتْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ أَنْ تُثَبِّتَ رَسُــولَ اللهِ ﷺ، وَأَنْ تَبْعَثَ فِي نَفْسِهِ الثِّقَةَ، وَأَنْ تُقَوِّيَ فِيهِ الْيَقِينَ بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، فَقَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

- يَا ابْنَ عَمِّ، تَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْبِرَنِي بِصَاحِبِكَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ إِذَا جَاءَكَ؟

فَقَالَ:

- نَعَمْ...

فَقَالَتْ:

- إِذَا جَاءَكَ فَأَخْبِرْنِي.

فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَهَا إِذْ جَاءَ جِبْرِيلُ، فَرَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ:

- يَا «خَدِيجَةُ».... هَذَا «جِبْرِيلُ».

فَقَالَتْ:

- أَتَرَاهُ الْآنَ؟!

فَقَالَ:

- نَعَمْ.

قَالَتْ:

- فَاجْلِسْ إِلَى شِقِّي الْأَيْمَنِ.

فَتَحَوَّلَ فَجَلَسَ. فَقَالَتْ:

- أَتَرَاهُ الْآنَ؟

قَالَ:

- نَعَمْ.

قَالَتْ:

- فَتَحَوَّلْ فَاجْلِسْ فِي حِجْرِي.

فَتَحَوَّلَ ﷺ إِلَى حِجْرِهَا؛ فَقَالَتْ:

- هَلْ تَرَاهُ الْآنَ؟

قَالَ:

- نَعَمْ.

عِنْدَئِذٍ حَسَرَتْ رَأْسَـهَا، وَرَفَعَتْ خِمَارَهَا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حِجْرِهَا جَالِسٌ، فَقَالَتْ:

- هَلْ تَرَاهُ الْآنَ؟

فَقَالَ:

- لَا.

قَالَتْ:

- مَا هَذَا بِشَيْطَانٍ، إِنَّ هَذَا لَمَلَكٌ يَا ابْنَ عَمِّ، فَاثْبُتْ وَأَبْشِرْ.

أَمَّا «وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ» فَكَانَ قَدْ شَـاخَ وَعَمِيَ، وَقَارَبَتْ أَيَّامُ وَفَاتِهِ، فَأَطْلَقَ لِسَانَهُ بِشِعْرٍ رَقِيقٍ يَقُولُ فِيهِ:

فَـإِنْ يَكُ حَقًّا يَـا «خَدِيجَـةُ» فَاعْلَمِي
حَدِيثَكِ إِيَّـانَا فَـ«أَحْـمَدُ» مُـرْسَلُ
وَ«جِبْرِيلُ» يَأْتِيـهِ وَ«مِيكَـالُ» مَعْهُمَا
مِـنَ اللهِ وَحْـيٌ يَشْـرَحُ الصَّـدْرَ مُنْزَلُ
يَفُـوزُ بِـهِ مَـنْ فَـازَ فِيـهَا بِتَوْبَةٍ
وَيَشْـقَى بِهَـا الْعَانِي الْغَرِيـرُ الْمُضَلَّلُ
فَـرِيقَانِ، مِنْهُـمْ فِـرْقَةٌ فِي جِنَانِـهِ
وَأُخْـرَى بِأَحْـوَازِ الْجَحِيـمِ تُعَلَّـلُ
إِذَا مَـا دَعَـوْا بِالْوَيْـلِ فِيهَـا تَتَابَعَـتْ
مَقَـامِعُ فِي هَـامَـاتِهِمْ ثُـمَّ تُشْـعَلُ

فَسُبْحَانَ مَنْ يُهْوِي الرِّيَاحَ بِأَمْرِهِ
وَمَنْ هُوَ فِي الْأَيَّامِ مَا شَاءَ يَفْعَلُ
وَمَنْ عَرْشُهُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ كُلِّهَا
وَأَقْضَاؤُهُ فِي خَلْقِهِ لَا تُبَدَّلُ

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ «وَرَقَةُ» إِلَّا أَيَّامًا، ثُمَّ تَوَفَّاهُ اللهُ إِلَيْهِ.

وَكَانَتْ «خَدِيجَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ إِنَّمَا فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ لِتَسْتَثْبِتَ بِهِ؛ احْتِيَاطًا لِدِينِهَا وَتَصْدِيقًا، أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَقَدْ كَانَ وَثِقَ بِمَا قَالَهُ لَهُ «جِبْرِيلُ»، وَأَرَاهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ.

❊❊❊

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ وَلَيَالٍ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْشِي سَمِعَ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعَ بَصَرَهُ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَهُ فِي «غَارِ حِرَاءٍ» «جِبْرِيلُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ، فَجَثَا مِنْهُ فَرَقًا وَخَوْفًا حَتَّى هَوَى إِلَى الْأَرْضِ...

ثُمَّ قَامَ وَأَتَى أَهْلَهُ عَلَى عَجَلٍ قَائِلًا لَهُمْ:

ـ دَثِّرُونِي... دَثِّرُونِي.

لِمَا كَانَ يُحِسُّ بِهِ مِنَ الِارْتِجَافِ وَالْقُشَعْرِيرَةِ، وَيَشْعُرُ بِهِ مِنَ الْبَرْدِ؛ نَتِيجَةَ الرَّهْبَةِ الَّتِي وَاجَهَهَا وَدَاخَلَتْهُ حِينَ رَأَى «جِبْرِيلَ» قَاعِدًا عَلَى كُرْسِيٍّ فِي السَّمَاءِ...

وَأَتَـاهُ «جِبْرِيلُ» مَرَّةً ثَانِيَـةً إِلَى الدَّارِ، حَامِلًا إِلَيْهِ وَحْيًـا جَدِيدًا؛ وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ (المُدَّثِّـرُ: 1 - 6).

وَكَانَ ﷺ عِنْدَمَا يَأْتِيـهِ الْوَحْيُ تَتَغَيَّرُ حَالُهُ؛ يَتَفَصَّـدُ جَبِينُهُ عَرَقًا، حَتَّى فِي الْيَوْمِ الْبَارِدِ، وَتَشْتَدُّ حُمْرَةُ وَجْهِهِ الشَّـرِيفِ، وَتَعْرُوهُ رِعْدَةٌ وَارْتِجَافٌ، وَيَتَحَدَّرُ الْعَرَقُ مِنْ جَبِينِهِ مِثْلَ حَبَّاتِ الْجُمَانِ.

وَكَانَ إِذَا نَـزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْـيُ دَامَ بَصَرُهُ وَعَيْنَاهُ مَفْتُوحَتَـانِ، وَتَفَرَّغَ قَلْبُهُ وَسَمْعُهُ لِمَا يَأْتِيهِ مِنَ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحِيُ إِلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ مُصَدِّقٌ بِمَا جَاءَهُ مِنْهُ، قَدْ قَبِلَهُ بِقَبُولِهِ، وَتَحَمَّلَ مِنْهُ مَا حَمَلَهُ، عَلَى رِضَا الْعِبَادِ وَسَخَطِهِمْ.

وَلِلنُّبُوَّةِ أَثْقَالٌ وَمَؤُونَةٌ لَا يَحْمِلُهَا وَلَا يَسْتَضْلِعُ بِهَا إِلَّا أَهْلُ الْقُوَّةِ وَالْعَزْمِ مِنَ الرُّسُـلِ، لِمَا يَلْقَوْنَ مِنَ النَّاسِ، وَمَا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ مِمَّا جَاؤوا بِهِ عَنِ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وَقَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مَا أَمَرَ اللهُ.

❋❋❋

آمَنَـتْ «خَدِيجَةُ» وَصَدَّقَتْ بِمَا جَاءَهُ مِنَ اللهِ، وَآزَرَتْهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُـولِهِ، وَصَدَّقَتْ بِمَا جَاءَ مِنْهُ، فَخَفَّفَ اللهُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِهِ؛ لَا يَسْمَعُ شَـيْئًا يَكْرَهُهُ مِنْ رَدٍّ عَلَيْهِ وَتَكْذِيبٍ لَهُ فَيُحْزِنُهُ ذَلِكَ، إِلَّا

فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا إِذَا رَجَعَ إِلَيْهَا، تُثَبِّتُــهُ وَتُخَفِّفُ عَنْهُ، وَتُصَدِّقُهُ وَتُهَوِّنُ عَلَيْهِ أَمْرَ النَّاسِ.

لِذَا ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قولُهُ: «أُمِرْتُ أَنْ أُبَشِّرَ «خَدِيجَةَ» بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ (اللُّؤْلؤ الْمُجَوَّفِ)، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ» (رَوَاهُ الشَّــيْخَانِ).

وَآمَنَ «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»...

وَلَقَدْ عَرَفْنَا مِمَّا سَبَقَ أَنَّ «عَلِيًّا» احْتَضَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْد زَوَاجِهِ مِنْ «خَدِيجَةَ»؛ تَخْفِيفًا لِلْعِبْءِ عَنْ «أَبِي طَالِبٍ» بِسَبَبِ كَثْرَةِ عِيَالِهِ وَقِلَّةِ مَالِهِ، وَوَفَــاءً مِنْهُ لِعَمِّهِ الَّذِي آوَاهُ وَكَفَلَهُ وَرَعَاهُ بَعْدَ وَفَاةِ جَدِّهِ «عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

وَيُحْكَى عَنْ إِسْــلَامِ «عَــلِيٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ رَأَى رَسُــولَ اللهِ ﷺ وَ«خَدِيجَةَ» يُصَلِّيَــانِ، فَاجَأَهُمَا فِي عِبَادَتِهِمَا وَخُشُــوعِهِمَا لِلهِ، إِذْ كَانَتِ السِّرِّيَّةُ هِيَ الطَّابَعَ الْعَامَّ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ الدَّعْوَةُ.

فَسَأَلَ «عَلِيٌّ» رَسُولَ اللهِ ﷺ عَمَّا يَفْعَلَانِ؛ فَأَجَابَهُ بِأَنَّهُمَا يُصَلِّيَــانِ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، الْفَــرْدِ الصَّمَدِ، الَّذِي لَمْ يَلِــدْ وَلَمْ يُولَــدْ، وَأَنَّــهُ ﷺ قَدْ أُرْسِلَ بِالْإِسْــلَامِ دِينًا يُنْقِذُ النَّاسَ مِنْ أَوْهَامٍ وَضَلَالَاتِ الْأَوْثَانِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّــلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَيَرْفَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

ثُمَّ دَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ... فَقَالَ «عَلِيٌّ»:

ـ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ حَتَّى أَسْتَشِيرَ «أَبَا طَالِبٍ».

فَطَلَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَكْتُمَ الْأَمْرَ.

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ظَلَّ «عَلِيٌّ» يَقِظًا قَلِقًا مُتَفَكِّرًا، وَفِي الصَّبَاحِ أَقْبَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُتَفَتِّحَ الْقَلْبِ وَالذِّهْنِ؛ لِيُعْلِنَ إِسْلَامَهُ، فَتَعَجَّبَ رَسُولُ اللهِ مِنْ ذَلِكَ، وَسَأَلَ «عَلِيًّا»:

ـ أَلَمْ تَقُلْ بِالْأَمْسِ أَنَّكَ تُرِيدُ اسْتِشَارَةَ «أَبِي طَالِبٍ»؟!

فَقَالَ «عَلِيٌّ»:

ـ وَهَلِ اسْتَشَارَنِي «أَبُو طَالِبٍ» عِنْدَمَا جَاءَ بِي إِلَى الدُّنْيَا حَيًّا بَيْنَ الْأَحْيَاءِ؟!

***

وَكَذَلِكَ أَسْلَمَ «زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ»، مَوْلَاهُ الَّذِي أَهْدَتْهُ إِلَيْهِ «خَدِيجَةُ» يَوْمَ زَوَاجِهِمَا، وَدَخَلَ فِي دِينِ اللهِ، وَشَهِدَ لِلهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَلِـ «مُحَمَّدٍ» ﷺ بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ.

وَبِهَذَا تَكَوَّنَ «أَوَّلُ بَيْتٍ إِسْلَامِيٍّ» عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ؛ وَتَكَوَّنَتْ أَوَّلُ نَوَاةٍ لِلْإِسْلَامِ الْحَنِيفِ.

وَقَدْ تَسْأَلُ عَنِ الصَّلَاةِ، كَيْفَ وَمَتَى فُرِضَتْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ «خَدِيجَةُ»؟ وَهَلْ هِيَ مَعَ أَوَّلِ أَيَّامِ نُزُولِ الْوَحْيِ؟ وَهَلْ سَبَقَتْ فَرْضَ الصَّلَاةِ ـ عَلَى الْمَشْهُورِ ـ «لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ»؟

قَالَ «ابْنُ إِسْحَاقَ»:

«أَمَّـا أَصْلُ الصَّلَاةِ فَقَدْ وَجَبَ فِي حَيَـاةِ «خَدِيجَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ إِذْ كَانَتْ «خَدِيجَةُ» أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُـولِهِ وَصَدَّقَتْـهُ بِمَا جَاءَ بِهِ، ثُمَّ إِنَّ «جِبْرِيلَ» ـ عَلَيْهِ السَّـلَامُ ـ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ افْتُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ، فَهَمَـزَ لَهُ بِعَقِبِهِ فِي نَاحِيَةِ الْوَادِي، فَانْفَجَرَتْ لَـهُ عَيْنٌ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، فَتَوَضَّأَ «جِبْرِيـلُ» وَ«مُحَمَّدٌ» عَلَيْهِمَا السَّـلَامُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَسَـجَدَ أَرْبَعَ سَـجَدَاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ أَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ، وَطَابَتْ نَفْسُهُ، وَجَاءَهُ مَا يُحِبُّ مِنَ اللهِ.

فَأَخَذَ بِيَدِ «خَدِيجَةَ» حَتَّى أَتَى بِهَا الْعَيْنَ، فَتَوَضَّأَ كَمَا تَوَضَّأَ «جِبْرِيلُ»، ثُمَّ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ وَأَرْبَعَ سَجَدَاتٍ، ثُمَّ كَانَ هُوَ وَ«خَدِيجَةُ» يُصَلِّيَانِ سِرًّا».

وَلَقَدْ تَابَعَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الرُّوَاةِ «ابْنَ إِسْـحَاقَ» فِي قَوْلِـهِ، وَرِوَايَتِهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

❊❊❊

ثُمَّ تَقَاطَرَ الْمُسْـلِمُونَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتَتَابَعُوا يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ، يَدْعُوهُمْ سِـرًّا، وَعَلَى الْخُصُـوصِ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْـهِ، وَمِنَ الَّذِينَ يَثِـقُ بِصِدْقِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ.

فَمَنْ هُمُ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ حَازُوا قَصَبَ السَّبْقِ، وَفَازُوا بِرِضْوَانٍ عَظِيمٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى؟

السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

(الوَاقِعَةُ: 10 - 26)

كَانَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ» ـ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ـ صَدِيقًا حَمِيمًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمِنْ أَقْـرَبِ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ، وَمِمَّنْ يَثِقُ بِهِمْ، فَلَمَّا بُعِثَ ﷺ وَنُبِّئَ، عَرَضَ الْإِسْلَامَ عَلَى «أَبِي بَكْرٍ» فَلَمْ يَتَرَدَّدْ أَبَدًا، وَلَمْ يَتَلَكَّأْ وَلَمْ يَتَلَعْثَمْ.

وَفِي هَذَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الْإِسْـلَامِ إِلَّا كَانَتْ عِنْـدَهُ كَبْوَةٌ وَتَرَدُّدٌ وَنَظَرٌ، إِلَّا «أَبَا بَكْرٍ» مَا عَكَمَ (أَيْ تَلَبَّثَ وَانْتَظَرَ) عَنْهُ حِينَ ذَكَّرْتُهُ، وَلَا تَرَدَّدَ فِيهِ».

لِمَاذَا؟

لِأَنَّ «أَبَا بَكْرٍ» كَمَا قَدَّمْنَا كَانَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ صَاحِبًا وَرَفِيقًا وَصَدِيقًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ يَعْلَمُ مِنْ صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ وَحُسْـنِ سَجِيَّتِهِ وَكَرَمِ أَخْلَاقِهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى الْخَلْقِ، فَكَيْفَ يَكْذِبُ عَلَى اللهِ؟ وَلِهَذَا... وَبِمُجَرَّدِ مَا ذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ، بَادَرَ إِلَى تَصْدِيقِهِ.

وَكَانَ «أَبُـو بَكْرٍ» رَجُلًا مَحْبُوبًا عِنْدَ قَوْمِهِ وَعَشِـيرَتِهِ، وَيُعْتَبَرُ مِنْ أَكْثَرِ الْقُرَشِـيِّينَ عِلْمًا بِأَنْسَـابِهِمْ وَأَحْسَـابِهِمْ، وَأَيَّامِهِمْ وَوَقَائِعِهِمْ، كَمَا كَانَ رَجُلًا تَاجِرًا صَاحِبَ خُلُقٍ.

فَلَمَّا أَسْـلَمَ أَخَذَ يَدْعُو بِدَعْوَةِ اللهِ بَعْضَ إِخْوَانِـهِ وَأَصْحَابِهِ، مِمَّنْ يَثِقُ بِرُجُولَتِهِـمْ وَفَضْلِهِمْ وَعَقْلِهِمْ، فَأَسْـلَمَ عَلَى يَدَيْهِ طَائِفَـةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ الْأَعْلَامِ السَّابِقِينَ.

كَانَ مِنْهُـــمُ: «الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ»، وَ«عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ»، وَ«طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ»، وَ«سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ»، وَ«عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ـ.

جَاءُوا جَمِيعًا وَفْدًا وَاحِدًا بِصُحْبَةِ «أَبِي بَكْرٍ» إِلَى رَسُـــولِ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَأَنْبَأَهُمْ بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، فَآمَنُوا وَأَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ.

يُحَدِّثُنَا «طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ» عَنْ إِسْلَامِهِ فَيَقُولُ:

«حَضَرْتُ سُوقَ بُصْرَى، فَإِذَا رَاهِبٌ فِي صَوْمَعَتِهِ يَقُولُ:

ـ سَلُوا أَهْلَ الْمَوْسِمِ: أَفِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْحَرَمِ؟

قَالَ «طَلْحَةُ»:

ـ قُلْتُ نَعَمْ... أَنَا.

فَقَالَ:

ـ هَلْ ظَهَرَ «أَحْمَدُ» بَعْدُ؟

قُلْتُ:

ـ وَمَنْ «أَحْمَدُ»؟

قَالَ:

ـ ابْنُ «عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، هَذَا شَـــهْرُهُ الَّذِي يَخْرُجُ فِيهِ، وَهُوَ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ، مَخْرَجُهُ مِنَ الْحَرَمِ، وَمُهَاجَرُهُ إِلَى نَخْلٍ وَحَرَّةٍ وَسِبَاخٍ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُسْبَقَ إِلَيْهِ.

قَالَ «طَلْحَةُ»:

ـ فَوَقَعَ فِي قَلْبِي مَا قَالَ، فَخَرَجْتُ سَرِيعًا حَتَّى قَدِمْتُ «مَكَّةَ»، فَقُلْتُ: هَلْ كَانَ مِنْ حَدِيثٍ؟

قَالُوا: نَعَمْ... «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» ـ الْأَمِينُ ـ قَدْ تَنَبَّأَ، وَقَدِ اتَّبَعَهُ «أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ»..

فَخَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى «أَبِي بَكْرٍ» فَقُلْتُ: اتَّبَعْتَ الرَّجُلَ؟

قَالَ: نَعَمْ، فَانْطَلِقْ إِلَيْهِ فَادْخُلْ عَلَيْهِ فَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ.

وَأَخْبَرَهُ «طَلْحَةُ» خَبَرَ الرَّاهِبِ فِي بُصْرَى.

ثُمَّ خَرَجَ مَعَ «أَبِي بَكْرٍ» فَدَخَلَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَسْلَمَ «طَلْحَةُ»، وَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِمَا سَمِعَهُ فِي أَرْضِ الشَّامِ، فَسُرَّ ﷺ بِذَلِكَ.

وَكَانَ فِي «مَكَّةَ» رَجُلٌ اسْمُهُ «نَوْفَلُ بْنُ خُوَيْلِدِ بْنِ الْعَدَوِيَّةِ» وَيُلَقَّبُ بِـ «أَسَدِ قُرَيْشٍ»، شَدِيدَ الْبَأْسِ وَالْبَطْشِ، فَلَمَّا عَلِمَ بِإِسْلَامِ الرَّجُلَيْنِ «أَبِي بَكْرٍ» وَ«طَلْحَةَ» أَمْسَكَ بِهِمَا وَشَدَّهُمَا فِي وَثَاقٍ وَاحِدٍ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَا يُدْعَيَانِ: «الْقَرِينَيْنِ».

فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِلًا:

ـ اللَّهُمَّ اكْفِنَا شَرَّ «ابْنِ الْعَدَوِيَّةِ».

فَانْتَصَرَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ وَخَلَّصُوهُمَا، لَا حُبًّا بِالْإِسْلَامِ، وَلَكِنْ تَأَثُّرًا بِالنَّزْعَةِ الْقَبَلِيَّةِ.

وَأَسْـلَمَ «الْأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الْأَرْقَمِ»، فَاتَّخَذَ الرَّسُـولُ ﷺ مِنْ دَارِهِ مَكَانًا يَأْوِي إِلَيْهِ الْمُسْـلِمُونَ، وَيَجْتَمِعُونَ لِيَتَدَارَسُوا وَيَتَعَلَّمُوا وَيَتَفَقَّهُوا، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ إِبْعَادِ الْأَنْظَارِ عَنْ بَيْتِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ.

وَفِي ذَاتِ يَـوْمٍ جَاءَ «أَبُو بَكْرٍ» ـ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ ـ إِلَى الْحَرَمِ، وَوَقَفَ فِي النَّاسِ مُعْلِنًا إِسْـلَامَهُ، وَخَطَبَ فِيهِمْ دَاعِيًا إِيَّاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَنَالَ مِنْ آلِهَتِهِمْ وَأَصْنَامِهِمْ، فَقَامُوا إِلَيْهِ، وَاسْـتَطَاعَ «عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ» أَنْ يُؤْذِيَـهُ، فَقَدْ ضَرَبَهُ عَلَى وَجْهِـهِ بِنَعْلَيْنِ مَخْصُوفَتَيْنِ حَتَّى سَـالَ الدَّمُ مِنْهُ وَغَطَّى جِسْمَهُ! عِنْدَئِذٍ ثَارَ قَوْمُ «أَبِي بَكْرٍ» مِنْ «بَنِي تَمِيمٍ»، فَحَجَزُوا بَيْنَ الْمُعْتَدِينَ وَبَيْنَهُ، ثُمَّ احْتَمَلُوهُ إِلَى دَارِهِ وَهُوَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَتَحَرَّكُ، وَعَادَ «بَنُو تَمِيمٍ» إِلَى الْحَـرَمِ وَأَعْلَنُوا أَنَّهُ لَوْ مَاتَ «أَبُو بَكْرٍ» فَسَيَنْتَقِمُونَ لَهُ بِقَتْلِ «عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ»!

وَقَامَ «أَبُو قُحَافَةَ» وَالِدُ «أَبِي بَكْرٍ» وَأُمُّهُ وَأَقَارِبُهُ يُسْعِفُونَهُ حَتَّى تَكَلَّمَ.

وَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ هُوَ سُؤَالُهُ:

ـ مَاذَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ؟

وَيَقْصِدُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الِاطْمِئْنَـانَ عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، هَلْ آذَاهُ أَحَدٌ أَوْ أَضَرَّ بِهِ؟

فَغَضِبَ «أَبُو قُحَافَةَ»، وَكَانَ مُشْـرِكًا مُتَعَصِّبًا، فَنَالَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَادَ «أَبُو بَكْرٍ» إِلَى صَمْتِهِ حَتَّى دَنَا اللَّيْلُ، ثُمَّ اقْتَرَبَتْ مِنْهُ أُمُّهُ تَسْـقِيهِ بَعْضَ

قَطَرَاتٍ مِنْ مَاءٍ، فَقَالَ لَهَا:

ـ مَاذَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ؟

فَقَالَتْ:

ـ مَا لِي عِلْمٌ بِصَاحِبِكَ هَذَا؟

فَقَالَ لَهَا:

ـ اذْهَبِي إِلَى دَارِ «أُمِّ جَمِيلِ بِنْتِ الْخَطَّابِ» وَاسْأَلِيهَا.

فَذَهَبَتْ «أُمُّ أَبِي بَكْرٍ» إِلَى دَارِ «أُمِّ جَمِيلٍ»، وَكَانَتْ تَكْتُمُ إِسْلَامَهَا، فَسَأَلَتْهَا عَنْ «مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ»، وَقَصَّتْ عَلَيْهَا قِصَّةَ «أَبِي بَكْرٍ» وَمَا فَعَلَ بِهِ «عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ».

خَشِيَتْ «أُمُّ جَمِيلٍ» عَلَى نَفْسِهَا، فَقَالَتْ:

ـ لَا أَعْرِفُ مَنْ هُوَ «مُحَمَّدٌ» وَ«أَبُو بَكْرٍ»، وَإِنْ شِئْتِ ذَهَبْتُ مَعَكِ إِلَى دَارِكِ.

وَأَتَيَا دَارَ «أَبِي بَكْرٍ»، فَلَمَّا اقْتَرَبَتْ «أُمُّ جَمِيلٍ» مِنْ فِرَاشِ «أَبِي بَكْرٍ» سَأَلَهَا:

ـ مَاذَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ؟

فَقَالَتْ:

ـ يَا «أَبَا بَكْرٍ» أُمُّكَ تَسْمَعُ!!

فَقَالَ لَهَا:

ـ لَا عَلَيْكِ.

فَقَالَتْ:

- هُوَ بِخَيْرٍ، صَالِحٌ وَسَلِيمٌ.

فَقَالَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ:

- خُذَانِي إِلَيْهِ.

فَلَمَّا أَوْغَلَ اللَّيْلُ فِي الظُّلْمَةِ، وَسَكَنَتِ الرِّجْلُ عَنِ الْحَرَكَةِ، وَلَفَّ الْهُدُوءُ طُرُقَاتِ وَأَحْيَاءَ «مَكَّةَ»، خَرَجَتَا بِهِ مِنَ الدَّارِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِمَا حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَهُنَاكَ كَانَ اللِّقَاءُ الْمُثِيرُ، فَقَدْ أَقْبَلَ ﷺ عَلَى «أَبِي بَكْرٍ» يُقَبِّلُ وَجْهَهُ حَيْثُ آذَاهُ «عُتْبَةُ»!

ثُمَّ قَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

- يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ أُمِّي بَرَّةٌ بِوَلَدِهَا، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَشْرَحَ صَدْرَهَا لِلْإِسْلَامِ.

فَدَعَا لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَدَعَاهَا، فَأَسْلَمَتْ وَآمَنَتْ، وَعَادَتْ بِوَلَدِهَا إِلَى الدَّارِ، وَقَدِ اكْتَسَبَ الْإِسْلَامُ قُوَّةً وَمَنَعَةً.

ظَلَّتِ الدَّعْوَةُ سِرِّيَّةً طَوَالَ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ...

وَمَعْنَى السِّرِّيَّةِ ـ كَيْ لَا يَخْتَلِطَ الْأَمْرُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ ـ هُوَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو الْأَفْرَادَ وَالْأَشْخَاصَ، مِمَّنْ يَتَوَسَّمُ فِيهِمُ الْخَيْرَ، إِلَى الْإِسْلَامِ سِرًّا، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ الْأَذَى، يَسْتَخْفِي وَلَا يُظْهِرُ دِينَهُ، وَمَنْ كَانَ فِي مَنَعَةٍ مِنْ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ فَإِنَّهُ كَانَ يُعْلِنُ ذَلِكَ وَلَوْ تَعَرَّضَ لِلْأَذَى، مُسْتَعْذِبًا ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَلَمْ تَكُنْ رِسَالَةُ وَنُبُوَّةُ «مُحَمَّدٍ» ﷺ أَوْ دَعْوَتُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ بِالَّذِي يَخْفَى، فَقَدْ أُعْلِنَ ذَلِكَ وَاشْتُهِرَ، وَعَرَفَ بِهِ الْقَاصِي وَالدَّانِي مِنَ النَّاسِ.

السِّرِّيَّةُ فَقَطْ فِي انْضِمَامِ الْأَفْرَادِ إِلَى مَوْكِبِ الْإِيمَانِ، وَصُفُوفِ الْإِسْلَامِ.

❊❊❊

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ ادْلَهَمَّ سَوَادُهَا، وَأَغْطَشَتْ (اِشْتَدَّتْ) ظُلْمَتُهَا، الْتَقَى عِنْدَ بَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ اثْنَانِ مِنْ أَهْلِ «مَكَّةَ»: أَحَدُهُمَا مِنَ الْأَعْيَانِ، مِنَ السَّادَةِ وَالْأَشْرَافِ، مِنْ عِلْيَةِ الْقَوْمِ، شَابٌّ يَعْرِفُهُ الْجَمِيعُ، يَعْرِفُونَهُ مِنْ غِنَاهُ وَأَنَاقَتِهِ وَدَلَالِهِ وَتَرَفُّهِهِ، هُوَ «مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ»...

وَثَانِيهُمَا شَابٌّ وَالِدُهُ مِنْ سَبْيِ الرُّومِ، أَصْلُهُ عَرَبِيٌّ، وَلَكِنَّهُ تَرَبَّى فِي دِيَارِ الرُّومِ وَفِي صَمِيمِ مُجْتَمَعِهِمْ، ثُمَّ سُبِيَ وَلَدُهُ وَبِيعَ فِي أَسْوَاقِ «مَكَّةَ»، هُوَ «صُهَيْبُ بْنُ سِنَانٍ الرُّومِيُّ».

الْتَقَيَا عِنْدَ الْبَابِ، فَسَأَلَ بَعْضُهُمَا بَعْضًا عَنْ حَاجَتِهِ وَغَرَضِهِ، فَإِذَا بِهِمَا عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدٍ، وَإِلَى هَدَفٍ وَاحِدٍ، الْإِيمَانُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ...

وَلَقَدْ كَانَ لِلِاثْنَيْنِ فِيمَا بَعْدُ مِنَ الْأَيَّامِ الْقَادِمَةِ شَأْنٌ أَيُّ شَأْنٍ فِي الْإِسْلَامِ.

وَسَمِعَ «أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ» عَنْ بُعْدٍ بِظُهُورِ نَبِيٍّ فِي «مَكَّةَ» يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، يَدْعُو إِلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ حَيٍّ قَيُّومٍ، لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَنَبْذِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تَشْفَعُ.

فَطَلَبَ إِلَى أَخِيهِ «أُنَيْسٍ» أَنْ يَأْتِيَ «مَكَّةَ» وَيَسْتَقْصِيَ الْخَبَرَ، فَذَهَبَ «أُنَيْسٌ» وَعَادَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشْفِ غَلِيلَ «أَبِي ذَرٍّ»، فَخَرَجَ بِنَفْسِهِ...

دَخَلَ الْحَرَمَ وَجَلَسَ فِي مَكَانٍ غَيْرِ قَصِيٍّ، عَلَيْهِ سِيمَاءُ السَّفَرِ الْبَعِيدِ، وَمَظَاهِرُ الْغُرْبَةِ، فَمَرَّ بِهِ الْفَتَى «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» وَحَادَثَهُ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مِنْ «غِفَارٍ»، فَاسْتَضَافَهُ فِي دَارِهِ، وَدُونَ أَنْ يَسْأَلَهُ عَنْ حَاجَتِهِ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي رَآهُ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ، فَدَعَاهُ إِلَى الدَّارِ وَلَمْ يَسْأَلْهُ أَيْضًا عَنْ حَاجَتِهِ وَسَبَبِ زِيَارَتِهِ لِمَكَّةَ.

وَكَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ...

وَهُنَا كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الِاسْتِفْسَارِ، فَأَنْبَأَ «أَبُو ذَرٍّ» «عَلِيًّا» عَنْ قَصْدِهِ، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَمَا أَسْرَعَ مَا آمَنَ الرَّجُلُ وَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ.

وَحَدَّثَ «أَبُو ذَرٍّ» رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَأْنِ إِعْلَانِ إِسْلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، وَدَعْوَتِهِمْ، فَنَهَاهُ ﷺ، فَأَبَى، وَخَرَجَ «أَبُو ذَرٍّ» تَوًّا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ إِلَى الْحَرَمِ، وَوَقَفَ يَخْطُبُ وَيَدْعُو وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَ وَعُقُولَ الْجَاهِلِيِّينَ، وَيَعِيبُ آلِهَتَهُمْ وَأَصْنَامَهُمْ.

فَقَامُوا إِلَيْهِ قَوْمَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَضَرَبُوهُ ضَرْبًا مُبَرِّحًا، حَتَّى أَسَالُوا دَمَهُ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمْ:

ـ وَيْلَكُمْ.. مَاذَا فَعَلْتُمْ؟! هَذَا رَجُلٌ مِنْ «غِفَارٍ»، وَقَوَافِلُكُمْ فِي ذَهَابِهَا

وَإِيَابِهَا مِنَ الشَّـــامِ تَمُرُّ عَلَيْهِمْ، فَهَلْ تُرِيـــدُونَ أَنْ تَقْطَعَ عَلَيْكُمُ الطَّرِيقَ وَتَسُدَّ عَلَيْكُمُ الْمَنَافِذَ؟! كُفُّوا.

فَكَفُّوا عَنْهُ، وَامْتَنَعُوا عَنْ إِيذَائِهِ، فَقَامَ «أَبُو ذَرٍّ» وَقَالَ: لَئِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا.

وَيَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَمْضِيَ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ، مُعْلِنًا إِسْلَامَهُ، مُبَيِّنًا جَهَالَتَهُمْ وَضَلَالَتَهُمْ، فَإِنْ عَادُوا إِلَى ضَرْبِهِ عَادَ إِلَى إِعْلَانِ دَعْوَتِهِ.

وَكَانَ «حَمْزَةُ بْنُ عَبْـــدِ الْمُطَّلِبِ» ـ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَخُوهُ مِنَ الرَّضَاعِ ـ صَاحِبَ لَهْوٍ وَقَنْصٍ وَصَيْدٍ وَشَـــرَابٍ، لَا يَهْتَمُّ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ بِشَأْنِ الدَّعْوَةِ الَّتِي رَفَعَ لِوَاءَهَا ابْنُ أَخِيهِ؛ شَـــغَلَتْهُ أُمُورُ دُنْيَاهُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ.

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ إِذَا عَادَ مِـــنْ قَنْصِهِ، يَأْتِي «الْكَعْبَةَ» فَيَطُوفُ بِهَا، ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى بَيْتِهِ.

وَفِي يَـــوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ قَادِمًـــا إِلَى «الْكَعْبَةِ» لَقِيَتْهُ امْـــرَأَةٌ، فَأَخْبَرَتْهُ بِأَنَّ «أَبَا جَهْلٍ» ـ عَمْرَو بْنَ هِشَامٍ ـ قَدْ سَبَّ ابْنَ أَخِيهِ «مُحَمَّدًا» سَبًّا قَبِيحًا عَلَى مَلَإٍ مِنَ النَّاسِ فِي فِنَاءِ «الْكَعْبَةِ»، وَآذَاهُ، وَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ «مُحَمَّدٌ»...

فَاسْتَشَاطَ «حَمْزَةُ» غَضَبًا، وَثَارَ غَيْظًا، وَكَانَتْ فِيهِ حَمِيَّةٌ عَائِلِيَّةٌ شَدِيدَةٌ، فَبَادَرَ مُسْـــرِعًا إِلَى فِنَاءِ «الْكَعْبَةِ»، فَرَأَى «أَبَا جَهْلٍ» جَالِسًـــا فِي حَلْقَةٍ مِنَ السَّادَةِ، فَوَقَفَ عِنْدَ رَأْسِهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ بِقَوْسِهِ ضَرْبَةً شَجَّتْهُ وَجَرَحَتْهُ، وَقَالَ لَهُ:

ـ أَتَسُبُّهُ يَا «أَبَا الْحَكَمِ» وَأَنَا عَلَى دِينِهِ؟!

فَقَامَ إِلَيْهِ الْجَمِيعُ يُرِيدُونَ مُشَاجَرَتَهُ، فَتَصَدَّى لَهُمْ، ثُمَّ قَالَ «أَبُو جَهْلٍ»:

- دَعُوا «أَبَا عِمَارَةَ» فَإِنِّي وَاللهِ قَدْ نِلْتُ مِنِ ابْنِ أَخِيهِ وَآذَيْتُهُ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا مُشَاجَرَةَ «حَمْزَةَ»، لَكَانَ قَادِرًا عَلَى مُجَابَهَتِهِمْ وَرَدِّهِمْ، إِلَّا أَنَّ «أَبَا جَهْلٍ» تَدَارَكَ الْمَوْقِفَ، وَعَلِمَ أَنَّ فِي ذَلِكَ نُشُوبَ مَعْرَكَةٍ بَيْنَ «بَنِي هَاشِمٍ» وَالْآخَرِينَ، وَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِي شَيْءٍ.

ذَهَبَ «حَمْزَةُ» بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى دَارِهِ، وَلَمْ يَنَمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَقَدْ كَانَ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ صِرَاعٌ شَدِيدٌ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ، يُحَدِّثُهُ ضَمِيرُهُ بِالْحَقِّ، وَتُوَسْوِسُ لَهُ نَفْسُهُ وَشَيْطَانُهُ بِالسُّوءِ.

وَمَعَ إِطْلَالَةِ الْفَجْرِ كَانَ يَمْضِي مُتَعَثِّرَ الْخُطَى إِلَى دَارِ ابْنِ أَخِيهِ «مُحَمَّدٍ»، وَيُحَدِّثُهُ بِمَا يَجُولُ فِي نَفْسِهِ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ الشَّرِيفَةَ عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ حَدَّثَهُ، وَذَكَّرَهُ وَوَعَظَهُ وَخَوَّفَهُ، وَدَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمَ وَآمَنَ.

وَاعْتَزَّ الْمُسْلِمُونَ بِـ «حَمْزَةَ»، وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُمْ.

وَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِلًا:

- اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَدِ الْعُمَرَيْنِ «عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ»، أَوْ «عَمْرِو بْنِ هِشَامٍ».

إِذْ كَانَا مِنْ أَشَدِّ الْمُشْرِكِينَ عَدَاوَةً لِلهِ وَرَسُولِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى دَعَاءَ نَبِيِّهِ ﷺ.

كَانَ «عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» فِي جَمْعٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَجْلِسُونَ حَوْلَ «الْكَعْبَةِ»، فَهُنَاكَ مُلْتَقَاهُمْ، وَهُنَاكَ مُنْتَدَاهُمْ.

يَتَحَدَّثُونَ فِي أَمْرِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ وَكَيْفَ يُؤَثِّرُ عَلَى النَّاسِ، حَتَّى إِنَّ عَبِيدَهُمْ وَأَرِقَّاءَهُمْ نَبَذُوا طَاعَتَهُمْ وَاتَّبَعُوهُ، فَقَالَ «عُمَرُ»:

ـ لَنْ نَسْتَرِيحَ حَتَّى نَقْتُلَ «مُحَمَّدًا».

ثُمَّ قَامَ غَاضِبًا تَتَوَقَّدُ عَيْنَاهُ بِالشَّرَرِ، وَقَبْلَ أَنْ يَمْضِيَ مَالَ إِلَيْهِ أَحَدُ النَّاسِ وَقَالَ:

ـ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَ «مُحَمَّدًا» أَصْلِحْ بَيْتَكَ!!

فَالْتَفَتَ «عُمَرُ» وَقَدِ اشْتَدَّ أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِ، وَقَالَ:

ـ مَاذَا تَعْنِي؟

قَالَ الرَّجُلُ:

ـ أُخْتُكَ «فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ» وَزَوْجُهَا «سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ» قَدْ صَبَوَا (دَخَلَا الإِسْلَام).

عِنْدَئِذٍ، غَادَرَ «عُمَرُ» الْجَمْعَ مُسْرِعًا إِلَى دَارِ أُخْتِهِ؛ وَلَمَّا وَصَلَ سَمِعَ مِنْ دَاخِلِ الدَّارِ هَيْنَمَةً وَتِلَاوَةً، فَقَرَعَ الْبَابَ قَرْعًا شَدِيدًا.

كَانَ فِي الدَّاخِلِ «خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ» يَقْرَأُ صَدْرًا مِنْ سُورَةِ «طه» عَلَى «فَاطِمَةَ» وَ«سَعِيدٍ»، فَأَخْفَوُا الصَّحِيفَةَ، وَاخْتَبَأَ «خَبَابٌ»، وَاسْتَقْبَلَ الزَّوْجَانِ «ابْنَ الْخَطَّابِ»؛ فَقَالَ «عُمَرُ»:

- مَا هِذِهِ الْهَيْنَمَةُ الَّتِي سَمِعْتُ؟!

لَمْ تَخَفْ «فَاطِمَةُ»، بَلْ أَعْلَنَتْ إِسْلَامَهَا، وَقَالَتْ إِنَّهَا مَعَ زَوْجِهَا كَانَتْ تَقْرَأُ كَلَامَ اللهِ، فَتَقَدَّمَ مِنْهَا «عُمَرُ» يُرِيدُ ضَرْبَهَا، فَوَقَفَ بَيْنَهُمَا «سَعِيدٌ»، فَضَرَبَهُ «عُمَرُ» فَشَجَّهُ وَأَسَالَ دَمَهُ، وَطَرَحَهُ أَرْضًا!

وَلَعَلَّ مَنْظَرَ الدِّمَاءِ قَدْ حَرَّكَ فِي نَفْسِ «عُمَرَ» نَزْعَةَ النَّدَمِ وَالْخَيْرِ، فَرَاجَعَ نَفْسَهُ، ثُمَّ قَالَ لِـ «فَاطِمَةَ»:

- أَيْنَ الصَّحِيفَةُ؟

فَأَبَتْ أَنْ تُظْهِرَهَا خَوْفًا مِنْ تَمْزِيقِهَا، لَكِنَّ «عُمَرَ» أَلَحَّ مُبْدِيًا بَعْضَ اللِّينِ. فَأَخْرَجَتْهَا لَهُ، فَلَمَّا قَرَأَ بَعْضًا مِنْهَا، جَلَسَ بَعْدَ أَنْ كَانَ وَاقِفًا، ثُمَّ بَدَأَ الْكَلَامُ الْإِلَهِيُّ يَأْخُذُ سَبِيلَهُ إِلَى قَلْبِهِ، وَرَاحَ يُحَادِثُ «فَاطِمَةَ» وَ«زَوْجَهَا».

ثُمَّ قَالَ:

- أَيْنَ «مُحَمَّدٌ»؟!

فَأَبَتْ أَنْ تُخْبِرَهُ عَنْ مَكَانِهِ.

فَقَالَ:

- لَا أُرِيدُ بِهِ شَرًّا، وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْلِنَ إِسْلَامِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

عِنْدَئِذٍ خَرَجَ «خَبَّابٌ» مِنْ مَخْبَئِهِ، وَقَالَ:

- يَا «عُمَرُ» سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْأَمْسِ يَدْعُو قَائِلًا: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَدِ الْعُمَرَيْنِ»، فَكُنْ أَنْتَ السَّبَّاقَ إِلَى ذَلِكَ.

وَبَدَا الْبِشْرُ عَلَى وُجُوهِ الْجَمِيعِ.

ثُمَّ خَـرَجَ «عُمَرُ» بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي دَخَلَ بِـهِ دَارَ أُخْتِهِ «فَاطِمَةَ»؛ يَتَلَأْلَأُ جَبِينُهُ بِنُورٍ يَكَادُ يُشِعُّ وَيُضِيءُ.

خَـرَجَ مُتَوَجِّهًـا إِلَى دَارِ «الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِـي الْأَرْقَمِ»، كَمَـا أَخْبَرَتْهُ أُخْتُهُ «فَاطِمَةُ»؛ فَلَمَّا وَصَلَ وَقَرَعَ الْبَابَ، قَـامَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ يَنْظُرُ مَنِ الطَّارِقُ، ثُمَّ قَالَ فِي جَزَعٍ:

- إِنَّهُ «ابْنُ الْخَطَّابِ» يَا رَسُولَ اللهِ!!

قَالَ «حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -:

- إِنْ كَانَ جَـاءَ يُرِيدُ خَيْـرًا، فَمَرْحَبًا بِهِ، وَإِنْ كَانَ جَاءَ يُرِيدُ شَـرًّا، قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ.

ثُمَّ نَطَقَ ﷺ فَقَالَ:

- أَبْشِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ «عُمَرُ» وَغُرَّةُ الْإِسْلَامِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ؛ افْتَحُوا لَهُ الْبَابَ.

فُتِحَ الْبَابُ وَدَخَلَ «عُمَـرُ»، وَتَرَاجَعَ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ إِلَى الْوَرَاءِ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ رَسُـولِ اللهِ ﷺ فِي الْمُوَاجَهَةِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ مِنْ «عُمَـرَ» الَّذِي خَطَا بَعْضَ الْخُطُوَاتِ، ثُمَّ أَمْسَـكَ بِهِ مِنْ تَلَابِيبِ ثَوْبِهِ وَجَذَبَـهُ جَذْبَةً قَوِيَّةً، حَزَّتْ فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

- أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تُسْلِمَ يَا «ابْنَ الْخَطَّابِ»؟!

فَقَالَ «عُمَرُ» عَلَى الْفَوْرِ:

- أَشْـــهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ ـ يَا «مُحَمَّدُ» ـ رَسُولُ اللهِ.

فَهَلَّـــلَ الْجَمِيعُ وَكَبَّرُوا، اعْتِـــزَازًا وَافْتِخَارًا، وَكَانَ يَوْمًـــا أَغَرَّ فِي تَارِيخِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

❊❊❊

بَعْدَ أَيَّامٍ، وَقَدْ تَمَكَّنَ الْإِيمَانُ مِنْ قَلْبِ «عُمَرَ»، وَكَانَ رَجُلًا شَدِيدًا قَوِيًّا لَا يَرْهَبُ وَلَا يَخَافُ وَلَا يَخْشَى، قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

- أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟!

فَقَالَ ﷺ:

- بَلَى...

فَقَالَ «عُمَرُ»:

- أَوَلَيْسُوا عَلَى الْبَاطِلِ؟!

فَقَالَ ﷺ:

- بَلَى...

فَقَالَ «عُمَرُ»:

- فَعَلَامَ نَسْتَخْفِي؛ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ بَشِـــيرًا وَنَذِيرًا لَنْ أَتْرُكَ مَوْقِفًا أَوْ مَكَانًا وَقَفْتُ فِيـــهِ مَوْقِفَ الْعَدَاوَةِ لَكَ وَلِدِينِـــكَ، إِلَّا وَقَفْتُ فِيهِ مَوْقِفَ الْمُؤَيِّدِ الْمُعْلِنِ.

ثُمَّ خَرَجَ «عُمَـرُ» إِلَى الْحَرَمِ، وَوَقَفَ قَرِيبًا مِنَ «الْكَعْبَةِ» يُنَادِي وَيُعْلِنُ إِلَى الْإِسْـلَامِ، وَيَسُـبُّ آلِهَةَ قُرَيْشٍ وَأَصْنَامَهَا، فَقَامَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَكَانُوا كَثِيرِينَ، وَاشْـتَبَكُوا مَعَهُ فِي قِتَالٍ ضَارٍ مَرِيرٍ، وَاسْتَطَاعَ ـ رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ ـ أَنْ يَرُدَّ عَنْ نَفْسِـهِ كُلَّ ضَرْبَـةٍ، وَأَنْ يَرُدَّهُمْ جَمِيعًا خَائِبِينَ.

فَلَمَّا لَمْ يُفْلِحُوا مَعَهُ، وَلَمْ يَسْـتَطِيعُوا النَّيْلَ مِنْهُ كَفُّوا، وَتَرَاجَعُوا، ثُمَّ مَضَى مِنْ بَيْنِهِـمْ مَرْفُوعَ الْهَامَةِ عَالِيَ الْجَبِينِ، عَزِيزًا قَوِيًّا.

أَوَّلُ الشُّهَدَاءِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأَحْزَابُ: 23).

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«أَبْشِرُوا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ».

❊❊❊

وَبَدَأَتِ الْفِتْنَةُ...

فِتْنَةُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ إِيمَانِهِمْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَإِعَادَتِهِمْ إِلَى أَسْرِ الشِّرْكِ، وَحَظِيرَةِ الْكُفْرِ وَالطَّاغُوتِ.

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِإِعْلَانِ الدَّعْوَةِ، وَإِشْهَارِ الْإِسْلَامِ، وَإِظْهَارِ الدِّينِ، وَذَلِكَ حِينَ أَوْحَى إِلَيْهِ قَوْلَهُ:

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (الحِجْرُ: 94).

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مِنْ قَبْلُ يَسْتَخْفُونَ، فَإِذَا أَرَادُوا صَلَاةً أَوْ عِبَادَةً، خَرَجُوا إِلَى شِعَابِ «مَكَّةَ»، وَجِبَالِهَا، بَعِيدًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَالرُّقَبَاءِ؛ وَإِذَا أَرَادُوا اجْتِمَاعًا أَغْلَقُوا عَلَيْهِمُ الْأَبْوَابَ، وَتَسَلَّلُوا إِلَيْهِ لَيْلًا بَعْدَ أَنْ تَرْقُدَ الْأَجْسَامُ وَتُطْبَقَ الْعُيُونُ.

لِهَذَا كَانَ الصِّرَاعُ فَاتِرًا، لَمْ يَأْخُذْ شَكْلَ الْجِدَّةِ وَالْعُنْفِ وَالْقَسْوَةِ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحَاوِرُونَ بِاللِّسَانِ، وَيَرُدُّونَ عَنْ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَأَوْثَانِهِمْ بِالْكَلِمَةِ.

أَمَا وَقَدْ أَسْفَرَتِ الدَّعْوَةُ عَنْ وَجْهِهَا وَاسْتَعْلَنَتْ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ خَطِيرٌ وَكَبِيرٌ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُوَاجَهَتِهِ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ، وَبِمُخْتَلِفِ الطُّرُقِ.

وَلَقَدْ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْكِبَارِ وَالْأَحْرَارِ، فَلِكُلٍّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَحْمِيهِ وَيَمْنَعُهُ، لَهُ أَهْلٌ وَعَشِيرَةٌ، وَلَهُ قَوْمٌ وَقَبِيلَةٌ، أَمَّا الضِّعَافُ الْأَرِقَّاءُ فَهُمْ أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ... وَقَدْ يَكُونُ تَعْذِيبُهُمْ وَفِتْنَتُهُمْ رَادِعًا لِغَيْرِهِمْ...

وَانْطَلَقُوا فِي تَنْفِيذِ مَآرِبِهِمْ وَغَايَاتِهِمْ فِي شِدَّةٍ وَقَسْوَةٍ.

كَانَ «بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ الْحَبَشِيُّ» عَبْدًا مَمْلُوكًا لِسَيِّدٍ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ، هُوَ «أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ»؛ وَكَانَ مَحْبُوبًا مِنْ سَيِّدِهِ مَوْثُوقًا مِنْهُ، لِمَا كَانَ عَلَيْهِ «بِلَالٌ» مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْأَمَانَةِ وَالنَّشَاطِ.

خَرَجَ ذَاتَ مَرَّةٍ فِي قَافِلَةٍ إِلَى الشَّامِ قَيِّمًا عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ، وَفِي الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ كَانَتْ سَلْوَاهُ فِي مُحَادَثَةِ «أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ» وَمُسَايَرَتِهِ؛ فَقَدْ وَجَدَ فِيهِ شَخْصًا لَطِيفًا جَذَّابَ الْحَدِيثِ، آسِرًا، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ الْبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ.

وَحِينَ وَصَلَ الرَّكْبُ إِلَى «بُصْرَى»، وَقَصَدَ «أَبُو بَكْرٍ» إِلَى الرَّاهِبِ «بُحَيْرَى» فِي صَوْمَعَتِهِ، عَلَى جَارِي عَادَةِ التُّجَّارِ الْعَرَبِ فِي لِقَائِهِ وَمُحَادَثَتِهِ وَالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ، ذَهَبَ مَعَهُ «بِلَالٌ»...

وَهُنَاكَ سَمِعَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ كَلَامًا لَمْ يَدْرِ لَهُ تَفْسِيرًا، وَلَمْ يَعْرِفْ دَلَالَتَهُ، سَمِعَ بِكَلِمَاتِ: الْوَحْيِ، وَالنُّبُوَّةِ وَغَيْرِهَا.

وَحِينَ عَادَا مِنْ لَدُنِ الرَّاهِبِ «بُحَيْرَى» حَاوَلَ «بِلَالٌ» أَنْ يَعْرِفَ مِنْ «أَبِي بَكْرٍ» مَدْلُولَاتِهَا، فَلَمْ يَحْظَ بِمَا يُرِيحُ نَفْسَهُ؛ وَظَلَّ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهَا.

مَضَتْ أَيَّامٌ...

وَعَادَتِ الْقَافِلَةُ إِلَى «مَكَّةَ»، وَطَرِبَ «أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ» لِمَا جَنَاهُ رَقِيقُهُ مِنْ أَرْبَاحٍ، فَكَافَأَهُ بِبَعْضِ الدَّرَاهِمِ وَالْأَمْتِعَةِ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى «الْكَعْبَةِ»، وَيُقَدِّمَ قُرْبَانًا لِلْآلِهَةِ.

وَقَفَ «بِلَالٌ» أَمَامَ الْأَصْنَامِ بَعْدَ أَنْ فَعَلَ مَا أَمَرَهُ سَيِّدُهُ، يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَقَدْ تَذَكَّرَ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ الرَّاهِبِ «بُحَيْرَى»، وَجَالَتْ فِي رَأْسِهِ أَفْكَارٌ وَأَفْكَارٌ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الدَّارِ وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ، فَأَوَى إِلَى فِرَاشِهِ وَنَامَ.

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ بَيْنَمَا كَانَ يَغُطُّ فِي نَوْمِهِ، سَمِعَ قَرْعًا عَلَى بَابِ غُرْفَتِهِ، فَاسْتَيْقَظَ وَصَاحَ:

- مَنِ الطَّارِقُ؟

فَقَالَ الصَّوْتُ مِنَ الْخَارِجِ بِهَمْسٍ:

- أَنَا «أَبُو بَكْرٍ»، صَدِيقُكَ فِي الرِّحْلَةِ إِلَى الشَّـــامِ؛ افْتَحْ يَا «بِلَالُ» فَقَدْ ظَهَرَ النَّبِيُّ الْمُنْتَظَرُ...

وَفَتَحَ «بِلَالٌ» الْبَابَ، وَاسْـــتَقْبَلَ «أَبَا بَكْرٍ»، وَجَلَسَا يَتَحَدَّثَانِ، قَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

- لَقَدْ ظَهَرَ النَّبِيُّ الْمُنْتَظَرُ يَا «بِلَالُ»، إِنَّهُ «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ».

فَقَالَ «بِلَالٌ»:

- «الْأَمِينُ».

قَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

- نَعَـــمْ. وَلَقَدْ جَاءَ بِكَلَامٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ يَدْعُـــو إِلَى نَبْذِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنِ النَّاسِ، وَإِشَـــاعَةِ الْعَدْلِ بَيْنَهُمْ، وَتَسَاوِي الْخَلْقِ أَمَامَ الْحَقِّ، فَلَا سَادَةَ وَلَا عَبِيدَ، بَلِ الْكُلُّ أَحْرَارٌ أَبْرَارٌ...

وَاسْتَرْسَلَ «أَبُو بَكْرٍ» فِي الْحَدِيثِ، وَ«بِلَالٌ» يُصْغِي، ثُمَّ غَابَ بِوَعْيِهِ عَنْ مُحَدِّثِهِ، وَتَذَكَّرَ نَفْسَـــهُ أَمَامَ «هُبَلَ» ـ صَنَمِ قُرَيْشٍ الْأَكْبَرِ ـ يُقَدِّمُ لَهُ الْقُرْبَانَ، وَالْحَجَرُ لَا يَدْرِي شَيْئًا!

وَسَرَحَ بِفِكْرِهِ طَوِيلًا، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى «أَبِي بَكْرٍ» وَقَالَ لَهُ:

- وَأَيْنَ «مُحَمَّدٌ» الْآنَ؟

قَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

- فِي دَارِ «الْأَرْقَمِ».

فَقَالَ «بِلَالٌ»:

ـ هَيَّا بِنَا إِلَيْهِ.

وَجَلَسَ «بِلَالٌ» بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَجْلِسَ التِّلْمِيذِ مِنَ الْمُعَلِّمِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ عِنْدِهِ إِلَّا وَقَدْ أَصْبَحَ إِنْسَانًا آخَرَ؛ عَقْلًا وَوِجْدَانًا وَحِسًّا وَشُعُورًا.

وَاسْتَمَرَّ «بِلَالٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يُخْفِي إِيمَانَهُ وَإِسْلَامَهُ، حَتَّى عَلِمَ سَيِّدُهُ «أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ» بِمَا حَدَثَ مِنْهُ، فَأَخَذَهُ أَوَّلًا بِاللِّينِ وَالْعَاطِفَةِ، وَقَالَ لَهُ:

ـ أَلَسْتُ أُلْبِسُكَ مِمَّا أَلْبَسُ، وَأُطْعِمُكَ مِمَّا أَطْعَمُ؟

وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَعُودَ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَإِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَأَبَى «بِلَالٌ»، وَرَفَضَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَى، وَشَرَحَ صَدْرَهُ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ.

أَخَذَتْ «أُمَيَّةَ» الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، فَضَرَبَهُ ضَرْبًا مُوجِعًا بِالسَّلَاسِلِ الْحَدِيدِيَّةِ، وَالْكَرَابِيجِ، حَتَّى أَدْمَى جِلْدَهُ، فَلَمْ يُذْعِنْ وَلَمْ يَسْتَسْلِمْ، فَقَيَّدَهُ وَحَبَسَهُ، وَمَنَعَ عَنْهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ، فَصَبَرَ «بِلَالٌ» عَلَى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، وَاسْتَعَانَ بِاللهِ تَعَالَى عَلَى مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالْأَذَى.

وَفِي فِنَاءِ «الْكَعْبَةِ» جَلَسَ «أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ» يُحَدِّثُ عَنْ عَبْدِهِ «بِلَالٍ»، وَعَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِنَادِ رَغْمَ سُوءِ الْعَذَابِ، وَقَسْوَةِ الْحِرْمَانِ، فَقَالَ «أَبُو جَهْلٍ»:

ـ هَلْ تَأْذَنُ لِي يَا «أُمَيَّةُ» فِي تَرْبِيَةِ هَذَا الْعَبْدِ الْمَارِقِ؛ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ؟!

فَقَالَ «أُمَيَّةُ»:

ـ دُونَكَ وَمَا تُرِيدُ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي كَانَ «بِلَالٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يُسَاقُ فِي أَنْحَاءِ «مَكَّةَ» وَطُرُقَاتِهَا، مُوَثَّقَ الْيَدَيْنِ، وَتَنْهَالُ عَلَيْهِ الْأَسْوَاطُ، وَيُقْذَفُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ!!

وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقَعُ أَرْضًا، فَتَخْتَلِطُ دِمَاؤُهُ بِتُرَابِ الْأَرْضِ، وَيُجَرُّ جَرًّا، حَتَّى بَلَغُوا بِهِ الصَّحْرَاءَ فِي أَطْرَافِ مَكَّةَ.

كَانَ «أَبُو جَهْلٍ» يَنْهَرُهُ، وَيَضْرِبُهُ وَيَشْتَدُّ، وَيَشْتُمُهُ وَيَقْسُو، ثُمَّ يَدْعُوهُ إِلَى تَرْكِ دِينِ «مُحَمَّدٍ»، فَيَقُولُ «بِلَالٌ»:

ـ أَحَدٌ... أَحَدٌ...

ثُمَّ أُلْقِيَ أَرْضًا، وَأَمَرَ «أَبُو جَهْلٍ» بِصَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ وُضِعَتْ عَلَى صَدْرِ «بِلَالٍ»، فَكَادَتْ تُزْهِقُ رُوحَهُ، وَتَكْتُمُ أَنْفَاسَهُ، لَكِنَّهُ صَبَرَ وَتَحَمَّلَ وَاسْتَعَانَ بِاللهِ.

طَلَبَ إِلَيْهِ «أَبُو جَهْلٍ» مِرَارًا وَتَكْرَارًا أَنْ يَكْفُرَ بِإِلَهِ «مُحَمَّدٍ»، لِيَتْرُكَهُ وَشَأْنَهُ وَيُرِيحَهُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

هُنَا، لَمْ يَسْتَطِعْ «بِلَالٌ» أَنْ يُحَرِّكَ فَمَهُ بِكَلِمَةٍ؛ فَقَدْ غَشِيَتْ عَيْنَاهُ مِنْ شِدَّةِ الشَّمْسِ وَمِنَ الْعَذَابِ، فَحَرَّكَ إِصْبَعَهُ السَّبَّابَةَ بِالشَّهَادَةِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ:

ـ أَحَدٌ... أَحَدٌ...

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَصَلَ «أَبُو بَكْرٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، بَعْدَ أَنْ عَلِمَ بِمَا يَحْدُثُ لِصَدِيقِهِ «بِلَالٍ»، فَتَقَدَّمَ مِنْ «أُمَيَّةَ» وَمِنْ «أَبِي جَهْلٍ» وَحَاوَلَ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ أَنْ يَصْرِفَهُمَا عَنْ عَذَابِ هَذَا الْمِسْكِينِ، فَلَمْ يَرُدَّا عَلَيْهِ، بَلْ أَمْعَنَا فِي إِيذَائِهِ وَتَعْذِيبِهِ.

عِنْدَئِذٍ قَالَ لِـ «أُمَيَّةَ»:

ـ أَتَبِيعُهُ يَا «أُمَيَّةُ»؟

فَقَالَ «أُمَيَّةُ»:

ـ نَعَمْ.

قَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

ـ وَكَمْ تُرِيدُ ثَمَنَهُ؟

قَالَ «أُمَيَّةُ»:

ـ خَمْسُ أَوَاقٍ ذَهَبًا.

قَالَ ذَلِكَ وَقَدْ تَغَامَزَ مَعَ «أَبِي جَهْلٍ»، ظَنًّا مِنْهُ بِأَنَّ «أَبَا بَكْرٍ» سَيَصْرِفُ النَّظَرَ عَنِ الشِّرَاءِ لِغَلَاءِ السِّعْرِ.

وَمَدَّ «أَبُو بَكْرٍ» يَدَهُ بِالْمَالِ، وَدَفَعَهُ إِلَى «أُمَيَّةَ»، ثُمَّ أَسْرَعَ إِلَى «بِلَالٍ» يَرْفَعُ الصَّخْرَةَ عَنِ صَدْرِهِ، وَبَيْنَمَا هُوَ مُنْهَمِكٌ فِي ذَلِكَ سَمِعَ «أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ» يَقُولُ لَهُ:

- وَاللهِ لَوْ دَفَعْتَ خَمْسَ أَوَاقٍ وَرَقًا لَبِعْتُهُ إِيَّاكَ.

فَقَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

- وَوَاللهِ لَوْ طَلَبْتَ مِئَةَ أُوقِيَّةٍ ذَهَبًا لَدَفَعْتُهَا لَكَ.

وَاحْتَمَلَ «أَبُو بَكْرٍ» صَاحِبَهُ «بِلَالًا» إِلَى دَارِهِ، وَهُنَاكَ أَسْعَفَهُ وَضَمَّدَ جِرَاحَهُ، وَأَرَاحَهُ، ثُمَّ قَدَّمَ لَهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، ثُمَّ مَضَيَا مَعًا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَلَمَّا رَآهُمَا قَادِمَيْنِ مِنْ بَعِيدٍ قَالَ ﷺ لِـ«أَبِي بَكْرٍ»:

- الشَّرِكَةَ يَا «أَبَا بَكْرٍ»...

(أَيْ أَنَّنِي أُرِيدُ مُشَارَكَتَكَ فِي «بِلَالٍ» بَعْدَمَا اشْتَرَيْتَهُ) وَهَذِهِ مُدَاعَبَةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

- لَقَدْ أَعْتَقْتُهُ حُرًّا... حُبًّا بِاللهِ وَرَسُولِهِ.

وَتَنَسَّمَ «بِلَالٌ» نَسِيمَ الْحُرِّيَّةِ، وَذَاقَ طَعْمَهَا الْحُلْوَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، إِذْ أَكْرَمَهُ اللهُ بِالْإِسْلَامِ، وَأَعَزَّهُ بِهِ.

وَلَمْ يَكُنْ «بِلَالٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ هُوَ الشَّخْصَ الْوَحِيدَ الَّذِي أَعْتَقَهُ «أَبُو بَكْرٍ»، فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ عَادَتَهُ مَعَ الْأَرِقَّاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَشْتَرِيهِمْ مِنْ

ذَوِيهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ؛ لِيَمْنَعَ عَنْهُمُ الْأَذَى، ثُمَّ يُعْتِقَهُمْ أَحْرَارًا... وَأَنْفَقَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ الْكَثِيرَ مِنْ مَالِهِ.

وَجَاءَ الْعَدَدُ الْعَدِيدُ مِنْ ضِعَافِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَشْكُونَ إِلَيْهِ مَا يَلْقَوْنَهُ مِنْ عَنَتِ الْمُشْرِكِينَ، وَظُلْمِهِمْ وَاسْتِبْدَادِهِمْ، وَيَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ ـ تَعَالَى ـ لَهُمْ؛ كَيْ يُخَفِّفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، وَأَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ الْبَلَاءَ، وَيَصْرِفَ عَنْهُمْ كَيْدَ الْكَافِرِينَ.

يُحَدِّثُنَا فِي هَذَا «خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَيَقُولُ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بِبُرْدَةٍ وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: أَلَا تَدْعُو اللهَ؟

فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرُّ الْوَجْهِ، ثُمَّ قَالَ:

«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ «صَنْعَاءَ» إِلَى «حَضْرَمَوْتَ» مَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ).

وَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيَمْلِكَ أَنْ يَدْفَعَ الْأَذَى عَنْ أَصْحَابِهِ إِلَّا بِتَثْبِيتِ الْقُلُوبِ الْمُؤْمِنَةِ عَلَى إِيمَانِهَا، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا ثَابِتَ الْإِيمَانِ صَرَفَ اللهُ

تَعَالَى عَنْهُ الْكَيْدَ، وَأَبْعَدَ عَنْـهُ الْأَذَى، وَمَنْ كَانَ ضَعِيفًا خَوَّارًا فَلَا خَيْرَ فِيهِ، إِلَّا لِنَفْسِهِ لَا لِغَيْرِهِ وَلَا لِدِينِهِ.

وَلَئِنْ أَنْجَى اللهُ ـ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ «بِلَالًا» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَخَلَّصَهُ مِنْ جَحِيمِ الْعَذَابِ، عَلَى يَدِ «الصِّدِّيقِ» ـ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ ـ فَإِنَّ هُنَاكَ مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَذَابِ الشَّـدِيدِ مِمَّا أَفْضَى بِـهِ إِلَى الْمَوْتِ، فَكَانُوا أَوَّلَ أَرْوَاحٍ تُزْهَقُ فِي سَبِيلِ اللهِ...

«يَاسِرٌ وَسُـمَيَّةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ... أَوَّلُ الشُّهَدَاءِ، وَعُنْوَانُ الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ، وَقُدْوَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ حِينٍ.

وَإِلَيْكَ الْقِصَّةَ...

جَاءَ «يَاسِرٌ» مِنَ الْيَمَنِ، مِنْ أَقْصَى الْجَنُوبِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَ أَخَوَيْنِ لَهُ إِلَى «مَكَّةَ»؛ بَحْثًا عَنْ أَخٍ ثَالِثٍ أَضَلُّوهُ.

وَاسْتَطَابَ «يَاسِرٌ» الْإِقَـامَةَ بِـ «مَكَّةَ»، بِجِوَارِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، مُؤْتَنِسًا بِالْكَعْبَةِ وَجَلَالِهَا.

وَدَخَـلَ فِي حِلْفِ «آلِ مَخْزُومٍ»، وَهَذِهِ كَانَتِ الْعَـادَةَ عِنْدَ الْعَرَبِ، مَنْ يَأْتِي غَرِيبًا لَا أَهْلَ لَهُ وَلَا عَشِيرَةَ، يُحَالِفُ أُنَاسًا يَكُونُونَ لَهُ أَهْلًا وَنَصِيرًا...

ثُمَّ زَوَّجُوهُ أَمَةً لَهُمْ تُدْعَى «سُمَيَّةَ بِنْتَ خَيَّاطٍ»، فَلَمَّا وَلَدَتْ لَهُ «عَمَّارًا» ابْنَهُ أَعْتَقُوهَا؛ وَظَلَّ «يَاسِرٌ» عَلَى الْوَلَاءِ وَالْوَفَاءِ لِآلِ «مَخْزُومٍ»...

شَـــبَّ «عَمَّارٌ» وَكَبِرَ، وَبَلَغَ مَبْلَغَ الشَّبَابِ، وَأَدْرَكَ الْفُرُوقَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ وَالطَّبَقِيَّةَ الَّتِي يَفْرِضُهَا الْمُجْتَمَعُ الْجَاهِلِيُّ عَلَى النَّاسِ، فَالسَّادَةُ هُمُ السَّادَةُ، وَالْعَبِيدُ هُمُ الْعَبِيدُ؛ وَلَا وَسَطَ بَيْنَهُمَا.

كَانَ يَشْـــعُرُ بِالْمَرَارَةِ رَغْمَ الْحُرِّيَّةِ وَالْعِتْقِ؛ لِأَنَّ الْوَلَاءَ لِـ«بَنِي مَخْزُومٍ» يَفْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ يُطِيعَهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ كَالْأَمِيرِ، أَوْ بِالْأَحْرَى كَالرَّقِيقِ لَا يَمْلِكُ الرَّأْيَ الْحُرَّ وَلَا الْقُدْرَةَ عَلَى التَّصَرُّفِ.

وَحِينَ بَزَغَ فَجْرُ الْإِسْـــلَامِ، وَاشْتَهَرَ أَمْرُ «مُحَمَّدٍ» ﷺ نَبِيًّا كَرِيمًا، يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وَرَفْعِ الْحَيْفِ وَالظُّلْمِ عَنِ الْمَحْرُومِينَ وَالضُّعَفَاءِ، وَإِلَى تَحْطِيمِ الْأَغْلَالِ وَالْقُيُودِ، وَإِطْلَاقِ الْعَقْلِ وَالْفَهْمِ مِنْ قَيْدِ الْجَاهِلِيَّةِ الْبَغِيضِ.

اسْتَهْوَاهُ ذَلِكَ، وَأَسَرَهُ، وَمَالَ إِلَيْهِ بِكُلِّيَّتِهِ، وَعِنْدَ بَابِ دَارِ «الْأَرْقَمِ» كَانَ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ اجْتَمَعُوا، «عَمَّارٌ» وَ«صُهَيْبٌ» وَ«مُصْعَبٌ».

أَسْلَمَ «عَمَّارٌ» وَآمَنَ، وَفَقِهَ الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى.

ثُمَّ عَادَ إِلَى الْبَيْتِ، فَدَعَا أُمَّهُ «سُـــمَيَّةَ» فَآمَنَتْ، ثُمَّ أَبَاهُ، فَأَسْلَمَ؛ وَمَضَتِ الْأُسْرَةُ الصَّغِيرَةُ عَلَى دَرْبِ الْيَقِينِ.

وَاسْتَشَـــاطَ «بَنُو مَخْزُومٍ» لَمَّا عَرَفُوا إِسْـــلَامَ «يَاسِرٍ» وَزَوْجَتِهِ «سُمَيَّةَ» وَ«عَمَّارٍ» ابْنِهِمَا.

وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ الْعَذَابِ مَعَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَدْ بَدَأَتْ، بَلْ أَخَذَتْ مَدَاهَا.

فَهُدِّدُوا فَلَمْ يَنْثَنُوا، ثُـمَّ عُذِّبُوا بِالضَّرْبِ وَالتَّجْوِيـعِ وَالتَّعْطِيشِ، فَلَمْ يَتَرَاجَعُـوا، وَقُيِّدُوا بِالسَّلَاسِـلِ وَحُبِسُـوا، فَلَمْ يَهِنُوا وَلَـمْ يَحْزَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ.

كَانُوا يُوضَعُونَ فِي الْمَاءِ حَتَّى يَغْمُرَ رُءُوسَهُمْ وَتَكَادُ أَنْفَاسُهُمْ تَذْهَبُ، ثُمَّ يُرْفَعُونَ لِيَقُولُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، فَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا بِكَلِمَةِ الْإِيمَانِ، فَيُعَادُونَ إِلَى الْمَاءِ... وَهَكَذَا.

حُمِّيَتْ أَسْـيَاخُ الْحَدِيدِ، وَكُوِيَتْ بِهَا أَجْسَادُهُمْ وَرُءُوسُهُمْ، وَخَلَّفَتْ فِي أَبْدَانِهِمْ آثَارَهَا الْوَحْشِيَّةَ، فَلَمْ يَتَزَحْزَحُوا...

وَمَرَّ ﷺ بِـ «عَمَّارٍ» وَهُوَ يُعَذَّبُ بِالنَّارِ، فَوَضَعَ يَدَهُ الشَّـرِيفَةَ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ: «يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى «عَمَّارٍ» كَمَا كُنْتِ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى «إِبْرَاهِيمَ».» وَدَمِعَتْ عَيْنَاهُ ﷺ.

وَكَذَلِكَ كَانَ يُفْعَلُ بِـ «صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ الرُّومِيِّ»، لَمْ يَتْرُكِ الطُّغَاةُ مِنْ قُرَيْشٍ وَسِـيلَةً مِنْ وَسَائِلِ التَّعْذِيبِ إِلَّا اسْـتَخْدَمُوهَا مَعَهُ، وَلَكِنْ لَمْ يَثْنِهِ ذَلِكَ عَنْ عَزْمِهِ وَإِيمَانِهِ.

وَأَخِيرًا خَرَجُوا بِهِمْ إِلَى الصَّحْرَاءِ...

رَبَطُوهُمْ إِلَى جُذُوعِ الْأَشْـجَارِ، وَانْهَالُـوا عَلَيْهِمْ بِالسِّـيَاطِ الْجِلْدِيَّةِ وَالسَّلَاسِـلِ الْحَدِيدِيَّةِ، بِحَيْثُ تَتَجَرَّحُ أَجْسَـادُهُمْ وَتَتَطَايَـرُ لُحُومُهُمْ، وَتَحْرِقُهُمْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ بِلَظَاهَا الشَّدِيدِ!!

يَخْتَلِطُ الْعَرَقُ بِالدَّمِ، وَالدُّمُوعُ بِالْآهَاتِ وَالْأَنَّاتِ...

وَ«سُمَيَّةُ» فِيهِمْ تَلْقَى مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْأَذَى، فَلَا تَلِينُ وَلَا تَتَرَاجَعُ وَلَا تَضْعُفُ.

وَكَانَ «أَبُو جَهْلٍ» - فِرْعَونُ «مَكَّةَ» وَطَاغِيَتُهَا - عَلَى رَأْسِ الزَّبَانِيَةِ مِنْ قُرَيْشٍ؛ يُوَجِّهُهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمْ، أَوْ يُحَمِّسُهُمْ إِنْ فَتَرَتْ هِمَّتُهُمْ عَنِ الْعَذَابِ، وَيُعْطِي أَوَامِرَهُ فِي التَّشْدِيدِ وَالْوَعِيدِ.

ثُمَّ إِنَّ «سُمَيَّةَ» بَصَقَتْ فِي وَجْهِهِ، فَمَا كَانَ مِنْ «أَبِي جَهْلٍ» إِلَّا أَنْ طَعَنَهَا بِحَرْبَتِهِ الَّتِي فِي يَدِهِ، طَعْنَةً دَخَلَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا وَخَرَجَتْ مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهَا! ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهَا الطَّاهِرَةُ، أَوَّلَ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَوَّلَ رُوحٍ أُزْهِقَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ كَمَا قَضَى زَوْجُهَا «يَاسِرٌ» تَحْتَ الْعَذَابِ.

وَمَرَّ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عَذَابِهِمْ وَفِتْنَتِهِمْ، وَرَأَى حَالَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّقَاءِ وَالْعَذَابِ، فَقَالُوا:

- ادْعُ لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ.

فَقَالَ:

- أَبْشِرُوا «آلَ يَاسِرٍ» فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ.

وَمَا زَالَ الْكَفَرَةُ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ «أَبُو جَهْلٍ»، يُعَذِّبُونَ «عَمَّارًا» وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ، وَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى نَالَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَدَحَ آلِهَتَهُمْ وَذَكَرَهَا بِخَيْرٍ.

ثُمَّ أَتَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا اسْتَقْبَلَهُ سَأَلَهُ:

- مَا وَرَاءَكَ يَا «عَمَّارُ»؟

فَقَالَ:

- شَرٌّ يَا رَسُولَ اللهِ! لَمْ يَتْرُكُونِي حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ.

فَسَأَلَهُ ﷺ:

- فَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟!

قَالَ:

- مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ.

فَقَالَ لَهُ «الْمُصْطَفَى» ﷺ:

- فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ.

أَيْ فَإِنْ عَادُوا إِلَى تَعْذِيبِكَ، فَعُدْ إِلَى تَضْلِيلِهِمْ وَخِدَاعِهِمْ؛ كَيْ تُحَافِظَ عَلَى نَفْسِكَ وَرُوحِكَ.

وَرَغْمَ كُلِّ هَذَا الْعَذَابِ وَالتَّنْكِيلِ.. رَغْمَ كُلِّ هَذَا الْإِرْهَابِ وَالْبَطْشِ، وَرَغْمَ كُلِّ هَذَا الْأَذَى، فَقَدْ ظَلَّتِ الدَّعْوَةُ آخِذَةً مَدَاهَا فِي الِانْتِشَارِ وَالِازْدِيَادِ؛ لِأَنَّ الْعَبِيدَ كَانُوا يَجِدُونَ فِيهَا حُرِّيَّتَهُمْ وَإِنْسَانِيَّتَهُمْ، وَالضُّعَفَاءَ يَجِدُونَ فِيهَا قُوَّتَهُمْ وَعِزَّتَهُمْ وَكَرَامَتَهُمْ، وَالْعُقَلَاءَ يَجِدُونَ فِيهَا خَلَاصَهُمْ مِنْ أَسْرِ التَّقَالِيدِ الْبَالِيَةِ، وَالْعَادَاتِ الضَّالَّةِ الْبَاغِيَةِ.

وَظَلَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقُدْوَةَ الصَّالِحَةَ لِكُلِّ الْأَصْحَابِ، فَكَمْ لَقِيَ مِنْ أَذًى! وَكَمْ تَعَرَّضَ لِسُوءٍ! وَكَمْ وَاجَهَهُ الْجُهَّالُ وَالطُّغَاةُ! حَتَّى إِنَّهُمُ انْكَبُّوا فَوْقَهُ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ سَاجِدٌ فِي فِنَاءِ «الْكَعْبَةِ»، يُرِيدُونَ أَنْ يُزْهِقُوا رُوحَهُ، وَيَقْضُوا عَلَى دَعْوَتِهِ بِالْقَضَاءِ عَلَيْهِ!!

وَرَآهُمُ الصِّدِّيقُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَدَمِعَتْ عَيْنَاهُ، وَأَسْرَعَ يُبَادِرُهُمْ وَيَدْفَعُهُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يَصْرُخُ فِيهِمْ:

ـ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ؟!

لَقَدِ اتَّسَمَتْ تِلْكَ الْفَتْرَةُ مِنْ تَارِيخِ الدَّعْوَةِ بِجِهَادٍ هُوَ صُورَةٌ مِنْ أَسْمَى أَنْوَاعِ الْجِهَادِ وَأَرْفَعِهِ؛ جِهَادِ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّضْحِيَةِ، جِهَادِ تَحَمُّلِ الْأَذَى، الْأَذَى حَتَّى الْمَوْتِ.

وَلَقَدْ كَانَ ﷺ الرَّائِدَ وَالْقَائِدَ، وَالْمَثَلَ الْأَعْلَى لِكُلِّ إِخْوَانِهِ وَأَصْحَابِهِ.

وَتَبَايَنَ النَّاسُ فِي تَحَمُّلِ ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْمِحْنَةِ مُعَافًى، وَمِنْهُمْ مَنْ عَالَجَ الْمَوْقِفَ بِالْفِرَارِ بِدِينِهِ خَوْفًا مِنَ الْفِتْنَةِ مُهَاجِرًا، وَكُلُّهُمْ مُنْتَظِرٌ فَرَجَ اللهِ تَعَالَى وَنَصْرَهُ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا.

❋❋❋

وَلَسَوْفَ نَعِيشُ فِي الْحَلْقَةِ الْقَادِمَةِ مَعَ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَذِنَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْهِجْرَةِ، الْهِجْرَةِ إِلَى الْحَبَشَةِ؛ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا.

الْهِجْرَةُ إِلَى الْحَبَشَةِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (آلَ عِمْرَانَ: 64).

❊❊❊

وَأَنْشَدَ «أَبُو طَالِبٍ» يَمْتَدِحُ «النَّجَاشِيَّ» مَلِكَ الْحَبَشَةِ:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ فِي النَّأْيِ «جَعْفَرٌ»

وَ«عَمْـرٌو» وَأَعْـدَاءُ الْعَـدُوِّ الْأَقَارِبُ

وَمَا نَـالَ أَفْعَالُ «النَّجَاشِـيِّ» «جَعْفَرًا»

وَأَصْحَابَـهُ أَوْ عَـاقَ ذَلِـكَ شَـاغِبُ

وَنَعْلَـمْ، أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ، أَنَّـكَ مَاجِدٌ

كَرِيمٌ، فَـلَا يَشْـقَى إِلَيْـكَ الْمُجَانِبُ

وَنَعْـــلَمْ بِـــأَنَّ اللهَ زَادَكَ بَسْطَـــةً
وَأَسْـبَابُ خَيْـرٍ كُلُّهَـا بِـكَ لَازِبُ

❊❊❊

... وَجَاءَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَشْكُونَ إِلَيْهِ اسْـتِفْحَالَ الشَّـرِّ وَالْأَذَى، وَتَفَاقُمَ الطُّغْيَانِ وَالظُّلْمِ، وَاسْتِعْلَاءَ قُرَيْشٍ وَاسْتِبْدَادَهَا، وَأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ.

وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِمَّنْ لَا يَجِدُ فِي «مَكَّـةَ» مَانِعًا وَلَا نَصِيرًا، خُصُوصًا وَأَنَّ قُرَيْشًـا لَمْ تَعُدْ تُفَرِّقُ فِي التَّعْذِيبِ وَالْفِتْنَـةِ وَالْأَذَى بَيْنَ حُرٍّ وَعَبْدٍ، بَيْنَ وَالٍ وَمَوْلًى، بَيْـنَ عَرَبِيٍّ وَغَيْرِ عَرَبِيٍّ، فَقَدْ أَعْمَاهَا الشِّـرْكُ وَاسْـتَهْوَاهَا الْكُفْرُ وَاسْتَبَدَّ بِهَا الْجَهْلُ.

أَمَّا رَسُـولُ اللهِ ﷺ فَقَدْ كَانَ فِي مَنَعَةٍ مِنَ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَلَقَدْ تَصَدَّى عَمُّهُ «أَبُو طَالِبٍ» ـ شَـيْخُ «بَنِي هَاشِـمٍ» ـ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْـلِ لِعَدَاءِ قُرَيْشٍ لِـ «مُحَمَّدٍ» ﷺ، فَنَصَرَهُ وَأَيَّدَهُ وَوَقَفَ إِلَى جَانِبِهِ وَلَوْ لَمْ يُسْـلِمْ؛ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ كُلُّهَا تَحْتَرِمُ رَأْيَ «أَبِي طَالِـبٍ» وَمَكَانَتَهُ، وَتُقَدِّرُ مَوْقِفَهُ، وَتُحَاذِرُ مِنَ الدُّخُولِ مَعَهُ فِي خُصُومَةٍ.

فَكَّرَ ﷺ فِي أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ جَاءُوهُ فُرَادَى وَجَمَاعَاتٍ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَجِدَ لَهُمْ مَخْرَجًا... ثُمَّ ارْتَأَى رَأْيًا.

وَفِي هَذَا الْمَجَالِ رِوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ، عَوَّلْنَا عَلَى اخْتِيَارِ رِوَايَةِ «أُمِّ سَلَمَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ لِتُحَدِّثَنَا عَنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْهُودِ فِي تَارِيخِ الدَّعْوَةِ، تَقُولُ «أُمُّ سَلَمَةَ»:

«لَمَّا ضَاقَتْ «مَكَّةُ»، وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفُتِنُوا وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنْ عَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ، وَمِمَّا يَنَالُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ».

فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا حَتَّى اجْتَمَعْنَا بِهَا».

وَقَبْلَ أَنْ نَمْضِيَ مَعَ «أُمِّ سَلَمَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ فِي حَدِيثِهَا، لَا بُدَّ أَنْ نَتَوَقَّفَ قَلِيلًا لِنَذْكُرَ الْوَدَاعَ وَأَثَرَهُ فِي النُّفُوسِ، وَالطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكَهَا الْمُهَاجِرُونَ، وَالْمَشَاقَّ الَّتِي تَحَمَّلُوهَا حَتَّى بَلَغُوا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، فَالْهِجْرَةُ لَيْسَتْ عَمَلِيَّةَ انْتِقَالٍ عَادِيَّةً مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، إِنَّهَا تَرْكُ وَطَنٍ وَأَهْلٍ... وَمَا أَصْعَبَ تَرْكَ الْوَطَنِ، وَمَا أَقْسَى مُفَارَقَةَ الْأَهْلِ!

وَدَّعَ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَتَهُ «رُقَيَّةَ» وَزَوْجَهَا «عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ وَدَّعَ فِلْذَةَ الْكَبِدِ وَبُضْعَةَ الْفُؤَادِ، دَاعِيًا اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَهُمَا وَيَحْفَظَ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ.

وَلَقَدْ كَانَتِ الدُّمُوعُ السَّخِيَّةُ السَّاخِنَةُ عُنْوَانَ هَذَا الْوَدَاعِ الْأَلِيمِ، مِنْ كُلِّ قَرِيبٍ لِقَرِيبِهِ، الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ...

ثُمَّ مَضَوْا يَسْتُرُهُمُ اللَّيْلُ بِاتِّجَاهِ السَّاحِلِ قَرِيبًا مِنْ «جُدَّةَ»، يَمْتَطُونَ ظُهُورَ الْإِبِلِ أَوْ مُشَاةً...

وَعِنْدَ سَاحِلِ الْبَحْرِ حَظَوْا بِسَفِينَةٍ أَقَلَّتْهُمْ، وَلَقَدْ لَاقَوْا مِنْ أَهْوَالِ الْبَحْرِ مَا لَمْ يَعْهَدُوهُ وَيَعْرِفُوهُ مِنْ قَبْلُ، حَتَّى نَزَلُوا شَاطِئَ بِلَادِ الْحَبَشَةِ، ثُمَّ تَوَجَّهُوا إِلَى عَاصِمَةِ الْبِلَادِ، وَمَقَامِ «النَّجَاشِيِّ».

وَلَا بُدَّ لَنَا أَنْ نَذْكُرَ مِنْهُمْ بِالْإِضَافَةِ إِلَى «عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ» وَزَوْجَتِهِ «رُقَيَّةَ»: «أَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ» وَزَوْجَتُهُ «سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ»، وَ«الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ»، وَ«مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ»، وَ«عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ»، وَ«أَبُو سَلَمَةَ ابْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ» وَامْرَأَتُهُ «أُمُّ سَلَمَةَ»، وَ«عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ»، وَ«عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ» وَامْرَأَتُهُ «لَيْلَى بِنْتُ أَبِي حَثْمَةَ»، وَ«أَبُو سَبْرَةَ بْنُ أَبِي رُهْمٍ»، وَ«سُهَيْلُ ابْنُ بَيْضَاءَ»، وَ«عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ»، وَ«جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»، وَغَيْرُهُمْ... حَتَّى قِيلَ: إِنَّ عَدَدَهُمْ بَلَغَ ثَلَاثَةً وَثَمَانِينَ شَخْصًا، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَنَعُودُ إِلَى حَدِيثِ «أُمِّ سَلَمَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ:

«فَنَزَلْنَا بِخَيْرِ دَارٍ إِلَى خَيْرِ جَارٍ، آمِنِينَ عَلَى دِينِنَا، وَلَمْ نَخْشَ فِيهَا ظُلْمًا.

فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّا قَدْ أَصَبْنَا دَارًا وَأَمْنًا، غَارُوا مِنَّا، فَاجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى «النَّجَاشِيِّ» فِينَا؛ لِيُخْرِجُونَا مِنْ بِلَادِهِ، وَلِيَرُدَّنَا عَلَيْهِمْ.

فَبَعَثُوا «عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ» ـ وَكَانَ لَا يَزَالُ عَلَى شِرْكِهِ ـ وَ«عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ» فَجَمَعُوا لَهُ هَدَايَا، وَلِبَطَارِكَتِهِ (رِجَالُ الدِّينِ عِنْدَهُ)، فَلَمْ يَدَعُوا مِنْهُمْ رَجُلًا إِلَّا هَيَّأُوا لَهُ هَدِيَّةً عَلَى حِدَةٍ، وَقَالُوا لَهُمَا:

ـ ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا فِيهِمْ، ثُمَّ ادْفَعُوا إِلَيْهِ هَدَايَاهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ فَافْعَلُوا.

فَقَدِمَا عَلَيْهِ، فَلَمْ يَبْقَ بِطْرِيقٌ مِنْ بَطَارِقَتِهِ إِلَّا قَدَّمُوا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ، فَكَلَّمُوهُمْ فَقَالُوا لَهُمْ:

ـ إِنَّمَا قَدِمْنَا عَلَى هَذَا الْمَلِكِ فِي سُفَهَائِنَا، فَارَقُوا أَقْوَامَهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، فَبَعَثَنَا قَوْمُهُمْ لِيَرُدَّهُمُ الْمَلِكُ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا نَحْنُ كَلَّمْنَاهُ فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يَفْعَلَ.

فَقَالُوا:

ـ نَفْعَلُ.

ثُمَّ قَدَّمُوا إِلَى «النَّجَاشِيِّ» هَدَايَاهُ، وَكَانَ مِنْ أَحَبِّ مَا يُهْدُونَ إِلَيْهِ مِنْ «مَكَّةَ» الْأُدْمُ، وَأَهْدَوْا إِلَيْهِ فَرَسًا وَجُبَّةً وَدِيبَاجًا، فَلَمَّا أَدْخَلُوا عَلَيْهِ هَدَايَاهُ، قَالُوا لَهُ:

ـ أَيُّهَا الْمَلِكُ؛ إِنَّ فِتْيَةً مِنَّا سُفَهَاءَ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ، وَقَدْ لَجَأُوا إِلَى بِلَادِكَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ

فِيهِمْ عَشَائِرُهُمْ؛ آبَاؤُهُمْ وَأَعْمَامُهُمْ وَقَوْمُهُمْ لِتَرُدَّهُمْ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا (مَعْرِفَةً)، وَإِنَّهُمْ لَنْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ فَتَمْنَعُهُمْ لِذَلِكَ.

فَغَضِبَ «النَّجَاشِيُّ» وَقَالَ:

- لَا... لَعَمْرُ اللهِ، لَا أَرُدُّهُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى أَدْعُوَهُمْ، فَأُكَلِّمَهُمْ وَأَنْظُرَ مَا أَمْرُهُمْ، قَوْمٌ لَجَأُوا إِلَى بِلَادِي وَاخْتَارُوا جِوَارِي عَلَى جِوَارِ غَيْرِي، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولُونَ رَدَدْتُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ، وَلَمْ أَدْخُلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَلَمْ أَنْعَمْ عَيْنًا.

ثُمَّ إِنَّ أُمَرَاءَهُ أَشَارُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، وَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ:

- لَا وَاللهِ حَتَّى أَسْمَعَ كَلَامَهُمْ، وَأَعْلَمَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ هُمْ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ سَلَّمُوا وَلَمْ يَسْجُدُوا لَهُ، فَقَالَ:

- أَيُّهَا الرَّهْطُ أَلَا تُحَدِّثُونِي مَا لَكُمْ لَا تُحَيُّونِي كَمَا يُحَيِّينِي مَنْ أَتَانِي مِنْ قَوْمِكُمْ؟ فَأَخْبِرُونِي مَاذَا تَقُولُونَ فِي «عِيسَى» وَمَا دِينُكُمْ؟ أَنَصَارَى أَنْتُمْ؟

قَالُوا:

- لَا.

قَالَ:

- أَفَيَهُودٌ أَنْتُمْ؟

قَالُوا:

- لَا.

قَالَ:

- فَعَلَى دِينِ قَوْمِكُمْ؟

قَالُوا:

- لَا.

قَالَ:

- فَمَا دِينُكُمْ؟

قَالُوا:

- الْإِسْلَامُ.

قَالَ:

- وَمَا الْإِسْلَامُ؟

قَالُوا:

- نَعْبُدُ اللهَ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.

قَالَ:

- مَنْ جَاءَكُمْ بِهَذَا؟

قَالُوا:

- جَاءَنَا بِهِ رَجُلٌ مِنْ أَنْفُسِنَا، قَدْ عَرَفْنَا وَجْهَهُ وَنَسَبَهُ، بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْنَا كَمَا بَعَثَ الرُّسُلَ إِلَى مَنْ قَبْلَنَا، فَأَمَرَنَا بِالْبِرِّ وَالصَّدَقَةِ وَالْوَفَاءِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَنَهَانَا

أَنْ نَعْبُدَ الْأَوْثَانَ، وَأَمَرَنَا بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَصَدَّقْنَاهُ وَعَرَفْنَا كَلَامَ اللهِ، وَعَلِمْنَا أَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَلَمَّا فَعَلْنَا ذَلِكَ عَادَانَا قَوْمُنَا، وَعَادُوا النَّبِيَّ الصَّادِقَ وَكَذَّبُوهُ، وَأَرَادُوا قَتْلَهُ، وَأَرَادُونَا عَلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَفَرَرْنَا إِلَيْكَ بِدِينِنَا وَدِمَائِنَا مِنْ قَوْمِنَا.

قَالَ «النَّجَاشِيُّ»:

- وَاللهِ إِنَّ هَذَا لَمِنَ الْمِشْكَاةِ (الْكُوَّةُ) الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا أَمْرُ «مُوسَى» وَ«عِيسَى».

فَقَالَ «جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ الْمُتَحَدِّثُ بِلِسَانِ الْمُسْلِمِينَ أَمَامَ «النَّجَاشِيِّ»:

- وَأَمَّا التَّحِيَّةُ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخْبَرَنَا أَنَّ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ السَّلَامُ؛ وَأَمَرَنَا بِذَلِكَ، فَحَيَّيْنَاكَ بِالَّذِي يُحَيِّي بِهِ بَعْضُنَا بَعْضًا.

وَأَمَّا «عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» فَعَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى «مَرْيَمَ» وَرُوحٌ مِنْهُ، وَابْنُ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ.

فَقَالَ «النَّجَاشِيُّ»:

- وَاللهِ مَا زَادَ «ابْنُ مَرْيَمَ» عَلَى هَذَا وَزْنَ هَذَا الْعُودِ.

فَقَالَ عُظَمَاءُ «الْحَبَشَةِ» مُسْتَنْكِرِينَ:

- وَاللهِ لَئِنْ سَمِعَتِ «الْحَبَشَةُ» لَتُخَلِّصَنَّكَ؟!

فَرَدَّ عَلَيْهِمُ «النَّجَاشِيُّ»:

- وَاللهِ لَا أَقُولُ فِي «عِيسَى» غَيْرَ هَذَا أَبَدًا، وَمَا أَطَاعَ اللهُ النَّاسَ فِيَّ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَأُطِيعَ النَّاسَ فِي دِينِ اللهِ، مَعَاذَ اللهِ مِنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ «النَّجَاشِيُّ» لِـ «جَعْفَرٍ»:

- هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ مِمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ؟

فَقَالَ «جَعْفَرٌ»:

- نَعَمْ.

فَقَالَ «النَّجَاشِيُّ»:

- هَلُمَّ فَاتْلُ عَلَيَّ مِمَّا جَاءَ بِهِ.

فَقَرَأَ عَلَيْهِ «جَعْفَرٌ» صَدْرًا مِنْ سُورَةِ «مَرْيَمَ»، فَبَكَى ـ وَاللهِ ـ «النَّجَاشِيُّ» حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ.

ثُمَّ قَالَ لَنَا:

- انْطَلِقُوا رَاشِدِينَ، لَا وَاللهِ، لَا أَرُدُّكُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا أُنْعِمُهُمْ عَيْنًا.

وَأَقَامَ الْمُسْلِمُونَ الْمُهَاجِرُونَ نَاعِمِينَ هَانِئِينَ مُطْمَئِنِّينَ فِي دِيَارِ «النَّجَاشِيِّ»، وَفِي أَرْضِ «الْحَبَشَةِ»، وَعَادَ الْوَفْدُ الْقُرَشِيُّ خَالِيَ الْوِفَاضِ لَمْ يَنَلْ خَيْرًا.

وَلَمْ يَكُنْ لِيَنْقُصَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ شَيْءٌ سِوَى بُعْدِهِمْ عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ، وَمُحَاوَلَتِهِمْ دَائِمًا تَسَقُّطَ أَخْبَارِ إِخْوَانِهِمْ فِي «مَكَّةَ»، وَمَعْرِفَةَ تَطَوُّرَاتِ الدَّعْوَةِ.

وَكَانَ جُلُّ هَمِّهِمْ يَنْصَبُّ عَلَى أَخْبَارِ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَمَا يَسْتَجِدُّ مِنْ أَحْوَالِهِ، وَمَا يَحْدُثُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ، وَمَا يَأْتِيهِ مِنَ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ الْكَرِيمِ.

وَحَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ...

فَقَدْ ذَرَّ قَرْنُ الْخِلَافِ بَيْنَ «النَّجَاشِيِّ» وَبَيْنَ أَحَدِ أَفْرَادِ أُسْرَتِهِ، وَانْقَسَمَتِ الْمَمْلَكَةُ عَلَى نَفْسِهَا، وَجَرَتْ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ حُرُوبٌ وَمَعَارِكُ.

فَخَافَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا انْتَصَرَ عَدُوُّ «النَّجَاشِيِّ» عَلَيْهِ، فَسَيَكُونُ مَصِيرُهُمْ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ عَلَى كَفِّ عِفْرِيتٍ، لَا يَدْرُونَ مَا سَيَحُلُّ بِهِمْ، وَمَا سَيَحْدُثُ لَهُمْ.

لَمْ يَتَدَخَّلُوا فِي هَذَا الصِّرَاعِ، وَلَمْ يَنْصُرُوا فَرِيقًا عَلَى فَرِيقٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَتِهِمْ، رَغْمَ أَنَّهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ وَفِي أَعْمَاقِ نُفُوسِهِمْ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ الْفَوْزَ لِـ«النَّجَاشِيِّ»، وَيَدْعُونَ اللهَ ـ تَعَالَى ـ أَنْ يَنْصُرَهُ.

وَفِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ مَيْدَانُ الْمَعْرَكَةِ قَرِيبًا مِنْ مَكَانِ إِقَامَتِهِمْ، لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ سِوَى نَهْرٍ عَظِيمِ الْمَاءِ؛ وَلَقَدْ أَرَادُوا أَنْ يَطْمَئِنُّوا إِلَى سَيْرِ الْمَعْرَكَةِ، فَتَشَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ مَاذَا يَفْعَلُونَ؟ وَكَيْفَ يَقِفُونَ عَلَى الْأَخْبَارِ؟

فَقَالَ لَهُمُ «الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ:

ـ أَنَا لَهَا...

وَكَانَ فَتًى حَدَثَ السِّنِّ، خَفِيفَ الْحَرَكَةِ، شُجَاعًا مِقْدَامًا جَرِيئًا، فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً، عَلَّقَهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَتَخَفَّفَ مِنْ ثِيَابِهِ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَى النَّهْرِ

يَسْبَحُ حَتَّى بَلَغَ الْعُدْوَةَ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ قَامَ يَعْدُو حَتَّى بَلَغَ مُرْتَفَعًا يَسْتَطِيعُ مِنْهُ أَنْ يُرَاقِبَ الْجَيْشَيْنِ الْمُتَحَارِبَيْنِ، وَمَكَثَ فِي مَكَانِهِ طَوِيلًا وَهُوَ يَرَى بَرِيقَ السُّيُوفِ، وَلَمَعَانَ الرِّمَاحِ، وَلَمَّا انْجَلَى الْمَوْقِفُ عَنِ انْتِصَارِ جَيْشِ «النَّجَاشِيِّ»، هَبَّ «الزُّبَيْرُ» مُسْرِعًا لِيُبَلِّغَ أَصْحَابَهُ النَّبَأَ وَيَزُفَّ إِلَيْهِمُ الْبُشْرَى؛ وَكَمْ كَانَتْ فَرْحَةُ الْمُسْلِمِينَ عَظِيمَةً فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْهُودِ.

❊❊❊

وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ، وَهُمْ فِي بُعْدِهِمْ عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ، يَتَشَوَّقُونَ دَائِمًا إِلَى قَادِمٍ مِنَ الْحِجَازِ يَعْرِفُونَ مِنْهُ أَخْبَارَ إِخْوَانِهِمْ؛ لِيَطْمَئِنُّوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَى مَنْ خَلَّفُوهُمْ وَرَاءَهُمْ عُرْضَةً لِلْفِتْنَةِ وَالْعَذَابِ.

وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ كَانُوا لَا يُعَوِّلُونَ فِي كَسْبِ الْعَيْشِ إِلَّا عَلَى سَوَاعِدِهِمْ وَجُهُودِهِمْ وَنَشَاطِهِمْ؛ حَتَّى لَا يَكُونُوا عَالَةً عَلَى النَّاسِ، يَتَكَفَّفُونَ رِزْقَهُمْ كَالطُّفَيْلِيِّينَ... فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ صَاحِبَ حِرْفَةٍ زَاوَلَهَا، وَمَنْ كَانَ صَاحِبَ مِهْنَةٍ حَمَلَ أَعْبَاءَهَا، وَنَزَلَ إِلَى مَيْدَانِ الْعَمَلِ.

وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُلَائِمْهُ جَوُّ الْبَلَدِ وَلَا مُنَاخُهُ وَلَا طَبِيعَتُهُ، فَمَرِضَ وَاعْتَلَّ، وَعَانَى مِنْ قَسْوَةِ الْحَيَاةِ وَظُرُوفِهَا الصَّعْبَةِ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ النَّائِيَةِ؛ وَآخَرُونَ كَانَ الشَّوْقُ يُسَيْطِرُ عَلَيْهِمْ سَيْطَرَةً كَامِلَةً، فَيَمْلِكُ عَلَيْهِمْ أَحَاسِيسَهُمْ وَمَشَاعِرَهُمْ، فَتَرَاهُمْ كَالتَّائِهِينَ لَا يَطِيبُ لَهُمْ شَيْءٌ، وَلَا يَقَرُّ لَهُمْ قَرَارٌ، وَهُمْ دَائِمًا فِي وَلَهٍ أَوْ بُكَاءٍ!

حَتَّى جَاءَهُمْ مَنْ يُخْبِرُهُمْ بِأَنَّ قُرَيْشًا قَدْ خَفَّتْ حِدَّةُ وَطْأَتِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَكَفَّتْ عَنْ أَذَاهُمْ وَمُضَايَقَتِهِمْ.

لِذَا اجْتَمَعُوا يَتَشَاوَرُونَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

- نَبْقَى وَنَسْتَقِرُّ حَتَّى يَأْتِينَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْإِذْنُ بِالْعَوْدَةِ.

وَقَالَ آخَرُونَ مِمَّنْ يَعْتَمِلُ الشَّوْقُ فِي نُفُوسِهِمْ وَأَفْئِدَتِهِمْ:

- بَلْ نَعُودُ... فَقَدْ طَالَتْ بِنَا الشُّقَّةُ، وَبَعُدَ بِنَا الْمَزَارُ عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ، وَأَيْضًا نُرِيدُ أَنْ نَكُونَ قَرِيبِينَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، نُعَضِّدُهُ وَنُؤَازِرُهُ، وَنَتَحَمَّلُ مَعَ إِخْوَانِنَا نَصِيبَنَا مِنَ الْجِهَادِ.

وَكَانَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَ وِجْهَةِ نَظَرٍ طَيِّبَةٍ وَمَقْبُولَةٍ، صَادِقَةِ الْحِسِّ وَالْفِكْرِ:

أَمَّا الْفَرِيقُ الْأَوَّلُ فَكَانَ صَاحِبَ الرَّأْيِ فِيهِ «جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَأَقَامَ فِي «الْحَبَشَةِ» وَبَقِيَ مَعَهُ مَنْ يُؤَيِّدُهُ وَيُوَافِقُهُ.

وَأَمَّا الْفَرِيقُ الثَّانِي فَقَدْ غَادَرُوا أَرْضَ الْحَبَشَةِ إِلَى «مَكَّةَ»، مَدْفُوعِينَ بِعَامِلِ الْعَاطِفَةِ الصَّادِقَةِ، وَالشَّوْقِ الطَّائِرِ.

فَلَمَّا وَصَلُوهَا وَجَدُوا أَنَّ الْأَمْرَ أَشَدُّ وَأَعْنَفُ مِمَّا تَرَكُوهُ؛ وَجَدُوا قُرَيْشًا قَدْ أَسْرَفَتْ وَتَطَاوَلَتْ، وَأَمْعَنَتْ فِي غَيِّهَا وَجَبَرُوتِهَا!! فَرِحُوا بِلِقَاءِ الْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ وَالْأَصْحَابِ، وَحَزِنُوا لِمَا وَجَدُوا عَلَيْهِ إِخْوَانَهُمْ مِنْ ضِيقٍ وَعَذَابٍ وَفِتْنَةٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِالْيَدِ حِيلَةٌ، وَهَا هُمْ فِي الْوَاجِهَةِ

يَتَحَمَّلُونَ مَـا يَتَحَمَّلُهُ إِخْوَانُهُمْ، وَيَتَقَاسَـمُونَ جَمِيعًا وَاجِبَ الدِّفَاعِ عَنِ الدَّعْوَةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْإِيذَاءِ.

وَلَمْ تُفْلِـحْ قُرَيْشٌ فِي فِتْنَةِ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ، رَغْمَ كُلِّ أَسَـالِيبِ الْبَطْشِ وَالْإِرْهَابِ الَّتِي اسْتَخْدَمَتْهَا مَعَهُمْ، فَاجْتَمَعَ كُبَرَاؤُهَا وَسَادَتُهَا فِي دَارِ النَّدْوَةِ، وَتَشَاوَرُوا: مَاذَا يَفْعَلُونَ؟

وَلَمَّا كَانَ «أَبُو طَالِبٍ» ـ شَـيْخُ «بَنِي هَاشِمٍ» ـ هُوَ الَّذِي يَقِفُ مَانِعًا بَيْنَ قُرَيْشٍ وَرَسُـولِ اللهِ ﷺ، يُؤَيِّدُهُ وَيَمْنَعُهُ وَيَحْمِيهِ، فَقَدِ ارْتَأَى الْمُؤْتَمِرُونَ مِنْهُـمْ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، بَعْدَ الْبَحْثِ وَالدَّرْسِ، أَنْ يَقُومَ وَفْـدٌ مِنْهُمْ بِمُقَابَلَةِ «أَبِي طَالِبٍ» وَمُحَادَثَتِهِ وَمُنَاقَشَتِهِ، وَعَرْضِ بَعْضِ الْعُرُوضِ عَلَيْهِ، لِيَنْقُلَهَا إِلَى «ابْنِ أَخِيهِ»؛ لَعَلَّهُ يَتَرَاجَعُ عَنْ مَوْقِفِهِ وَدَعْوَتِهِ.

وَكَانَ هَذَا الْمَوْقِفُ مِنْ قُرَيْشٍ، إِنَّمَا هُوَ انْتِقَالٌ بِأُسْلُوبِ مُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ التَّرْهِيبِ إِلَى التَّرْغِيبِ...

وَجَاءُوا إِلَى «أَبِي طَالِبٍ» يَقُولُونَ لَهُ:

ـ إِذَا كَانَ ابْـنُ أَخِيكَ يُرِيدُ مُلْكًا مَلَّكْنَـاهُ، وَإِذَا كَانَ يُرِيدُ مَالًا أَعْطَيْنَاهُ مَا شَـاءَ، بَلْ نَحْنُ عَلَى اسْـتِعْدَادٍ أَنْ نُجَارِيَهُ فِي أَيِّ مَطْلَبٍ يُرِيدُهُ، عَلَى أَنْ يَكُفَّ عَنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ!

فَحَمَلَ «أَبُو طَالِبٍ» عَرْضَ قُرَيْشٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَاذَا كَانَ رَدُّهُ؟

قَالَ ﷺ قَوْلَتَهُ الْمَشْهُورَةَ الَّتِي نُرَدِّدُهَا الْيَوْمَ بِفَخْرٍ وَاعْتِزَازٍ، وَلَكِنْ تَرْدِيدًا

أَجْوَفَ خَالِيًا مِنَ الْإِحْسَاسِ بِمَعْنَاهَا الْعَمِيقِ، وَدَلَالَتِهَا الْبَعِيدَةِ، وَوُجُوبِ الْتِزَامِ الدَّاعِيةِ بِدَعْوَتِهِ مَهْمَا كَانَتِ التَّهْدِيدَاتُ، وَمَهْمَا كَانَتِ الْمُغْرِيَاتُ.

قَالَ ﷺ لِعَمِّهِ:

«وَاللهِ يَا عَمِّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ، مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ مِنْ دُونِهِ».

سَمِعَ «أَبُو طَالِبٍ» رَدَّ ابْنِ أَخِيهِ الْعَظِيمِ، فَأَدْرَكَ أَنَّ الْأَمْرَ أَكْبَرُ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْمَالِ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا.

وَ«أَبُو طَالِبٍ» لَمْ يَنْقُلْ هَذَا الْعَرْضَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ اقْتِنَاعًا مِنْهُ بِرَأْيِ قُرَيْشٍ، بَلْ نَقَلَهُ مِنْ قَبِيلِ مُسَايَرَةِ قُرَيْشٍ فَقَطْ.

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، سُرَّ وَلَمْ يَحْزَنْ، فَرِحَ وَلَمْ يَأْلَمْ، ثُمَّ قَالَ:

- يَا ابْنَ أَخِي امْضِ لِمَا أَرَدْتَ، فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُكَ إِلَيْهِمْ أَبَدًا.

ثُمَّ إِنَّ «أَبَا طَالِبٍ» اشْتَدَّ عَزْمُهُ، وَقَوِيَ إِصْرَارُهُ عَلَى مُؤَازَرَةِ ابْنِ أَخِيهِ وَحِمَايَتِهِ وَمُسَانَدَتِهِ، مَهْمَا تَكُنِ النَّتَائِجُ.

عِنْدَئِذٍ عَادَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أُسْلُوبِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، أُسْلُوبِ الْبَطْشِ وَالتَّنْكِيلِ، أُسْلُوبِ الْإِرْهَابِ وَالْعَذَابِ!!

فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ، مِمَّنْ كَانَ قَدْ سَبَقَتْ لَهُمُ الْهِجْرَةُ إِلَى

«الْحَبَشَةِ»، وَغَيْرُهُمْ أَيْضًا، لِيَسْتَأْذِنُوهُ فِي الِابْتِعَادِ عَنْ أَرْضِ الْعَذَابِ، وَهِجْرَةِ «مَكَّةَ»، وَالنَّأْيِ عَنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَطُغْيَانِ الْجَاهِلِينَ، فَأَذِنَ لَهُمْ، وَكَانَتِ الْهِجْرَةُ الثَّانِيَةُ إِلَى «الْحَبَشَةِ».

وَحَطَّ الْمُهَاجِرُونَ رِحَالَهُمْ بِجَانِبِ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ الْآخَرُونَ وَرَحَّبُوا بِهِمْ، وَأَنْزَلُوهُمْ فِي ضِيَافَتِهِمْ وَرِعَايَتِهِمْ، وَهَيَّأُوا لَهُمْ أَسْبَابَ الرَّاحَةِ وَالْعَيْشِ وَالْكَسْبِ.

وَاسْتَمَرَّ الْجَمِيعُ فِي إِقَامَتِهِمْ فِي أَرْضِ «الْحَبَشَةِ» إِلَى مَا بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ إِلَى «الْمَدِينَةِ»، وَبَعْدَ غَزَوَاتٍ كَثِيرَةٍ وَحُرُوبٍ عَدِيدَةٍ جَرَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ، وَبَعْدَ أَنِ اضْمَحَلَّ وَتَلَاشَى ـ إِلَى حَدِّ الضَّعْفِ وَالِاسْتِسْلَامِ ـ مَرْكَزُ قُرَيْشٍ وَمَكَانَتُهَا بَيْنَ الْعَرَبِ، وَقَدْ أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ زِمَامَ الْمُبَادَرَةِ فِي أَيْدِيهِمْ.

ظَلُّوا فِي «الْحَبَشَةِ» إِلَى يَوْمِ «فَتْحِ خَيْبَرَ»...

وَسَيَكُونُ لَنَا حَدِيثٌ حَوْلَ ذَلِكَ فِي حِينِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

❊❊❊

عَادَتْ قُرَيْشٌ ـ كَمَا أَسْلَفْنَا ـ إِلَى أُسْلُوبِ الْعُنْفِ، وَوَجَّهَتْ كُلَّ شُرُورِهَا وَآثَامِهَا إِلَى رَأْسِ الدَّعْوَةِ، إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ بَيْنَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ حَمَلُوا هَذَا اللِّوَاءَ وَتَصَدَّوْا بِكُلِّ الْأَذَى وَالْجَبَرُوتِ عَمُّهُ «أَبُو لَهَبٍ» ـ «عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

وَكَانَ «أَبُو لَهَبٍ» وَاقِعًا تَحْتَ تَأْثِيرِ عَامِلَيْنِ اثْنَيْنِ، أَوَّلُهُمَا: خَوْفُهُ عَلَى الزَّعَامَةِ، أَوْ أَنْ يَنْعَتَهُ أَنْدَادُ السُّوءِ بِالضَّعْفِ وَالتَّهَاوُنِ وَالتَّرَاجُعِ، أَمْثَالُ «أَبِي جَهْلٍ» وَ«الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ» وَ«أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ» وَ«أَبِي سُفْيَانَ»... فَيَفْقِدَ مَكَانَتَهُ بَيْنَهُمْ وَتَضِيعَ هَيْبَتُهُ!

وَثَانِيهُمَا: امْرَأَتُهُ «أُمُّ جَمِيلٍ» حَمَّالَةُ الْحَطَبِ ـ كَمَا نَعَتَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ـ فَقَدْ كَانَتْ صُورَةً لِلشَّيْطَانِ، بِنَفْسِيَّتِهَا وَعَقْلِيَّتِهَا الْجَاهِلِيَّةِ، فَهِيَ الَّتِي طَلَبَتْ إِلَى «أَبِي لَهَبٍ» زَوْجِهَا أَنْ يَرُدَّ خِطْبَةَ وَلَدَيْهِ مِنِ ابْنَتَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَقَدَّمَ «عُثْمَانُ» وَتَزَوَّجَ مِنْ «رُقَيَّةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُوَجِّهُهُ إِلَى مُنَاوَأَةِ ابْنِ أَخِيهِ ـ رَسُولِ اللهِ ﷺ ـ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ وَفِي كُلِّ مَيْدَانٍ، بِالْكَلِمَةِ الْقَاسِيَةِ، وَإِشَاعَةِ السُّوءِ، وَالْأَذَى بِالْيَدِ إِنْ أَمْكَنَ!!

وَهَكَذَا اسْتَمَرَّتْ قُرَيْشٌ فِي جُمُوحِهَا وَنُفُورِهَا وَنُكْرَانِهَا، حَتَّى أَعْيَتْهَا الْحِيَلُ فِي مُقَاوَمَةِ تَيَّارِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، فَعَقَدَتْ أَمْرَهَا عَلَى مُقَاطَعَةِ الْمُسْلِمِينَ اجْتِمَاعِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا، وَقَرَنَتْ إِلَيْهِمْ «بَنِي هَاشِمٍ»؛ بِسَبَبِ وُقُوفِ «أَبِي طَالِبٍ» وَاسْتِمْرَارِيَّتِهِ إِلَى جَانِبِ ابْنِ أَخِيهِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ.

الْمُقَاطَعَةُ

قَبْــلَ أَنْ نَتَحَدَّثَ عَــنِ الْمُقَاطَعَةِ الَّتِي اعْتَمَدَتْهَا «قُرَيْشٌ» كَوَسِــيلَةٍ مِنْ وَسَــائِلِ الضَّغْطِ عَلَى رَسُــولِ اللهِ ﷺ وَعَلَى أَصْحَابِهِ، أَوْ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي أَضْرَمُوا نَارَهَا، وَأَشْعَلُوا أُوَارَهَا.

قَبْــلَ ذَلِكَ يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نُعْطِيَ صُورَةً لِلْجَوِّ الْعَــامِّ الَّذِي أَحَاطَ بِالدَّعْوَةِ وَصَاحِبِهَا وَأَتْبَاعِهَا.

وَلَقَــدْ عَرَفْنَا ـ مِمَّا سَــبَقَ ـ عَــرْضَ قُرَيْشٍ عَلَى رَسُــولِ اللهِ ﷺ الْمَالَ وَالسُّــلْطَانَ، وَرَفْضَهُ لِكُلِّ ذَلِــكَ، وَكَيْفَ وَقَفَ عَمُّــهُ «أَبُو طَالِبٍ» إِلَى جِــوَارِهِ يَحْمِيهِ وَيُؤَيِّدُهُ؛ وَكَيْفَ أَنَّ قُرَيْشًــا قَدْ أَمْعَنَــتْ فِي مُحَارَبَةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَتَحَوَّلَتْ عَنْ أُسْلُوبِ التَّرْغِيبِ إِلَى أُسْلُوبِ التَّرْهِيبِ، تُرِيدُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ رَأْسَ الدَّعْوَةِ وَصَاحِبَهَا.

وَحَيْثُ إِنَّ «أَبَا بَكْــرٍ الصِّدِّيقَ» ـ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْــهِ ـ كَانَ الْيَدَ الْيُمْنَى لِلنَّبِيِّ ﷺ يُوَاسِيهِ بِمَالِهِ وَبِشَخْصِهِ وَيَتَعَرَّضُ لِدُعَاةِ السُّوءِ دِفَاعًا عَنْهُ، فَقَدِ

اِشْتَدَّتْ وَطْأَةُ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِ، وَبَاتُوا يَتَرَصَّدُونَهُ وَيُحَارِبُونَهُ، وَيُؤْذُونَهُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ.

وَلَمْ يُطِقْ صَبْرًا...

فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْهِجْرَةِ إِلَى «الْحَبَشَةِ»؛ فِرَارًا بِعَقِيدَتِهِ وَدِينِهِ، وَلُحُوقًا بِإِخْوَانِهِ الْمُهَاجِرِينَ، حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا.

وَلَمْ يَجِدْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بُدًّا مِنَ الْإِذْنِ لِـ«أَبِي بَكْرٍ».

فَوَدَّعَ «أَبُو بَكْرٍ» خَلِيلَهُ، ثُمَّ قَصَدَ إِلَى دَارِهِ، وَهَيَّأَ زَادَهُ وَمَتَاعَهُ وَرَاحِلَتَهُ، كَمَا وَدَّعَ أَهْلَهُ، وَمَضَى خَارِجًا مِنْ «مَكَّةَ»، دَامِعَ الطَّرْفِ، كَسِيرَ الْقَلْبِ، حَزِينَ الْفُؤَادِ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ غَيْرَ بَعِيدٍ، لَقِيَهُ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ «ابْنُ الدَّغِنَةِ»، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَسَأَلَهُ:

- إِلَى أَيْنَ يَا «أَبَا بَكْرٍ»؟!

فَأَخْبَرَهُ «أَبُو بَكْرٍ» عَنْ مَقْصِدِهِ وَسَبَبِ خُرُوجِهِ مِنْ «مَكَّةَ»، وَمَا يَلْقَاهُ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ مِنْ عَذَابٍ وَاصِبٍ، وَأَذًى كَبِيرٍ.

فَتَأَثَّرَ «ابْنُ الدَّغِنَةِ» لِمَا يَعْرِفُهُ عَنْ شَخْصِيَّةِ «أَبِي بَكْرٍ» فِي دَمَاثَتِهَا وَرِقَّتِهَا، وَرِفْعَةِ الْأَخْلَاقِ، وَبَذْلِ الْمَعْرُوفِ، وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ، فَطَلَبَ إِلَى «أَبِي بَكْرٍ» أَنْ يَعُودَ إِلَى «مَكَّةَ»، فَهُوَ لَهُ جَارٌ، أَيْ حَامٍ وَمَانِعٌ وَمُدَافِعٌ.

فَقَبِلَ «أَبُو بَكْرٍ» جِوَارَ «ابْنِ الدَّغِنَـةِ»، وَعَادَ مَعَهُ إِلَى «مَكَّةَ»، ثُمَّ إِنَّ «ابْنَ الدَّغِنَةِ» ذَهَبَ إِلَى «الْكَعْبَةِ»، وَوَقَـفَ فِي فِنَائِهَا وَأَعْلَنَ عَلَى النَّاسِ حِمَايَتَهُ لِـ «أَبِي بَكْرٍ»...

وَكَانَ الرَّجُلُ مَعْرُوفًا مِنَ النَّاسِ، لَهُ مَكَانَةٌ وَهَيْبَةٌ، وَسُـلْطَانٌ، فَرَضَخُوا لِرَأْيِهِ، وَامْتَنَعُوا عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وَسَكَتُوا عَنْ «أَبِي بَكْرٍ» عَلَى مَضَضٍ.

وَكَانَ لِـ«أَبِـي بَكْرٍ» عِنْدَ بَابِ دَارِهِ مُصَلًّى يُؤَدِّي فِيـهِ عِبَادَتِهِ، يَقِفُ فِيهِ خَاشِـعًا مُتَبَتِّلًا، يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِصَوْتٍ مُؤَثِّرٍ، وَيَدْعُو اللهَ تَعَالَى بِدُعَاءٍ بَلِيغٍ، فَـكَانَ النَّاسُ مِنَ الصِّبْيَانِ وَالْغِلْمَانِ، وَالشُّـيُوخِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسْـوَةِ، جَمِيـعِ هَؤُلَاءِ يَقِفُونَ، أَوْ يَتَوَافَدُونَ لِسَـمَاعِهِ، وَقَدْ يَبْكِـي بَعْضُهُمْ تَأَثُّرًا وَانْفِعَالًا...

هَذِهِ الصُّورَةُ الْوِجْدَانِيَّةُ الرُّوحَانِيَّةُ الْمُؤَثِّرَةُ لَمْ تُعْجِبْ قُرَيْشًـا، فَخَافُوا مِنْهَا عَلَى ذَوِيهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، فَجَاءُوا إِلَى «ابْنِ الدَّغِنَةِ» يَشْكُونَ وَيَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يُنْـذِرَ «أَبَا بَكْرٍ» بِالتَّخَلِّي عَنْ مُجَاوَرَتِـهِ، إِلَّا أَنْ يَدْخُلَ إِلَى دَارِهِ وَيُصَلِّيَ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ.

فَلَمَّـا جَاءَ «ابْنُ الدَّغِنَةِ» إِلَى «أَبِي بَكْرٍ» لِيَبْحَثَ مَعَهُ الْأَمْرَ، وَيَطْلُبَ إِلَيْهِ أَنْ يَتَخَفَّى فِي صَلَاتِـهِ وَعِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ، أَوْ يَفُكَّ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، قَالَ لَهُ «أَبُو بَكْرٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ:

ـ أَرُدُّ عَلَيْكَ جِوَارَكَ يَا «ابْنَ الدَّغِنَةِ»، وَأُفَضِّلُ جِوَارَ اللهِ تَعَالَى.

وَفَضَّلَ «أَبُو بَكْرٍ» أَنْ يَكُونَ عُرْضَةً لِأَذَى قُرَيْشٍ وَفِتْنَتِهَا، عَلَى أَنْ يَرْضَخَ لِطَلَبِهَا، فَيَتَخَفَّى فِي عِبَادَتِهِ وَصَلَاتِهِ وَطَاعَتِهِ.

وَهَـذِهِ ـ أَيُّهَا الْقَـارِئُ الْعَزِيزُ ـ صُورَةٌ لِذُرْوَةِ الْحَـرْبِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ أَوْقَدَتْهَا قُرَيْشٌ فِي وَجْهِ الْمُسْـلِمِينَ؛ كَيْ تَرُدَّهُمْ إِلَى الشِّـرْكِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُفْلِحْ.

وَالْآنَ نَعُودُ إِلَى حَدِيثِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي تَعَاهَدَتْ فِيهَا قُرَيْشٌ عَلَى مُقَاطَعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ يُؤَيِّدُهُمْ؛ حَتَّى يُذْعِنُوا لِإِرَادَتِهَا وَجَبَرُوتِهَا.

فَحِينَ وَقَفَ «أَبُو طَالِبٍ» وَقْفَةَ الْمُؤَيِّدِ لِابْنِ أَخِيهِ، وَعَاهَدَهُ أَنْ لَا يُسْلِمَهُ لِقُرَيْشٍ أَبَدًا، اتَّخَذَتْ قُرَيْشٌ سَبِيلًا جَدِيدًا فِي مُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ...

اجْتَمَـعَ كُبَرَاؤُهَا فِي دَارِ النَّـدْوَةِ، وَتَعَاهَدُوا فِيمَا بَيْنَهُـمْ عَلَى مُقَاطَعَةِ الْمُسْـلِمِينَ وَ«بَنِي هَاشِمٍ»، وَكُلِّ مَنْ يُؤَيِّدُهُمْ، مُقَاطَعَةً كُلِّيَّةً، لَا يَتَعَامَلُونَ مَعَهُمْ وَلَا يُكَلِّمُونَهُمْ، لَا يُبَايِعُونَهُمْ وَلَا يَشْـتَرُونَ مِنْهُمْ، لَا يُصَاهِرُونَهُمْ وَلَا يَتَزَوَّجُونَ مِنْهُمْ...

وَعَلَيْهِـمْ، أَيْ عَلَى الْمُسْـلِمِينَ وَ«بَنِي هَاشِـمٍ»، أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانَيْهِـمْ، فَيَتْرُكُوا «مَكَّـةَ»... يَتْرُكُوا بُيُوتَهُـمْ وَمَتَاجِرَهُمْ وَكُلَّ مَرْفَقٍ لَهُمْ، حَتَّى يُسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ «مُحَمَّدًا» ﷺ يَقْتُلُونَهُ وَيَرْتَاحُونَ مِنْ دَعْوَتِهِ.

وَلِتَوْثِيقِ هَذِهِ الْمُقَاطَعَةِ، كَتَبُوهَا فِي صَحِيفَةٍ وَعَلَّقُوهَا فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ؛ وَأَنْذَرُوا «بَنِي هَاشِمٍ» وَالْمُسْلِمِينَ بِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ.

وَقَامَ «أَبُو طَالِبٍ» يَسْعَى فِي «بَنِي هَاشِمٍ»، مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، يَدْعُوهُمْ إِلَى نُصْرَةِ «مُحَمَّدٍ» وَلَوْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ دِينِهِ، فَأَيَّدُوهُ وَاتَّبَعُوهُ غَيْرَ «أَبِي لَهَبٍ».

وَخَرَجَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ «مَكَّةَ» وَخَرَجَ مَعَهُمْ «بَنُو هَاشِمٍ» بِذَرَارِيِّهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَعَائِلَاتِهِمْ، وَشُيُوخِهِمْ وَشُبَّانِهِمْ، وَدَخَلُوا بَيْنَ جَبَلَيْنِ مِنْ جِبَالِ «مَكَّةَ» فِي شِعْبٍ يُدْعَى شِعْبَ «أَبِي طَالِبٍ».

❊❊❊

وَهُنَاكَ أَقَامُوا...

بَعْضُهُمْ فِي خِيَامٍ، وَبَعْضُهُمْ فِي الْعَرَاءِ، يَفْتَرِشُ الْأَرْضَ وَيَلْتَحِفُ السَّمَاءَ! مَعَهُمْ بَعْضُ الْمُؤَنِ وَالْمَتَاعِ، يَصْبِرُونَ وَيَتَحَمَّلُونَ لَأْوَاءَ الشَّمْسِ وَقُشَعْرِيرَةَ اللَّيْلِ...

حَتَّى نَفِدَ مِنْهُمُ الزَّادُ، وَتَضَوَّرُوا مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، وَسَقَطَ بَعْضُهُمْ فَرِيسَةً لِلْمَرَضِ.

وَيَحْكِي لَنَا أَحَدُ الصَّحَابَةِ ـ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ـ مَدَى الْمَسْغَبَةِ الَّتِي عَانُوا مِنْهَا، فَيَقُولُ بِأَنَّهُ فِي ذَاتِ لَيْلَةٍ خَرَجَ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ النَّاسِ يَلْتَمِسُ مَكَانًا لِيَقْضِيَ فِيهِ حَاجَتَهُ، وَلَقَدْ سَمِعَ صَوْتَ خَشْخَشَةٍ مَعَ تَسَاقُطِ بَوْلِهِ، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَرَى مَا ذَلِكَ؟ فَوَجَدَ رَوْثَ جِمَالٍ يَابِسًا جَافًّا، فَفَتَّهُ فَوَجَدَ فِيهِ بَعْضَ حَبَّاتٍ مِنَ الشَّعِيرِ، فَمَسَحَهَا وَأَكَلَهَا؛ لِمَا كَانَ يُعَانِيهِ مِنَ الْجُوعِ!!

تَرَى ـ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ ـ كَمْ يَصْبِرُ أَحَدُنَا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ؟ وَمَا هِيَ مُدَّةُ تَحَمُّلِنَا؟

لَا أَعْتَقِدُ أَبَدًا أَنَّ الْجَوَابَ سَيَكُونُ مُطَابِقًا أَوْ مُقَارِبًا لِمَا اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَ«بَنُو هَاشِمٍ» فِي شِعْبِ «أَبِي طَالِبٍ» يُعَانُونَ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْعَذَابِ.. لَقَدِ اسْتَمَرُّوا ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ! لَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَسَابِيعَ أَوْ شُهُورٍ... بَلْ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ بِكَامِلِهَا، يَتَضَوَّرُونَ مِنَ الْجُوعِ، فَيَأْكُلُونَ أَوْرَاقَ الشَّجَرِ، وَحَبَّاتِ الشَّعِيرِ مِنْ رَوْثِ الْبَهَائِمِ، تَلْتَهِبُ رُءُوسُهُمْ نَهَارًا تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الْحَارِقَةِ فِي عِزِّ الْقَيْظِ، وَتَرْتَعِشُ أَطْرَافُهُمْ مِنْ شِدَّةِ الصَّقِيعِ فِي أَيَّامِ الْقُرِّ...

امْتِحَانٌ عَسِيرٌ، وَبَلَاءٌ كَبِيرٌ، لَوْ نَزَلَ بِالشُّمِّ الرَّوَاسِي لَهَدَّهَا، وَفَتَّتَهَا وَنَثَرَهَا فِي الْجَوِّ ذَرَّاتٍ تَتَطَايَرُ، أَمَّا النُّفُوسُ الْمُؤْمِنَةُ فَهِيَ أَشْمَخُ وَأَعْظَمُ وَأَصْلَبُ؛ لَا تَهِنُ وَلَا تَحْزَنُ وَلَا تَتَزَلْزَلُ.

وَفِي الْآوِنَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ فَتْرَةِ الْمُقَاطَعَةِ، كَانَ أَحَدُ النُّبَلَاءِ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَسِيرَتِهِمْ، وَيُدْعَى «هِشَامَ بْنَ عَمْرٍو» يَحْمِلُ الْجَمَلَ وَالْجَمَلَيْنِ غِذَاءً وَطَعَامًا وَمَتَاعًا، ثُمَّ يَقُودُهُمَا لَيْلًا حَتَّى يَصِلَ إِلَى فَمِ الشِّعْبِ، وَهُنَاكَ يَنْزِعُ خِطَامَهُمَا، وَيَضْرِبُ عَلَى أَقْفِيَتِهِمَا، فَيَنْطَلِقَانِ نَحْوَ الْمُسْلِمِينَ؛ رِقَّةً مِنْهُ وَحَنَانًا وَتَأَثُّرًا بِمَا كَانَ يُعَانِيهِ الْمُسْلِمُونَ وَ«بَنُو هَاشِمٍ».

وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ يَمُتُّ بِصِلَةِ الْقَرَابَةِ إِلَى «بَنِي هَاشِمٍ» مِنْ نَاحِيَةِ أُمِّهِ، وَلَقَدْ عَزَّ عَلَيْهِ أَنْ يَرَى أَخْوَالَهُ فِي هَذَا الْبُؤْسِ وَهَذَا الضَّنْكِ.

لَمْ يَكْتَفِ بِمَا كَانَ يَفْعَلُ مِنْ تَسْـرِيبِ الطَّعَامِ وَالْغِذَاءِ إِلَى الْمُحَاصَرِينَ فِي الشِّعْبِ، بَلْ سَعَى إِلَى نَفَرٍ مِنَ الْقُرَشِـيِّينَ، مِمَّنْ يَمُتُّونَ بِصِلَةِ الْقَرَابَةِ إِلَى «بَنِي هَاشِـمٍ»، وَهُمْ: «زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّـةَ»، وَ«الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ»، وَ«أَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ»، وَ«زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ» يَسْتَحِثُّهُمْ عَلَى الرِّفْقِ بِأَقْرِبَائِهِـمْ، وَخُصُوصًا الشُّيُوخَ وَالذَّرَارِيَّ وَالنِّسَاءَ.

جَاءَ «هِشَامٌ» إِلَى «زُهَيْرٍ» فَقَالَ لَهُ:

- هَلْ يُرْضِيكَ يَا «زُهَيْرُ» أَنْ تَعِيشَ مُتَمَتِّعًا مُنَعَّمًا، وَأَهْلُنَا مِنْ «بَنِي هَاشِمٍ» يُسَامُونَ سُوءَ الْعَذَابِ فِي مَسْغَبَةٍ وَشِدَّةٍ وَحِرْمَانٍ؟!

كَيْـفَ تَطِيبُ لَنَا الْحَيَاةُ مِنْ دُونِهِمْ؟! وَكَيْفَ يَحْلُو لَنَا النَّوْمُ وَهُمْ فِي أَرَقٍ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالذِّئَابِ؟!

فَقَالَ «زُهَيْرٌ»:

- وَيْحَكَ يَا «هِشَامُ».. وَمَاذَا تَرَانِي أَصْنَعُ وَأَنَا فَرْدٌ وَاحِدٌ؟

فَقَالَ «هِشَامٌ»:

- أَنَا مَعَكَ.

فَقَالَ «زُهَيْرٌ»:

- ابْغِ لَنَا ثَالِثًا.

فَقَامَ «هِشَامٌ» يَسْعَى بَيْنَ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الْأَرْبَعَةِ، حَتَّى تَجَاوَبُوا مَعَهُ، وَأَيَّدُوهُ فِي مَسْعَاهُ وَمَوْقِفِهِ.

وَاتَّفَقُوا عَلَى نَقْضِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي تَعَاهَدَتْ عَلَيْهَا قُرَيْشٌ وَعَلَّقَتْهَا فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ...

***

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدُورُ عَلَى إِخْوَانِهِ وَأَهْلِهِ فِي الشِّعْبِ، يُثَبِّتُهُمْ وَيُقَوِّي عَزَائِمَهُمْ، وَيَدْعُو اللهَ تَعَالَى لَهُمْ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْهُمُ الْكَرْبَ وَالْبَلَاءَ...

وَبَعْدَ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى خَيْمَتِهِ، حَيْثُ تَرْقُدُ الزَّوْجَةُ الْفَاضِلَةُ، السَّيِّدَةُ الْجَلِيلَةُ الَّتِي أَنْفَقَتْ كُلَّ مَالِهَا فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ، ثُمَّ لَزِمَتِ الْفِرَاشَ مُتَهَالِكَةً ضَعِيفَةً مَرِيضَةً، لَا تَقْوَى عَلَى الْوُقُوفِ...

الْمُسْلِمَةُ الْأُولَى وَالْمُؤْمِنَةُ الْأُولَى، سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ «خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ».

يَجْلِسُ إِلَى جَانِبِهَا فَيُوَاسِيهَا، وَيُخَفِّفُ مَا بِهَا مِنْ حُزْنٍ وَأَلَمٍ، وَيُبَشِّرُهَا بِالنَّصْرِ وَالْفَرَجِ الْقَرِيبِ، وَيَسْأَلُ اللهَ لَهَا أَنْ يَشْفِيَهَا مِنْ أَسْقَامِهَا وَآلَامِهَا.

وَفِي لَيْلَةٍ رَأَى ﷺ رُؤْيَا، فَقَامَ فِي الصَّبَاحِ يُحَدِّثُ عَمَّهُ بِهَا، لَقَدْ رَأَى أَنَّ الْأَرَضَةَ (حَشَرَةُ الْعُثِّ الَّتِي تَأْكُلُ الْوَرَقَ وَالثِّيَابَ) قَدْ نَشَبَتْ فِي صَحِيفَةِ قُرَيْشٍ وَأَكَلَتْهَا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ؛ ثُمَّ طَلَبَ إِلَى عَمِّهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى قُرَيْشٍ وَيُنَبِّئُهُمْ بِذَلِكَ، وَمِنْ ثَمَّ يَكْشِفُوا عَنْهَا، فَإِنْ كَانَ حَدِيثُهُ صَحِيحًا، فَقَدْ فَسَدَ الْعَهْدُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، فَهُوَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَفْعَلُونَ بِهِ مَا يَشَاؤُونَ.

إِثْرَ ذَلِكَ قَامَ «أَبُو طَالِبٍ» مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنْ رِجَالِ «بَنِي هَاشِمٍ»، وَخَرَجُوا مِنَ الشِّعْبِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ بَعْدَ ثَلَاثِ سِنَوَاتٍ مِنَ الْمُقَاطَعَةِ، مُتَّجِهِينَ إِلَى «مَكَّةَ»؛ لِيَتَحَدَّثَ إِلَى زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ فِي شَأْنِ الْمُقَاطَعَةِ، وَرَفْعِ الْمُعَانَاةِ عَنِ النَّاسِ الْمَعْزُولِينَ فِي الشِّعْبِ، دُونَ أَنْ يَذْكُرَ رُؤْيَا ابْنِ أَخِيهِ، أَوْ يَأْتِيَ عَلَى ذِكْرِ الصَّحِيفَةِ أَبَدًا... ثُمَّ لِيَرَى بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَكُونُ مِنْ شَأْنِهِمْ وَشَأْنِهَا.

فِي نَفْسِ الْيَوْمِ قَامَ «هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو» فِي فِنَاءِ «الْكَعْبَةِ»، بَعْدَ أَنْ جَمَعَ أَصْحَابَهُ، وَخَطَبَ فِي النَّاسِ دَاعِيًا إِلَى تَمْزِيقِ الصَّحِيفَةِ، وَنَقْضِ مَا جَاءَ بِهَا مِنَ الْمَوَاثِيقِ، وَتَخَلِّيهِ عَنْهَا، فَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَفِيهِمُ السَّادَةُ وَالزُّعَمَاءُ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ «أَبُو جَهْلٍ» يُتِمَّ كَلَامَهُ، وَخُصُوصًا بَعْدَ أَنْ رَقَّقَ قُلُوبَ النَّاسِ عَلَى «بَنِي هَاشِمٍ» وَالْمُسْلِمِينَ، فَقَاطَعَهُ «أَبُو جَهْلٍ» وَاسْتَنْكَرَ قَوْلَهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ «هِشَامٌ»، وَأَيَّدَهُ أَوَّلُ أَصْحَابِهِ «زُهَيْرٌ»، فَالْتَفَتَ «أَبُو جَهْلٍ» مُسْتَنْكِرًا غَاضِبًا، فَإِذَا بِالصَّاحِبِ الثَّالِثِ، يَرُدُّ عَلَيْهِ وَيُسَفِّهُ رَأْيَهُ وَهُوَ «أَبُو الْبَخْتَرِيِّ»، وَهُنَا اسْتَشَاطَ «أَبُو جَهْلٍ» غَضَبًا، وَثَارَ غَيْظًا... فَإِذَا بِالرَّابِعِ مِنَ الصِّحَابِ «الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ» يَتَصَدَّى لَهُ، فَأُسْقِطَ فِي يَدِ «أَبِي جَهْلٍ»... وَأَصْبَحَ لَا يَدْرِي مَا يَفْعَلُ، فَهَاجَ وَمَاجَ، وَأَرْغَى وَأَزْبَدَ، ثُمَّ بَرَزَ لَهُ الصَّاحِبُ الْخَامِسُ «زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ» يُثْنِي عَلَى أَقْوَالِ رِفَاقِهِ.

وَتَظَاهَرَ أَكْثَرُ الْحَاضِرِينَ، وَعَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِالتَّأْيِيدِ وَالْمُوَافَقَةِ عَلَى آرَاءِ الصِّحَابِ الْخَمْسَةِ، ثُمَّ...

وَقَبْـلَ أَنْ يَتَحَرَّكَ وَاحِدٌ مِنَ الْقَوْمِ بِاتِّجَاهِ بَابِ «الْكَعْبَةِ»، أَطَلَّ عَلَى الْجَمْعِ «أَبُـو طَالِبٍ» فِي وَفْدِ «بَنِي هَاشِمٍ»، فَازْدَادَ أَنْصَارُ الْعَدْلِ عَدَدًا وَقُوَّةً...

وَفُتِحَ بَابُ «الْكَعْبَةِ»، وَأُحْضِرَتِ الصَّحِيفَةُ مِنْ جَوْفِهَا، فَإِذَا بِهَا مُتَآكِلَةً، قَدْ ذَهَبَتِ الْأَرَضَةُ بِالْقِسْمِ الْأَكْبَرِ مِنْهَا، وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا سِوَى اسْمِ اللهِ...

فَقُطِّعَتْ وَنُثِرَتْ فِي الْهَوَاءِ، وَانْتَصَرَ الْحَقُّ.

وَدَلَفَ «بَنُو هَاشِـمٍ» وَالْمُسْلِمُونَ مِنَ الشِّـعْبِ إِلَى «مَكَّةَ»، عَادُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ وَمَسَـاكِنِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَاسْـتَرْوَحُوا نَسِـيمَ الْحُرِّيَّةِ بَعْدَ حَبْسٍ قَهْرِيٍّ، وَإِقَامَةٍ جَبْرِيَّةٍ طَالَتْ حَتَّى بَلَغَتْ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ بِكَامِلِهَا...

وَحَمَلَ ﷺ زَوْجَتَهُ الْوَفِيَّةَ الصَّابِرَةَ إِلَى دَارِهَا، وَقَدْ شَارَفَتْ عَلَى الْمَوْتِ؛ ثُـمَّ تَكَأْكَأَ (اجْتَمَعُـوا) حَوْلَ فِرَاشِـهَا بَنَاتُهَا: «زَيْنَـبُ»، وَ«أُمُّ كُلْثُومٍ»، وَ«فَاطِمَـةُ»، أَمَّا «رُقَيَّةُ»، فَقَدْ كَانَتْ مَا تَزَالُ فِي الْحَبَشَـةِ بَعِيدًا عَنْ أَرْضِ الْوَطَنِ بِرُفْقَةِ زَوْجِهَا «عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

ثُمَّ كَانَ «عَامُ الْحُزْنِ»...

وَأَيُّ حُـزْنٍ أَمَضُّ لِقَلْـبِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَفَاةِ الشَّـخْصَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا لَهُ سَـنَدًا وَعَوْنًا فِي مَوَاجَهَةِ قُرَيْشٍ؟ وَأَيُّ حُزْنٍ أَقْسَـى عَلَى نَفْسِهِ ﷺ مِنِ ارْتِحَالِ الشَّـخْصَيْنِ اللَّذَيْنِ أَعْطَيَا لِلدَّعْوَةِ الْإِسْـلَامِيَّةِ حَيَاتَهُمَا وَمَالَهُمَا وَوُجُودَهُمَا؟

فَبَعْـدَ أَنْ نُقِضَتِ الصَّحِيفَـةُ، وَتَفَرَّقَتْ وَحْدَةُ قُرَيْشٍ، وَطَاشَ سَـهْمُ الْمُقَاطَعَةِ، فَلَمْ يَبْلُغْ هَدَفَهُ فِي فَتِّ عَضُدِ الْمُسْلِمِينَ؛ بَعْدَ هَذَا...

وَقَعَ «أَبُو طَالِبٍ» مَرِيضًا... وَكَانَ قَدْ شَـاخَ وَكَبِرَ، وَأَفْنَى قِسْطًا كَبِيرًا مِنْ حَيَاتِهِ فِي مُنَاصَـرَةِ ابْنِ أَخِيهِ، وَالدِّفَاعِ عَنْهُ، وَتَحَمَّـلَ التَّبِعَةَ كَامِلَةً فِي حِمَايَتِهِ، وَرَدِّ كَيْدِ الْمُعْتَدِينَ عَنْهُ.

ثُمَّ لَمْ يَقْوَ عَلَى مُقَاوَمَةِ الْمَرَضِ، فَأَسْـلَمَ الرُّوحَ، وَكَمْ كَانَ حُزْنُ النَّبِيِّ ﷺ كَبِيرًا وَشَدِيدًا!

لَقَـدْ عَاشَ زَمَنًا فِي كَنَفِهِ مُنْذُ أَنْ كَانَ صَبِيًّا يَافِعًا حَتَّى بَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ، ثُمَّ حَمَّلَهُ اللهُ تَعَالَى مَسْئُولِيَّةَ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، فَكَانَ لَهُ عَمُّهُ «أَبُو طَالِبٍ» فِي كُلِّ تِلْكَ الْمَرَاحِلِ الْأَبَ الْحَانِيَ الْعَطُوفَ الرَّءُوفَ...

وَأَيْضًا... فَقَدْ كَانَ ﷺ يَأْلَمُ أَكْثَرَ؛ لِأَنَّ «أَبَا طَالِبٍ» لَمْ يُؤْمِنْ وَلَمْ يُسْلِمْ، رَغْمَ كُلِّ مَا قَدَّمَهُ لِلرِّسَالَةِ وَصَاحِبِهَا مِنْ حِمَايَةٍ وَدِفَاعٍ وَانْتِصَارٍ...

كَانَ رَسُولُ اللهِ يَتَمَنَّى إِيمَانَ عَمِّهِ وَإِسْلَامَهُ، وَلَا يَكُفُّ عَنْ دَعْوَتِهِ، غَيْرَ أَنَّ «أَبَا طَالِبٍ» ظَلَّ مُتَمَسِّكًا بِمُعْتَقَدِهِ الَّذِي وَرِثَهُ عَنِ الْأَسْلَافِ السَّابِقِينَ، فَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ:

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الزُّخْرُفِ: 22).

وَلَقَـدْ كَانَ يُحْزِنُـهُ ﷺ أَنْ لَا يَسْـتَجِيبَ «أَبُو طَالِبٍ» لِنِـدَاءِ الْحَقِّ وَالْإِسْـلَامِ، وَيَتَنَكَّبَ طَرِيقَ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ، فَيَعْكُـفُ عَلَى ذَاتِهِ مُتَأَلِّمًا

مَحْزُونًا. وَفِي هَذَا الشَّأْنِ نَزَلَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (الْقَصَصُ: 56).

وَبِمَوْتِ «أَبِي طَالِبٍ» فَقَدَ النَّبِيُّ ﷺ سَنَدًا قَوِيًّا وَحَاجِزًا مَانِعًا، كَانَ يَفْصِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، وَيَمْنَعُ آذَاهُمْ، عَنْهُ فَلَا يَطَالُونَهُ إِلَّا بِحُدُودٍ...

وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ مَوْتِ «أَبِي طَالِبٍ»، وَلَمْ تَكُنْ دُمُوعُ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ جَفَّتْ بَعْدُ، مَاتَتْ «خَدِيجَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ.

لَقَدْ عَادَتْ مِنَ الشِّعْبِ مَحْمُولَةً إِلَى الدَّارِ، مَرِيضَةً عَلِيلَةً، أَضْنَاهَا الْحِرْمَانُ وَالْعَذَابُ وَالْقَطِيعَةُ، كَانَتْ قَلِيلَةَ الطَّعَامِ وَالْغِذَاءِ، فَجِسْمُهَا يَنْحُلُ وَيَضْمُرُ، وَلَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُوَاسِيهَا فِي الْمِحْنَةِ، وَيَجْلِسُ إِلَى جَانِبِ فِرَاشِهَا؛ يُحَدِّثُهَا وَيُصَبِّرُهَا وَيَبْتَسِمُ لَهَا، لَكَانَتْ مَاتَتْ فِي الشِّعْبِ، كَانَ غِذَاؤُهَا فَقَطْ مِنْ رُوحِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﷺ.

وَعَلَا نَشِيجُ الْبَنَاتِ: «زَيْنَبَ» وَ«أُمِّ كُلْثُومٍ» وَ«فَاطِمَةَ»، وَبَكَيْنَ الْأُمَّ الْحَنُونَ بُكَاءً مُرًّا، وَمَنَعَهُنَّ الْوَالِدُ الْحَزِينُ عَنْ أَيِّ كَلِمَةٍ يَقُلْنَهَا فِيهَا نَدْبٌ أَوْ عَوِيلٌ، رَغْمَ الْأَلَمِ الْعَمِيقِ الَّذِي كَانَ يُخَالِطُ قَلْبَهُ، وَرَغْمَ الْحُزْنِ الشَّدِيدِ الَّذِي كَانَ يَعْتَصِرُ فُؤَادَهُ.

فَقَدْ كَانَتْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ أُمًّا وَأُخْتًا وَزَوْجَةً، كَانَتْ صَدْرًا يَرْتَاحُ إِلَيْهِ عِنْدَمَا يُؤْذِيهِ النَّاسُ، وَعَقْلًا نَيِّرًا يُوَاسِيهِ عِنْدَمَا يَضِيقُ بِالْأَحْدَاثِ، وَحِضْنًا دَافِئًا يَأْوِي إِلَيْهِ فَيَجِدُ فِيهِ الطُّمَأْنِينَةَ وَالسَّلَامَةَ.

كَانَتْ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَثَبَّتَتْهُ عَلَى قَوْلَةِ الْحَقِّ، وَمَدَّتْ لَهُ يَدَ الْعَوْنِ، وَسَخَّرَتْ كُلَّ مَا تَمْلِكُ مِنْ مَالٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَمْ تَبْخَلْ بِدِرْهَمٍ وَاحِدٍ، حَتَّى فَقَدَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَرَبِحَتِ الْجَنَّةَ.

وَتَقَاطَرَ الْمُسْلِمُونَ وَأَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَقِفُونَ إِلَى جَانِبِهِ يُعَزُّونَهُ فِي مُصَابِهِ الْأَلِيمِ.

وَحُمِلَ النَّعْشُ الطَّاهِرُ إِلَى «الْحُجُونِ» (مَكَانٌ فِي مَكَّةَ)، وَهُنَاكَ غَيَّبَ الثَّرَى جَسَدَ «خَدِيجَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ بَيْنَ دُمُوعٍ وَحَسَرَاتٍ وَتَنَهُّدَاتٍ.

لَقَدْ كَانَ «عَامُ الْحُزْنِ» مُتَوَاصِلَ الْأَحْدَاثِ وَالْمِحَنِ، فَمَا إِنْ يَخْرُجِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مِحْنَةٍ وَتَجْرِبَةٍ، حَتَّى يَدْخُلَ فِي أُخْرَى، أَقْسَى وَأَشَدَّ.

كَانَتْ أَيَّامُ الْمُقَاطَعَةِ مِنْ أَصْعَبِ مَا وَاجَهَ ﷺ، ثُمَّ كَانَتْ وَفَاةُ «أَبِي طَالِبٍ»، ثُمَّ وَفَاةُ «خَدِيجَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ.

عِنْدَهَا رَأَتْ قُرَيْشٌ النَّافِرَةُ الْجَامِحَةُ فُرْصَتَهَا الْمُوَاتِيَةَ بِشَنِّ حَرْبٍ جَدِيدَةٍ عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَأَصْحَابِهِ، أَقْسَى وَأَشَدَّ وَأَعْنَفَ مِمَّا مَرَّ بِهِ.

بَدَءُوا يُشِيعُونَ عَنْهُ الْإِشَاعَاتِ الْكَاذِبَةَ، وَيَفْتَرُونَ عَلَيْهِ الْمُفْتَرَيَاتِ، وَرَأَوْا أَنَّ اتِّهَامَهُ بِالشِّعْرِ وَالسِّحْرِ وَالْجُنُونِ وَسَائِلُ جَدِيدَةٌ، تُؤَثِّرُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ وَتُنَفِّرُهُمْ عَنْهُ؛ خُصُوصًا وَأَنَّهُ ﷺ بَدَأَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ وَدَعْوَتَهُ عَلَى الْوُفُودِ الْقَادِمَةِ إِلَى «مَكَّةَ» فِي أَيَّامِ الْمَوَاسِمِ.

وَمَا دَفَعَهُ ﷺ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا يَأْسُهُ مِنْ قُرَيْشٍ أَنْ تُذْعِنَ لِلْحَقِّ، وَتَتَجَاوَبَ مَعَ مَنْطِقِ الْعَقْلِ وَالْهُدَى.

لَكِنَّهُمْ لَمْ يُفْلِحُوا أَيْضًا؛ فَقَدْ كَانَ اللهُ تَعَالَى نَاصِرَهُ وَمُؤَيِّدَهُ، وَمَا قِصَّةُ «الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الدَّوْسِيِّ» إِلَّا صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ تِلْكَ الْحَرْبِ الْقَذِرَةِ الَّتِي حَمَلَتْ لِوَاءَهَا قُرَيْشٌ جَهْلًا وَضَلَالًا.

تَصَدُّوا لِـ«الطُّفَيْلِ»، وَأَقْنَعُوهُ بِأَنَّ «ابْنَ عَبْدِ اللهِ» فِي جِنَّةٍ وَسِحْرٍ، يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْأَبِ وَابْنِهِ، وَالزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ، وَالْخَلِيلِ وَخَلِيلِهِ؛ لِيُبْعِدُوهُ عَنْ لِقَاءِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ وَيَنْأَوْا بِهِ عَنِ الْإِيمَانِ؛ خَشْيَةً مِنْ أَنْ يَتَّبِعَهُ وَيُؤْمِنَ بِهِ، فَتَتْبَعَهُ «دَوْسٌ» كُلُّهَا؛ نَظَرًا لِمَكَانَتِهِ فِيهَا.

وَاعْتَقَدَ «الطُّفَيْلُ» بِمَا قَالُوهُ لَهُ، فَحَشَا أُذُنَيْهِ قُطْنًا؛ حَتَّى لَا يَسْمَعَ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَطُوفَ حَوْلَ «الْكَعْبَةِ»، فَرَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا يُصَلِّي...

فَجَرَّتْهُ رِجْلَاهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي ـ وَتِلْكَ إِرَادَةُ اللهِ ـ حَتَّى أَصْبَحَ قَرِيبًا، فَسَمِعَ كَلَامًا عَجِيبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ، فَلَمَّا انْتَهَى النَّبِيُّ مِنْ صَلَاتِهِ، لَحِقَ بِهِ «الطُّفَيْلُ» إِلَى دَارِهِ، وَحَدَّثَهُ حَدِيثَ الشَّيَاطِينِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَيْفَ مَنَعُوهُ عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَمَعَ إِلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تُتْلَى مِنْ فَمِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْلَمَ وَآمَنَ، وَخَرَجَ مُتَوَجِّهًا إِلَى «دَوْسٍ» قَبِيلَتِهِ.

وَفِي الطَّرِيقِ ظَهَرَ نُورُ الْإِسْلَامِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَكَأَنَّـــهُ بَدْرٌ يَتَوَقَّدُ وَيَتَوَهَّجُ، فَخَافَ عَلَى نَفْسِـــهِ أَنْ يَنْتَقِدَهُ النَّاسُ، فَدَعَا اللهَ تَعَالَى أَنْ يُحَوِّلَهُ عَنْهُ، فَجَعَلَهُ فِي طَرَفِ سَوْطِهِ.

وَاسْتَمَرَّ «الطُّفَيْلُ» يَدْعُو قَوْمَهُ حَتَّى آمَنُوا وَأَسْلَمُوا.

فِي الطَّائِفِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (إِبْرَاهِيمُ: 24 ـ 27).

***

أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ.

الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ كَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، وَارِفَةُ الظِّلَالِ، مَدِيدَةُ الْأَغْصَانِ، يَانِعَةُ الْأَثْمَارِ، عَمِيقَةُ الْجُذُورِ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ.. وَالْكَلِمَةُ الْخَبِيثَةُ كَالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ، يَابِسَةُ الْأَغْصَانِ، جَافَّةُ الْأَوْرَاقِ، كَثِيرَةُ الْأَشْوَاكِ، عَدِيمَةُ الْعَطَاءِ، ضَعِيفَةُ الْجُذُورِ، سَرِيعَةُ الْفَنَاءِ...

وَكَذَلِكَ النُّفُوسُ فَهِيَ كَالْأَرْضِ، مِنْهَا ذَاتُ التُّرْبَةِ الْخِصْبَةِ الصَّالِحَةِ، تَمْتَصُّ الْمِيَاهَ، وَتَبْعَثُ النَّبَاتَ مِنْ فَوْقِ سَطْحِهَا أَخْضَرَ يَانِعًا، طَيِّبَ الْمَطْعَمِ، شَهِيَّ الْمَذَاقِ، رَائِعَ الْمَنْظَرِ، وَمِنْهَا تُرْبَةٌ كَثِيرَةُ الْحَصَى وَالْحِجَارَةِ، أَوْ صَخْرِيَّةٌ لَا تَتَقَبَّلُ بُذُورًا، وَلَا تُعْطِي خَيْرًا.

وَلَقَدْ كَانَتْ نُفُوسُ أَهْلِ «مَكَّةَ» مِنْ نَوْعِ الْأَرْضِ الصَّخْرِيَّةِ الصَّلْدَةِ، فِي قَسَاوَتِهَا وَغِلْظَتِهَا، لَمْ تَتَقَبَّلْ دَعْوَةَ الْخَيْرِ، وَلَا تَجَاوَبَتْ مَعَ بَذْرَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ.

وَبَعْدَ تَجَارِبَ كَثِيرَةٍ وَمُحَاوَلَاتٍ عَدِيدَةٍ، ظَلَّ الْقُرَشِيُّونَ عَلَى عِنَادِهِمْ، وَكَمَا وَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ:

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ (المُدَّثِّرُ: 50 ، 51).

لِهَذَا وَبَعْدَ (عَامِ الْحُزْنِ)، وَبَعْدَ أَنْ أَمْعَنُوا فِي ضَلَالِهِمْ وَفِي غَيِّهِمْ، وَمُحَارَبَتِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَدَعْوَتِهِ وَأَصْحَابِهِ، فَكَّرَ ﷺ فِي الذَّهَابِ إِلَى «الطَّائِفِ»؛ لَعَلَّهُ يَجِدُ عِنْدَ «ثَقِيفٍ» تَجَاوُبًا وَإِدْرَاكًا وَاقْتِنَاعًا.

وَكَانَ بَيْنَ «ثَقِيفٍ» وَقُرَيْشٍ مُصَاهَرَةٌ، فَقَدْ كَانَ أَحَدُ سَادَاتِهَا مُتَزَوِّجًا مِنْ قُرَشِيَّةٍ مِنْ «بَنِي مَذْحِجٍ»، فَقَصَدَ ﷺ «الطَّائِفَ».

وَهِيَ تَقَعُ إِلَى الشَّرْقِ مِنْ «مَكَّةَ» فِي مُرْتَفَعَاتٍ جَبَلِيَّةٍ، يَطِيبُ فِيهَا الْهَوَاءُ وَالْمُنَاخُ، وَتَكْثُرُ فِيهَا الْفَاكِهَةُ الشَّهِيَّةُ، وَالْمِيَاهُ الْعَذْبَةُ النَّقِيَّةُ.

وَكَانَ زُعَمَاءُ «ثَقِيفٍ» ثَلَاثَةً، هُمْ: «عَبْدُ يَالِيلَ»، وَ«مَسْعُودٌ»، وَ«حَبِيبٌ»

أَبْنَـاءُ «عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ»، فَأَتَاهُمْ ﷺ فِي دَارِهِـمْ، وَجَلَسَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ، وَيَدْعُوهُـمْ إِلَى الْإِسْـلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَيَعْـرِضُ عَلَيْهِمْ مَحَاسِـنَ الدِّينِ وَمَسَاوِئَ الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا انْتَهَى قَالَ أَوَّلُهُمْ:

- إِنَّنِي عَلَى اسْتِعْدَادٍ أَنْ أَكْسُوَ «الْكَعْبَةَ» بِمُفْرَدِي، إِنْ كَانَ اللهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ نَبِيًّا!

ثُمَّ هَزَّ رَأْسَهُ اسْتِخْفَافًا وَاسْتِنْكَارًا.

وَقَالَ ثَانِيهِمْ:

- أَمَا وَجَدَ اللهُ أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرَكَ؟!

وَأَرْدَفَ ثَالِثُهُمْ:

- وَاللهِ لَا أُكَلِّمُـكَ أَبَدًا... لَئِنْ كُنْتَ رَسُـولًا مِنَ اللهِ ـ كَمَا تَقُولُ ـ لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ الْـكَلَامَ، وَلَئِنْ كُنْتَ تَكْذِبُ عَلَى اللهِ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلِّمَكَ!

إِزَاءَ هَـذَا الْمَوْقِفِ، آثَرَ ﷺ أَنْ يَعُودَ إِلَى «مَكَّـةَ» حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، ثُـمَّ طَلَبَ إِلَى النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ أَنْ يَكْتُمُـوا خَبَرَ قُدُومِهِ عَلَيْهِمْ، وَدَعْوَتِهِ إِيَّاهُمْ؛ حَتَّى لَا تَشْمَتَ بِهِ قُرَيْشٌ، قَالَ لَهُمْ ﷺ:

- إِنْ فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ، فَاكْتُمُوا عَلَيَّ.

وَلَكِـنَّ النُّفُوسَ الْخَبِيثَـةَ الْمَاكِرَةَ أَبَتْ إِلَّا الْإِسَـاءَةَ وَالْإِيذَاءَ، فَمَا إِنْ غَادَرَهُمْ ﷺ عَائِدًا فِي طَرِيقِهِ إِلَى «مَكَّةَ»، حَتَّى أَحَاطَ بِهِ غِلْمَانُهُمْ وَعَبِيدُهُمْ

وَمَأْجُورُوهُمْ وَصِبْيَانُهُمْ، وَرَاحُوا يَقْذِفُونَهُ بِالْحَصَى وَالْحِجَارَةِ حَتَّى أَدْمَوْا عَقِبَيْهِ!! وَكَانَ السُّفَهَاءُ مِنْهُمْ يَسُبُّونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ، وَيَقِفُونَ فِي وَجْهِهِ يَسُدُّونَ عَلَيْهِ الطُّرُقَ وَالْمَنَافِذَ، زِيَادَةً فِي السُّخْرِيَةِ وَالضَّرَرِ وَالْإِيذَاءِ!!

وَبَعْدَ صَبْرٍ وَجُهْدٍ اسْتَطَاعَ ﷺ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ، وَيَبْلُغَ ضَاحِيَةَ «الطَّائِفِ»... وَهُوَ فِي حَالَةٍ شَدِيدَةٍ مِنَ الْحُزْنِ وَالْأَسَى وَالْإِعْيَاءِ.

وَهُنَاكَ وَجَدَ بُسْتَانًا ظَلِيلًا، فَلَجَأَ إِلَى شَجَرَةٍ مِنْهُ يَتَفَيَّأُ ظِلَّهَا، وَيَسْتَرْوِحُ النَّسِيمَ تَحْتَ أَغْصَانِهَا، وَيُرِيحُ جَسَدَهُ الْمَكْدُودَ وَقَلْبَهُ الْمُتْعَبَ...

وَكَانَ الْبُسْتَانُ لِـ «عُتْبَةَ» وَ«شَيْبَةَ» ابْنَا «رَبِيعَةَ»، وَكَانَا هُنَاكَ يَتَفَقَّدَانِ الْأَشْجَارَ وَالْأَثْمَارَ...

وَلَقَدْ رَأَيَا بِأُمِّ الْعَيْنِ مَا لَقِيَهُ ﷺ مِنْ أَذَى السُّفَهَاءِ الَّذِينَ لَحِقُوا بِهِ حَتَّى أَلْجَأُوهُ إِلَى الْبُسْتَانِ...

وَيُقَالُ: إِنَّهُ ﷺ قَصَدَ الْمَرْأَةَ الْقُرَشِيَّةَ بَعْدَ أَنْ صَدَّهُ زُعَمَاءُ ثَقِيفٍ صَدًّا قَبِيحًا، وَبَعْدَ أَنْ آذَاهُ غِلْمَانُهُمْ وَصِبْيَانُهُمْ وَسُفَهَاؤُهُمْ وَقَالَ لَهَا مُعَاتِبًا:

ـ مَاذَا لَقِينَا مِنْ أَحْمَائِكِ؟!

ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ يَسْتَرِيحُ فِي الْبُسْتَانِ، وَتَوَجَّهَ بِبَصَرِهِ وَقَلْبِهِ وَكُلِّ وِجْدَانِهِ إِلَى السَّمَاءِ، إِلَى الْعَلِيِّ الْأَعْلَى الَّذِي لَا يَخِيبُ عِنْدَهُ رَجَاءٌ وَلَا أَمَلٌ، إِلَى الَّذِي أَرْسَلَهُ لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَحَمَّلَهُ مَسْئُولِيَّةَ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، اتَّجَهَ دَامِعَ

الْعَيْنِ، يَمْسَحُ عَنْ وَجْهِهِ آثَارَ الْغُبَارِ، وَعَنْ ثَوْبِهِ عِنْدَ الذَّيْلِ آثَارَ الدِّمَاءِ الَّتِي عَلِقَتْ بِهِ مِنْ عَقِبَيْهِ، وَيَمْسَحُ الْعَرَقَ الْمُخْتَلِطَ بِالدُّمُوعِ عَنْ خَدَّيْهِ الشَّرِيفَيْنِ، ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟! إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي (يَلْقَانِي بِالْغِلْظَةِ وَالْوَجْهِ الْكَرِيهِ)، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟!

إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي؛ وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي.

أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ. لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَيْنِ «عُتْبَةَ» وَ«شَيْبَةَ» ابْنَا «رَبِيعَةَ» تَحَرَّكَتْ فِي قُلُوبِهِمَا عَاطِفَةُ الرَّحْمَةِ، وَتَأَثَّرَا بِمَا شَاهَدَا مِنْ عَذَابِ أَهْلِ «ثَقِيفٍ» لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَجُلُوسِهِ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ يَنْفُضُ عَنْ ثَوْبِهِ وَبَدَنِهِ آثَارَ سَفَاهَتِهِمْ وَجَهْلِهِمْ...

فَنَادَيَا عَلَى غُلَامٍ يَعْمَلُ عِنْدَهُمَا أَجِيرًا اسْمُهُ «عَدَّاسٌ»، فَقَالَا لَهُ:

- يَا «عَدَّاسُ» خُذْ قُطْفًا مِنَ الْعِنَبِ، وَضَعْهُ فِي طَبَقٍ، ثُمَّ قَدِّمْهُ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الْجَالِسِ فِي الظِّلِّ...

فَأَطَاعَ «عَدَّاسٌ» سَيِّدَيْهِ، وَانْتَقَى قُطْفًا كَبِيرًا، ثُمَّ وَضَعَهُ فِي طَبَقٍ وَحَمَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ فَلَمَّا وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، مَدَّ ﷺ يَدَهُ لِيَأْكُلَ وَقَالَ:

- بِسْمِ اللهِ...

فَنَظَرَ إِلَيْهِ «عَدَّاسٌ» مُتَعَجِّبًا، وَقَالَ:

- هَذَا لَيْسَ بِكَلَامِ أَهْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ.

فَقَالَ ﷺ:

- مَا اسْمُكَ؟

فَقَالَ:

- «عَدَّاسٌ».

ثُمَّ سَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- وَمَا دِينُكَ؟

فَقَالَ «عَدَّاسٌ»:

- النَّصْرَانِيَّةُ.

فَقَالَ ﷺ:

- وَمِنْ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ؟

فَقَالَ:

- مِنْ «نِينَوَى».

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ «يُونُسَ بْنِ مَتَّى».

وَهُنَا فَغَرَ «عَدَّاسٌ» فَمَهُ، وَازْدَادَ إِعْجَابًا، وَقَالَ بِلَهْفَةٍ:

- وَمَا أَدْرَاكَ مَا «يُونُسُ بْنُ مَتَّى»؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

- أَنَا نَبِيٌّ وَهُوَ نَبِيٌّ.

فَأَكَبَّ «عَدَّاسٌ» عَلَى يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُهُمَا وَيَتَمَسَّحُ بِثَوْبِهِ.

وَكَانَ السَّيِّدَانِ يَنْظُرَانِ إِلَى مَا يَفْعَلُ «عَدَّاسٌ» ـ غُلَامُهُمَا ـ فِي عَجَبٍ وَحَيْرَةٍ، وَلَوْ قَدِرَا عَلَى مُنَادَاتِهِ لَفَعَلَا، فَلَمَّا عَادَ إِلَيْهِمَا «عَدَّاسٌ» سَأَلَاهُ:

- مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ مِنْ تَقْبِيلِ يَدَيْ ذَلِكَ الرَّجُلِ، وَالتَّمَسُّحِ بِثَوْبِهِ؟

فَقَالَ:

- يَا سَيِّدَيَّ... مَا فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ خَيْرٌ مِنْ هَذَا، لَقَدْ أَخْبَرَنِي بِأَمْرٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ.

فَقَالَا لَهُ:

- وَيْحَكَ يَا «عَدَّاسُ»، لَا يَصْرِفَنَّكَ عَنْ دِينِكَ، فَإِنَّ دِينَكَ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ.

ثُمَّ قَامَ ﷺ مُتَثَاقِلَ الْخُطَى، يَمْشِي فِي عَجْزٍ، قَاصِدًا «مَكَّةَ»، وَلَقَدْ كَانَتْ نَفْسُهُ الشَّرِيفَةُ تَعْتَمِلُ بِعَوَامِلِ الْيَأْسِ وَالْغَضَبِ وَالْحُزْنِ، وَتَتَقَلَّبُ مَعَ تِلْكَ التَّيَّارَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، إِلَى أَنْ ثَبَّتَهُ اللهُ تَعَالَى، وَأَزَاحَ عَنْ صَدْرِهِ الْهُمُومَ وَالْأَحْزَانَ، وَأَفْسَحَ عَنْهُ الْكَدَرَ وَالْغَمَّ؛ وَأَلْقَى فِي رَوْعِهِ نَفْحَةً مِنَ الصَّبْرِ

وَالطُّمَأْنِينَةِ، فَعَاوَدَ السَّـــيْرَ مُجَدَّدًا، فِي حَزْمٍ وَعَزْمٍ؛ لِأَنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ قَـــدْ تَكَفَّلَ بِالْحِمَايَةِ وَالرِّعَايَةِ: الْحِمَايَةِ مِنْ كُلِّ أَذًى وَسُـــوءٍ، وَالرِّعَايَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَمَضَى مُتَوَكِّلًا عَلَى اللهِ، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطَّلَاقُ: 3).

وَمَا إِنْ سَـــارَ قَلِيلًا حَتَّى أَظَلَّتْهُ سَـــحَابَةٌ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا فِيهَا «جِبْرِيلُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ.

تُحَدِّثُنَا السَّيِّدَةُ «عَائِشَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ عَنْ ذَلِكَ فَتَقُولُ:

ـ قُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

ـ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْكَ مِنْ يَوْمِ «أُحُدٍ»؟

فَقَالَ ﷺ:

«مَـــا لَقِيتُ مِنْ قُرَيْشٍ (أَيْ يَوْمَ أُحُدٍ) كَانَ أَشَـــدَّ مِنْهُ يَوْمَ الْعَقَبَةِ (أَيْ يَوْمَ ثَقِيفٍ فِي الطَّائِفِ)؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِـــي عَلَى «عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كِلَالٍ»، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِـ «قَرْنِ الثَّعَالِبِ»، فَرَفَعْتُ رَأْسِـــي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا «جِبْرِيلُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ فَنَادَانِي فَقَالَ:

ـ إِنَّ اللهَ قَدْ سَـــمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ لَكَ مَلَكَ الْجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ مِنْهُمْ.

ثُمَّ نَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ:

- يَا «مُحَمَّدُ»، قَدْ بَعَثَنِي اللهُ... إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، قَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ لِتَأْمُرَنِي فِيهِمْ مَا شِئْتَ... إِنْ شِئْتَ تُطْبِقُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ (جَبَلَانِ بِمَكَّةَ) فَعَلْتُ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- كَلَّا يَا أَخِي... بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.

وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ فِي وَصْفِ نَبِيِّهِ ﷺ إِذْ قَالَ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (التَّوْبَةُ: 128، 129).

وَاسْتَمَرَّ ﷺ فِي سَيْرِهِ نَحْوَ «مَكَّةَ»؛ وَلَكِنَّ...

وَلَكِنَّ الْأَمْرَ الْيَوْمَ فِي دُخُولِهَا يَخْتَلِفُ عَنِ الْأَمْسِ الدَّابِرِ؛ فَقَدْ كَانَ فِيهَا مَنِيعًا بِعَمِّهِ «أَبِي طَالِبٍ»، وَبِزَوْجَتِهِ «خَدِيجَةَ» - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَمَّا الْيَوْمَ فَلَا نَاصِرَ وَلَا مُعِينَ إِلَّا اللهُ... وَلَا بُدَّ مِنْ جِوَارٍ.

تِلْكَ هِيَ عَادَةُ الْعَرَبِ، وَذَلِكَ عُرْفُهُمْ وَقَانُونُهُمْ، وَإِلَّا فَإِنَّ دَمَهُ مَهْدُورٌ، وَهُوَ عُرْضَةٌ لِكُلِّ أَذًى... وَقَدْ يَكُونُ فِي هَذَا الْأَذَى الْهَلَاكُ وَالْمَوْتُ.

فَتَوَقَّفَ عَنِ الْمَسِيرِ لِيَدْرُسَ الْأَمْرَ، وَيَسْتَيْقِنَ مِنَ السَّلَامَةِ؛ ضَنًّا بِالدَّعْوَةِ وَالدِّينِ.

وَخَطَرَ عَلَى ذِهْنِهِ عِدَّةُ أَسْمَاءٍ يَطْمَعُ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ صَاحِبَ مُرُوءَةٍ وَنَخْوَةٍ فَيُجِيرَهُ، وَيُدْخِلَهُ فِي حِمَاهُ، وَيَمْنَعَ عَنْهُ أَذَى الْمُشْرِكِينَ.

فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَوَّلِ وَهُوَ «الْأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْقٍ» يَعْرِضُ عَلَيْهِ الْمَوْضُوعَ، فَقَالَ «الْأَخْنَسُ»:

- إِنَّ حَلِيفَ قُرَيْشٍ لَا يُجِيرُ عَلَى صَمِيمِهَا.

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ «الْأَخْنَسَ بْنَ شُرَيْقٍ» لَيْسَ مِنْ قُرَيْشٍ أَصْلًا، وَلَا مِنْ «مَكَّةَ»، بَلْ هُوَ مِنَ الْوَافِدِينَ عَلَيْهَا، الْقَاطِنِينَ فِيهَا، الْمُتَحَالِفِينَ مَعَ أَهْلِهَا، فَكَيْفَ يُجِيرُ قُرَشِيًّا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟

فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَعَذَرَهُ فِيمَا أَبْدَاهُ.

ثُمَّ بَعَثَ إِلَى «سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو»، فَقَالَ مُعْتَذِرًا:

- إِنَّ «بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ» لَا تُجِيرُ عَلَى «بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ».

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى «الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ»، فَرَدَّ عَلَيْهِ «الْمُطْعِمُ» قَائِلًا:

- نَعَمْ، قُلْ لَهُ فَلْيَأْتِ.

وَكَانَ رَسُولُهُ ﷺ إِلَى الرِّجَالِ الثَّلَاثَةِ، رَجُلٌ يُدْعَى «أُرَيْقِطَ».

فَذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ «الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ»، فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَكَّةَ» لَيْلًا، وَتَوَجَّهَ إِلَى بَيْتِ «الْمُطْعِمِ» فَبَاتَ عِنْدَهُ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ، خَرَجَ مَعَ «الْمُطْعِمِ» وَبَنِيهِ، وَكَانُوا سَبْعَةً، كُلُّهُمْ يَتَقَلَّدُونَ سُيُوفَهُمْ، حَتَّى أَتَوُا الْمَسْجِدَ، عِنْدَ فِنَاءِ «الْكَعْبَةِ»؛ ثُمَّ قَالَ «الْمُطْعِمُ»

لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

- طُفْ بِالْبَيْتِ كَمَا تَشَاءُ.

وَاحْتَبَوْا هُمْ بِحَمَائِلِ سُيُوفِهِمْ.

وَكَانَ الْمَشْهَدُ مَدْعَاةَ تَسَاؤُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَتَعَجُّبٍ... «مُحَمَّدٌ» ﷺ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ «مَكَّةَ» ضَعِيفًا لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا طَوْلَ، وَيَعُودُ إِلَيْهَا الْآنَ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، وَمِنْ حَوْلِهِ «الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ» وَأَبْنَاؤُهُ!! هَذَا وَاللهِ أَمْرٌ لَا تَحْتَمِلُهُ عُقُولُ الشِّرْكِ، وَلَا أَحَاسِيسُ الْكَفَرَةِ، وَلَا مَشَاعِرُ الْجَبَابِرَةِ الطُّغَاةِ...

وَأَسْرَعَ «أَبُو سُفْيَانَ» إِلَى «الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ» يَسْأَلُهُ:

- أَمُجِيرٌ أَمْ تَابِعٌ؟

أَيْ هَلْ أَنْتَ فِي مَوْقِفِكَ هَذَا مُجِيرٌ لِـ «مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ» أَمْ تَابِعٌ لَهُ، قَدْ وَافَقْتَهُ عَلَى دِينِهِ؟

فَقَالَ «الْمُطْعِمُ»:

- لَا... بَلْ مُجِيرٌ.

فَقَالَ «أَبُو سُفْيَانَ»:

- إِذَنْ لَا تُخْفَرُ.

أَيْ لَا نَخْفِرُ ذِمَّتَنَا مَعَكَ، أَمَّا إِذَا كُنْتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ التَّابِعِينَ لِـ «مُحَمَّدٍ» فَذَلِكَ شَأْنٌ آخَرُ، تَقْتَضِينَا عِزَّتُنَا وَعَنْجَهِيَّتُنَا أَنْ نُحَارِبَكُمْ جَمِيعًا.

ثُمَّ جَلَسَ «أَبُو سُفْيَانَ» بِجَانِبِ «الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ»، حَتَّى فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ طَوَافِهِ تَعْظِيمًا لِلْبَيْتِ، فَلَمَّا انْتَهَى وَانْصَرَفَ، انْصَرَفَ مَعَهُ «الْمُطْعِمُ» وَبَنُوهُ.

وَعَادَ «أَبُو سُفْيَانَ» إِلَى مَجْلِسِ السَّادَةِ مِنْ قُرَيْشٍ يَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ، وَالْحَسْرَةُ تَأْكُلُ قَلْبَهُ؛ لِيُخْبِرَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ جِوَارِ «الْمُطْعِمِ» لِـ«مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ».

وَلَقَدْ مَدَحَ «حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ» شَاعِرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ «الْمُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ»، فَقَالَ:

أَجَرْتَ رَسُولَ اللهِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا
عِبَادَكَ مَا لَبَّى مُحِلٌّ وَأَحْرَمَا

فَلَوْ سُئِلَتْ عَنْهُ «مَعَدٌّ» بِأَسْرِهَا
وَ«قَحْطَانُ» أَوْ بَاقِي بَقِيَّةِ «جُرْهُمَا»

لَقَالُوا هُوَ الْمُوفِي بِخَفْرَةِ جَارِهِ
وَذِمَّتِهِ يَوْمًا إِذَا مَا تَجَشَّمَا

وَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فَوْقَهُمْ
عَلَى مِثْلِهِ فِيهِمْ أَعَزَّ وَأَكْرَمَا

إِبَاءً إِذَا يَأْبَى وَأَلْيَنَ شِيمَةً
وَأَنْوَمَ عَنْ جَارٍ إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا

ثُمَّ إِنَّ مَوْقِفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنَ «الطَّائِفِ» وَقَدْ رَدَّتْهُ «ثَقِيفٌ» رَدًّا قَبِيحًا، كَانَ صَعْبًا وَدَقِيقًا؛ إِذْ هُوَ الْآنَ فِي جِوَارِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ «مَكَّةَ»، وَأَكْثَرُ أَصْحَابِهِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى نُصْرَتِهِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي جِوَارِ وَحِمَايَةِ أَحَدِ الْقُرَشِيِّينَ، بَعِيدًا عَنِ الْوَطَنِ، وَالْمُسْتَضْعَفُونَ فِي وَجَلٍ وَنَصَبٍ وَعَذَابٍ.

فَمَا الْعَمَلُ؟!

وَكَانَ لِلْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ أَسْوَاقٌ وَمَوَاسِمُ يَتَوَافَدُونَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ، بِقَبَائِلِهِمْ وَجُمُوعِهِمْ، مِنْهَا «الْمِرْبَدُ» وَ«عُكَاظُ» وَ«ذُو مَجَازٍ»، فَتُقَامُ أَثْنَاءَهَا نَدَوَاتُ الْأَدَبِ وَالشِّعْرِ، وَيَتِمُّ التَّبَادُلُ التِّجَارِيُّ.

وَبِمَا أَنَّ قُرَيْشًا نَفَرَتْ وَجَمَحَتْ وَأَنْكَرَتْ وَحَارَبَتْ، وَبِمَا أَنَّ «ثَقِيفًا» هَزَأَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ، فَكَّرَ ﷺ فِي عَرْضِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْوَافِدَةِ؛ لَعَلَّهُ يَجِدُ فِي بَعْضِهَا مَنْ يُؤَيِّدُهُ وَيُوَافِقُهُ وَيَنْصُرُهُ.

فَلَمْ يَتْرُكْ ﷺ وَفْدًا مِنَ الْوُفُودِ إِلَّا وَوَقَفَ فِيهِمْ خَطِيبًا دَاعِيًا، مُنْذِرًا وَمُحَذِّرًا.

فَكَانُوا جَمِيعًا يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ مَا يَقُولُ، بِمُخْتَلِفِ الْحِجَجِ وَالْعِلَلِ، وَيُعْرِضُونَ عَنْهُ، أَوْ يُسَفِّهُونَ رَأْيَهُ، وَيَهْزَأُونَ بِدَعْوَتِهِ، وَإِذَا مَا قُدِّرَ لِأَحَدِ النَّاسِ، أَوْ بَعْضِ الْوُفُودِ أَنْ يَسْتَمِعُوا إِلَيْهِ وَيَتَجَاوَبُوا مَعَهُ، كَانَ مِنْ وَرَائِهِ شَخْصٌ يُلَاحِقُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَوْقِفٍ، يُحَذِّرُهُمْ مِمَّا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ

«مُحَمَّدٌ» ﷺ وَيَقُولُ لَهُمْ: لَا تُصَدِّقُوهُ وَلَا تُطِيعُوهُ، وَلَا تُبَالُوا بِمَا يَقُولُ، فَمَا هُوَ إِلَّا شَاعِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَوْ مَسْحُورٌ.

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الشَّخْصُ سِوَى عَمِّهِ «عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» «أَبِي لَهَبٍ»!!

وَلَعَلَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لِحِكْمَةٍ سَامِيَةٍ بَالِغَةٍ، كَانَ يَصْرِفُ الْعَرَبَ عَنْ تَأْيِيدِهِ؛ لِيَدَّخِرَ ذَلِكَ لِلْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ «يَثْرِبَ»، فَيَكُونَ لَهُمُ الشَّرَفُ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا فِي مُؤَازَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَحَمْلِ لِوَاءِ الدَّعْوَةِ، وَنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ.

وَلَمْ يَتْرُكِ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذَا الْجَوِّ الْمَشْحُونِ بِالْحُزْنِ وَالْأَسَى وَالْإِعْرَاضِ، فَقَدْ كَانَ يُعِدُّ لَهُ يَوْمًا عَظِيمًا فِيهِ الْعَزَاءُ وَفِيهِ الرِّفْعَةُ وَالسُّمُوُّ.. يَوْمَ «الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ».